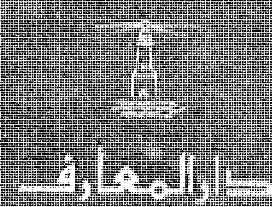
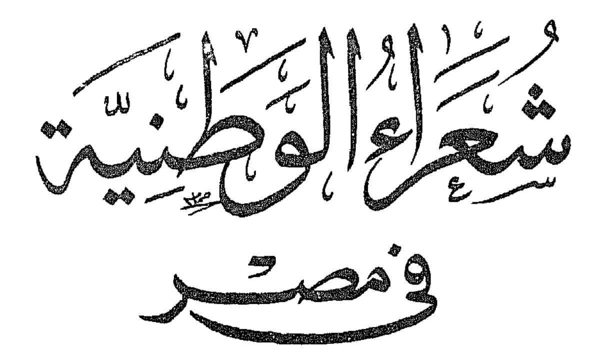
عبد الرحمن الرافعى

شعراء الوطنية في مصر

تراجمهم وشعرهم الوطني
والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم



دار المعارف

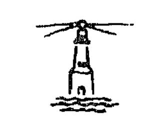


تراجمهم وشعرهم الوطني
والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم

بقلم

عبد الرحمن الرافعي

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.



عبد الرحمن الرافعي

ولد في ٨ من فبراير سنة ١٨٨٩ – وتوفي في ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٦

مقدمة الطبعة الثالثة

هذه هى الطبعة التالية من كتاب المغفور له والدنا عن شعراء الوطنية فى مصر تطابق تماما الطبعة الأولى التى ظهرت سنة ١٩٥٤ ، ولاشك أن جهد دار المعارف بأعضائها جميعا كان له أثره فى ظهور الطبعة الثالثة التى هى الآن فى متناول القارئ ..

والله ولى التوفيق ..

كريمات المؤلف

عبد الرحمن الرافعى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

أقدم الطبعة الثانية لهذا الكتاب طبق الأصل للطبعة الأولى التى أخرجتها سنة ١٩٥٤ وهى ضمن ما أخرجته من سلسلة تاريخ حركتنا الوطنية - أحمد الله وأشكره على نعمائه، وكم كنت أتمنى أن أضيف إلى تراثنا الشعرى الوطنى ما جادت به قرائح شعرائنا الجدد فى المناسبات الوطنية تمشيًا مع روح الاشتراكية والتطور فى عهدنا الحديث خاصة وقد لابست الأمة المصرية ظروف وضحت فيها معالم القومية والوطنية والكفاح والجهاد، وليس أدل على ذلك مما ظهر عقب الاعتداء الثلاثى من قصائد لشعراء وطنيين وغير ذلك من المناسبات الوطنية المعروفة لولا - مرضى الذى منعنى عن جمع وتسجيل قصائد هؤلاء الشعراء فلهم منى صادق اعتذارى.

والله ولى التوفيق..

يوليه سنة ١٩٦٦

عبد الرحمن الرافعى

مقدّمة

عندما أرخت الحركة القومية فى أدوارها المتعاقبة، تبينت مبلغ ما للشعر الوطنى من أثر عميق فى التمهيد لها وبعثها، وإذكاء الروح الوطنية فى نفوس المواطنين، وتسجيل الحوادث الهامة فى تاريخ مصر القومى، ومن يومئذ وأنا توّاق إلى أن أخصص لشعراء الوطنية سفرًا منفردًا، يجمع معظم ماجادت به قرائحهم من الشعر الوطنى، مع التعريف بشخصياتهم، وذكر المناسبات التى أنشأوا فيها قصائدهم الوطنية.

ولقد كنت أرجو أن أُضَمِّن ما أخرجته من سلسلة تاريخ الحركة الوطنية قصائد أولئك الشعراء، وعنيت فعلا بأن أقتبس فى شتى المناسبات، ولكننى وجدت أن هذا الاقتباس لا يكفى للتنويه بفضلهم، وإبراز مبلغ مساهمتهم فى غرس الشعور الوطنى فى نفوس الأجيال المتعاقبة، فواعدت نفسى أن أتفرغ يوما لإخراج كتاب خاص بهم وبأشعارهم الوطنية، وها أنذا أوفى بوعدى.

وإنى لأشعر أنى باخراج هذا الكتاب، أؤدى واجبا نحو أولئك الشعراء، ونحو الحركة الوطنية ذاتها، فالشعراء الذين استلهموا وحى الوطنية فى قصائدهم، واهتزت لها مشاعرهم، واستجابوا إلى نداء الوطن فى عالم الشعر والفن والخيال، وتجاوبوا مع الحركة الوطنية، وكانوا مرآة صادقة لعصرهم، ومصدر إلهام وتوجيه لمواطنيهم، وترجمانا لهم فى آمالهم وآلامهم، وأحاسيسهم وأهدافهم، هؤلاء خليقون جميعًا بتقدير الوطن وثنائه، وإن من أبسط علامات التقدير لهم أن تجمع قصائدهم فى سجل واحد.

على أنى لا أقصد تقديرًا لهم فحسب، بل أقصد إلى تغذية الروح الوطنية بمدد من شعرهم وإلهامهم، وإذا كان مما تعمد إليه الأمم أن تغذى نفوس أبنائها بالأناشيد الوطنية، فأجدر بنا أن نشيع الشعر الوطنى ونجعله فى متناول المواطنين جميعًا، رجالا ونساء، شيبا وشبانا، فكلنا فى حاجة إلى أن نستذكر تلك القصائد الغر التى تملأ النفوس وطنية وإيمانا، وتغرس فيها فضائل الصدق والإخلاص والشجاعة، والتفانى فى أداء الواجب الوطنى، فلعلها تدفعنا إلى السير دائما إلى الأمام، غير متوانين ولا متنابذين، مستمسكين بالمثل العليا فى حياتنا القومية.

إن حياة هؤلاء الشعراء وقصائدهم الوطنية – إلى جانب أنها عماد للأدب وتاريخه – هى قطعة من تاريخ الحركة الوطنية، وعنصر من عناصر بعثها وتطورها، ولا غرو فالشعر فرع من دوحة الأدب، والأدب الوطنى له الأثر الذى لا ينكر فى تكوين المواطن الصالح، والشعر بما

بطبع فى نفس الشاعر من التحليق فى سماء الخيال، والتطلع إلى المثل العليا، يمهد للنهضات الوطنية ويبعثها ويغذيها، إذ يهيب بالأمة أن تتمسك بالحرية والكرامة، ويستحثها على النفور من الذل، وإباء الضيم، ويحبب إليها الثورة على الاستعمار والاستبداد، وشعراء الوطنية فى مصر لهم فى هذه الناحية فضل عميم، فكم ناصروا الحركة الوطنية فى مختلف عهودها، وغذوها بقصائدهم وروائع شعرهم، وسجلوا حوادثها الهامة، وأشادوا بمفاخر الشعب، وأهابوا به أن ينهض ويستعيد مجده القديم، وكم استصرخوا الإنسانية أن تهب لنصرته، وتنتصف له من المظالم التى حاقت به، وإن كثيرًا من روائع الأدب التى جادت بها قرائح أولئك الشعراء كانت معالم للحركة الوطنية، وكان الشباب يحفظها عن ظهر قلب، فتذكى فى نفوسه روح الوطنية والإخلاص والإقدام والتضحية.

وكم من قصيدة أو بيت من الشعر قد حركت المشاعر فى نفوس المواطنين وستحركها على الدوام، مهما تقادمت عليها الأعوام، ألست ترى إلى نشيد المارسلييز؟ كيف أنه رغم تقادم العهد على وضعه لا يزال يلهب شعور الفرنسيين ويثير فى نفوسهم روح الجهاد والفداء، ويقدرون له قدسيته الفنية والوطنية.

ولعل فى جمع عيون الشعر الوطنى فى كتاب واحد ما يبرز لنا فضل أولئك الشعراء فى إمدادهم الروح الوطنية بغذاء معنوى يتجدد على تعاقب العهود والعصور، ولعلنا بذلك نكون أكثر عرفانًا لفضلهم، وتقديرًا لذكرياتهم، وما أجمل وفاء الأمم للمجاهدين السابقين من بنيها، فى مختلف الميادين، ولا غرو فالحركة الوطنية ليست وليدة الجيل الحاضر، ولا هى وقف عليه، بل هى ثمرة الجهود المتواصلة التى يتوارثها المواطنون جيلا بعد جيل، وما أضعف الروح الوطنية إذا حدد مولدها بجيل واحد، لأنها بذلك تكون رخوة البناء، مقفرة المعالم، أما الوطنية الوطيدة الأساس، العالية الذرى، فهى التى تجمع بين مجد الماضى، وجهاد الحاضر، وأمل المستقبل.

إن فى قيثارة الشعر سلوى للقلب، وغذاء للروح، وإنها لتوحى إلى النفوس أسمى معانى الإنسانية، وما أجمل هذه القيثارة حينما تغرد للناس ألحان الوطنية.

هذه المعانى والخواطر هى التى ألهمتنى إخراج هذا الكتاب، وكم يطيب لى أن أنشر فيه صفحات لشعراء تكاد أحداث الزمان تنسينا شعرهم، بل تنسينا أسماء بعضهم، فى حين أن فضلهم لا يصح أن ينسى وآثارهم فى بعث الوطنية لا تمحى، والأدب فى حاجة إلى استذكار أشعارهم، فإنها حقًا عماد الأدب الرفيع وكيانه، وهذه الأشعار هى فى ذاتها سبيل لنشر الثقافة الوطنية بين أفراد الشعب فى مختلف طبقاته.

من أين نبدأ

لقد ساءلت نفسى قبل أن أرسم. خطوط الكتاب: من أين نبدأ تاريخ التسعر الوطنى ؟ أنبدأه من يوم أن قرأنا قصائد سوفى وحافظ وسمعناها ووعيناها وكان لها صداها فى أحياء مساعرنا الوطنية؟ إننا إذ نحدد هذه البداية نكون قد اجتزأنا تاريخ الشعر الوطنى، وأغفلنا مرحلة سبقت شوقى وحافظ، وهذا ما لا يقره الحق والإنصاف ولايرضاه شوقى وحافظ، على علو كعبهما وبلوغهما الذروة بىن سعراء الوطنية.

فلنبحث إذن عن بداية سابقة على سوقى وحافظ.

إننى عندما أرخت مصطفى كامل بحتت فى بداية الحركة الوطنية الحدينة، وتساءلت هل تبدأ هذه الحركة بظهور مصطفى كامل فيكون تأريخه تاريخًا لها، أم أن لها بداية سبقت ظهوره؟ وعلى أننى تلميذ لمصطفى كامل وكان تتلمذى له هو من البواعت على إخراجى لتاريخه، كما نوهت إلى ذلك فى مقدمة كتابىَ عنه، فإنى فد وجدت من الإنصاف أن أبحت عن الأدوار التى تقدمت عصر مصطفى كامل، لأقف عند حدّ يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية الحدينة، وانتهى بى البحث إلى أن بدايتها – فى تاريخ مصر الحديت – ترجع إلى أواخر القرن التامن عشر وأوائل التاسع عسر، وأن أول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر، ومن ىم تطورت الفكرة عندى من تأريخ لمصطفى كامل إلى تأريخ للحركة القومية، وعلى هذا الأساس أخرجت سلسلة هذا التاريخ.

وأرانى فى تأريخ الشعر الوطنى أميل إلى سلوك متل هذا المنهج، فرجعت فى بدايته إلى الماضى، ووجدت أن روح الوطنية – بمعناها الحديث – قد بدأت تدخل التسعر المصرى، وتبعث فيه من حياتها وبهائها، وتضفى عليه من جمالها، وجلالها منذ أوائل القرن التاسع عسر، وأول رائد لهذه النهضة هو رفاعة رافع الطهطاوى، فالى هذا العهد يجب أن نرجع ظهور الشعر الوطنى فى مصر، وهكذا يبدو التقارب بىن ظهور الحركة الوطنية وظهور التسعر الوطنى فى تاريخنا الحديت.

فلنبدأ إذن برفاعة رافع الطهطاوى ولندرس تطور الشعر الوطنى من بعده إلى وقتنا الحاضر.

ويطيب لى فى صدد التنويه بسعراء الوطنية، أن أعتذر عما فاتنى من تأريخهم، وأعوزنى الحديث عنهم، فأنى أقصد من ساعر الوطنية من تغلب عليه النزعة الوطنية فى شعره، فإذا كان فاتنى أن أتحدث عن بعض التسعراء الممتازين، فالأمر لا يعدو أن يكون رأيًا تقديريًّا، وأن يكون سعرهم الوطنى قد بدا لى مغمورًا فى بحر شعرهم الفياض، وهذا لا يغض بداهة من

منزلتهم فى عالم الشعر والأدب، وحسبى عذرا لى أن رأيى التقديرى فى تخيّر شعراء الوطنية كان نتيجة دراسات مستفيضة، عكفت عليها سنين عديدة، ولم أقتصر على ما وعتـه ذاكراتى من الشعر الوطنى فى مختلف المناسبات، ولا عـلى دواوين الشعراء، بـل ذهبت أستقصى الشعر الوطنى فى مجاميع الصحف والمجلات، عاما بعد عام، قرابة نصف قـرن من الزمـان، بحيث اكتملت لدى مجموعة من أشعار الوطنية، بعضها لم ينشر من قبل فى كتاب أو ديوان، ومع ذلك فإذا نبهنى القارئ الكريم إلى شاعر فاتنى الحديث عنه، ضمن شعراء الوطنية، فانى على أتم الاستعداد لتدارك هذا النقص فى الطبعة التالية من الكتاب، لأنى أود حقًّا أن أستكمل أى نقص بدا منى فى هذه الناحية، وليس أحب إلى نفسى من أن أسجل فى كتابى كل قصيدة بل كل بيت من الشعر الوطنى.

والله أسأل أن يكون فى هذه الدراسة ما يعين على نشر الأدب الوطنى وإذاعته، وتعميمه بين المواطنين، والحمد لله أولا وأخيرًا.

[illegible] سنة ١٩٥٤

عبد الرحمن الرافعى

رفاعة رافع الطهطاوى

١٨٠١ - ١٨٧٣



مصرىٌّ صميم، من أقصى الصعيد، نشأ نشأة عادية، من أبوين فقيرين، قرأ القرآن، وتلقى العلوم الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم فى عصره، ودخل الأزهر كما دخله غيره، وصار من علمائه كما صار الكثيرون، ولكنه بذَّ الأقران، وتفرد بالسبق عليهم، وتسامت شخصيته إلى عليا المراتب، ذلك أنه كان يحمل بين جنبيه نفسًا عالية، وروحًا متوثبة، وعزيمة ماضية، وذكاء حادًا، وشغفًا بالعلم، وإخلاصًا للوطن وبنيه، تهيأت له أسباب الجدِّ والنبوغ، فاستوفى علوم الأزهر فى ذلك العصر، ثم صحب البعثة العلمية الأولى من بعثات محمد على، وارتحل إلى معاهد العلم فى باريس، واستروح نسيم الثقافة الأوربية، فزادت معارفه، واتسعت مداركه، ونفذت بصيرته، لكنه احتفظ بشخصيته، واستمسك بدينه وقوميته، فأخذ من المدنية الغربية أحسنها، ورجع إلى وطنه كامل الثقافة، مهذب الفؤاد، ماضى العزيمة، صحيح العقيدة، سليم الوجدان، عاد وقد اعتزم خدمة مصر من طريق العلم والتعليم، فبرّ بوعده، ووفى بعهده، واضطلع بالنهضة العلمية تأليفًا وترجمة، وتعليما وتربية، فملأ البلاد بمؤلفاته ومعرباته، وتخرج على يديه جيل من خيرة علماء مصر، وحمل مصباح العلم والعرفان يضىء به أرجاء البلاد، وينير به البصائر والأذهان، وظل يحمله نيفًا وأربعين سنة، وانتهت إليه الزعامة العلمية والأدبية فى عصر محمد على، وامتدت زعامته إلى عهد اسماعيل، ذلك هو رفاعة رافع الطهطاوى(١).

ولد فى طهطا بمديرية جرجا سنة ١٨٠١ (١٢١٦ هـ)، وبدت عليه مخايل الذكاء والنباهة منذ صباه، ودخل الأزهر سنة ١٨١٧، ولم يمض عليه به بضع سنوات حتى صار من طبقة العلماء، وتولى التدريس فيه سنتين، وصنف وألف ودرس وهو فى الحادية والعشرين من سنه، ثم عين واعظًا وإماما فى أحد ألايات الجيش المصرى، ولما جاء عهد البعثات العلمية كان من حسن

---

(١) عن ترجمته فى كتابنا تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث – عصر محمد على.

التوفيق أن اختاره محمد على ضمن أعضاء البعثة الأولى التى سافرت إلى فرنسا سنة ١٨٢٦، فجمع إلى ثقافته الأزهرية ثقافة أوروبا وعلومها وآدابها، فاقتبس منها الشىء الكثير، وازدهرت روحه الأدبية على ضوء الحضارة الغربية، ولما عاد إلى مصر سنة ١٨٣١ تولى عدة مناصب فى التعليم، وأنشأ مدرسة الألسن سنة ١٨٣٦، وكانت أشبه ما تكون بكلية الآداب والحقوق فى مصر، وكان رفاعة يتولى نظارتها ويلقى فيها دروسه على الطلبة، فكانت أكبر معهد لنشر الثقافة فى مصر، وتنقل فى المناصب العلمية، وكان لا يفتأ يؤلف ويخرج من حين لآخر مصنفاته ومعرباته فى العلوم والآداب إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٨٧٣[٢].

وهو أول رائد لنهضة العلم والأدب فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان شاعرًا رقيقًا بالقياس إلى عصره، أشربت نفسه الوطنية منذ نعومة أظفاره، تلقاها من إيمانه الصادق (وحب الوطن من الإيمان)، ومن فطرته السليمة، وخلوص نيته، وقد استثار رحيله عن مصر إلى فرنسا عاطفته الوطنية العميقة المتأصلة فى نفسه الحساسة، فجادت قريحته وهو فى باريس بقصيدة عبّر فيها عن الحنين إلى الوطن وأهله، والإشادة بمفاخره، قال فى مطلعها:

ناح الحمامُ على غصون البانِ   فأباح شيمةَ مغرمٍ وَلْهَانِ

وانتقل إلى التغنى بمصر وذكر محاسنها وقال:

هذا لعمرى إن فيها سادة   قد زُيِّنوا بالحسن والإحسان
يا أيها الخافى عليك فخارها   فإليك أن الشاهد الحسنان
ولئن حلفتُ بأنَّ مصر لَجَنَّةٌ   وقطوفها للفائزين دوان
والنيل كوثرها الشهى شرابه   لأبرُّ كلَّ البرِّ فى أيمانى

وله قصائد ومنظومات وطنية قالها فى مناسبات مختلفة.

فانظر إلى القصيدة الآتية تجدها تعبّر عما يجيش فى نفسه من أكرم العواطف وأنبلها، وقد قدمها هو بقوله «وقلت أيضًا وطنية»، فالروح الوطنية تتمشى حتى فى تقديمه لقصائده، قال:

ياصاحِ حُبُّ الوطن   حِلْيةُ كل فَطِنِ

* * *

مَحَبَّةُ الأوطان   من شُعَب الإيمان

---

(٢) راجع ترجمته تفصيلا فى كتابنا الحركة القومية الجزء الثالث – عصر محمد على

فى أفخر الأديان ‏ آية كل مؤمن

* * *

مساقط الرؤوس ‏ تلذ للنفوس
تذهب كل بوس ‏ عنا وكلَّ حزن

* * *

ومصر أبهى مولدٍ ‏ لنا وأزهى محتد
و مربعٍ ومعهدٍ ‏ للروح أو للبدن

* * *

شُدَّت بها العزائم ‏ نيطت بها التمائمُ
لطبعنا تلائم ‏ فى السّر أو فى العلن

* * *

مصرُ لَها أياد ‏ عُليا على البلاد
وفخرها ينادى ‏ ما المجد إلّا ديدنى

* * *

الكونُ من مصر اقتبسْ ‏ نورًا وما عنه احتبس
فخرٌ قديمٌ يؤثرُ ‏ عن سادة و يُنشرُ
زهور مجد تنُثر ‏ منها العقول تجتنى

* * *

دارُ نعيم زاهيهْ ‏ ومعدن الرفاهيهْ
آمرةٌ وناهيهْ ‏ قدماً لكل المدن
فوة مصر القاهرهْ ‏ على سواها ظاهَرَهْ
وبالعمار زاهره ‏ خُصَّت بذكرٍ حسن

* * *

أبناؤها رجال ‏ لم يسنهم محال

وجُنْدُهم صَنديد   وقلبه حديد
وخصمه طريد   بل مُدْرَجٌ فى كفن

وقال من قصيدة أخرى يدعو إلى افتداء الوطن بالنفس والمال:

وعزيز الوطن نخدمه   برضا فى النفس نحكمه
مالُ المصرى كذا دمهُ   مبذول فى شرف الوطن
تفديه العين بناظرها   والنفس بخير ذخائرها
تهدى فى نيل نظائرها   بشرا العليا أعلى ثمن

وقال يصف الجيش المصرى ويشيد بمفاخره:

تُنَظِّمُ جندَنا نَظْما   عجيبا يُعجز الفهما
بِأُسْدٍ تُرْعبُ الخصما   فمن يقوى يناضلنا ؟

* * *

رجالٌ مالها عددُ   كمال نظامها العُددُ
حُلاها الدرع والزردُ   سنان الرمح عاملنا

* * *

وهل لخيولنا شَبةٌ   كرائم ما بها شُبَهٌ
إليها الكل منتبهٌ   وهل تخفى أصائلنا؟

* * *

لنا فى الجيش فرسان   لهم عند اللِّقا شان
وفى الهيجاء عنوان   تهيم به صواهلنا
فها الميدان (والشقرا)   سَقَتْ أذن العدا وَقْرا
كأنا نرسل الصقرا   فمن يبغى يراسلنا

* * *

مَدَافِعنا القضا فيها   وحُكْم الحتف فى فيها
وأهونها وجافيها   تجودُ به معامُلنا

* * *

لنا فى المدن تحصين وتنظيمٌ وتحسين
وتأييدٌ وتمكين منيعاتٌ معاقلُنا

وهذه الأبيات لمن خير ما قيل فى وصف الجيش المصرى، ولا شك أن رفاعة قد استلهم شعره من مفاخر الجيشفى عهده، فهو يصور العصر الذى عاش فيه تصويرًا صحيحًا، لا مبالغة فيه ولا إغراق، وإن قصيدته لتشبه أن تكون لوحة فنية يخيل لمن ينظر إليها أنه يلمح فيها كتائب الجيش المصرى تسير إلى ميادين الحرب، تحف بها أعلام النصر والظفر، تخوض غمار القتال، بقلوب ملؤها الشجاعة والإقدام، وتجابه الأخطار قوية الإيمان، ثابتة الجنان، مجهزة بالسلاح والمدافع «تجود به معاملنا»، ولو لم يشهد رفاعة مفاخر الجيش المصرى فى ذلك العصر، لما جادت قريحته بهذا الشعر، وهكذا يتأثر الشاعر والأديب بالعصر الذى يعيش فيه، والبيئة التى تحيط به، ويصور الحياة على عهده فكأنما هو قطعة من عصره، أو مرآة تنطبع فيها مشاهد الحياة السياسية والاجتماعية، ومظاهر الحالة الفكرية والأخلاقية.

وإنك لتلمح أيضًا عظمة الجيش المصرى من قول رفاعة فى قصيدة أخرى يخاطب فيها الجنود:

يا أيها الجنودُ والقادة الأسود
إنْ أمَّكم حسودُ يعودُ هَامِى المَدْمَعِ
فكم لكُم حروبُ بنصركم تؤوبُ
لم تَثْنِكُم خُطوبُ ولا اقتحامُ مَعْمَعِ

* * *

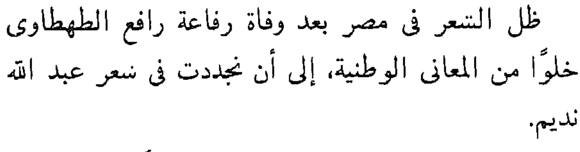
وكم شهدتم منْ وغى وكم هزمتم مَنْ بغى
فمن تعدَّى وطغى على حِمَاكم يُصرَعُ

وتتجلى روحه الوطنية المتطلعة إلى الحرية فى تعريبه نشيد الحرية (المارسلييز)، فإن النفس لا تميل إلا إلى ما هو محبب إليها، فهذا النشيد قد استثار ولا شك إعجاب رفاعة رافع، حتى مالت نفسه إلى تعريبه، وإظهار ما احتواه من العواطف الوطنية الفدائية فى حلة عربية قشيبة.

وإذا تأملت فى شعر رفاعة رافع الذى نقلنا طرفا منه وجدت فيه تقدمًا نسبيًّا إذا قارنته بأسلوب شعراء المدرسة القديمة التى سبقته، كالشبراوى والعطار والخشاب وغيرهم، ويعد شعره دور الانتقال إلى دولة الشعر الحديثة التى حمل لواءها البارودى، وإسماعيل صبرى، وشوقى، وحافظ.

حقًّا إننا إذا وضعناه إلى جانب شعر شوقى مثلا، لجاء فى المرتبة الثالثة، أو الرابعة، ولكن يجب ألا ننسى أن رفاعة رافع نشأ فى عصر كانت اللغة العربية وآدابها فى دور تأخرها واضمحلالها، فله على نهضة الشعر والأدب فضل لا ينكر.

* * *



١٨٤٥ - ١٨٩٦



ظل الشعر فى مصر بعد وفاة رفاعة رافع الطهطاوى خلوًا من المعانى الوطنية، إلى أن تجددت فى شعر عبد الله نديم.

هو خطيب الثورة العرابية، وهو أيضًا شاعرها، انطبعت فى خطبه وقصائده روح الوطنية المتدفقة، وروح الثورة.

ولد سنة ١٨٤٥ بالإسكندرية، وبدت عليه منذ صباه مخايل الذكاء اللامع، وظهرت مواهبه فى الترسل فى الكتابة والشعر والزجل، والقدرة الخطابية، مع خفة فى الروح، وميل إلى الفكاهة، وجرأة وإقدام، واستخفاف بأحداث الزمان.

ولما ظهرت الثورة العرابية أوائل ١٨٨١، انضم إليها بطبعه، إذ كانت نفسه تتأجج وطنية، وتتطلع إلى الحرية والمجد، وتجلت مواهبه الخطابية، فصار خطيب الثورة العرابية.

ومما يذكر عنه فى صدد الحديث عن شعره الوطنى أنه لما سافر الألاى السودانى الذ كان يقوده الأميرالاى عبد العال حلمى أحد زعماء الثورة من القاهرة إلى دمياط، فى أوائل أكتوبر سنة ١٨٨١. كان سفره يومًا مشهودًا، فاحتشدت الجموع فى محطة العاصمة لتحية الآلاى حين سفره. وكان من بين المودعين عرابى والبارودى وعبد الله نديم، فوقف النديم وسط هذا الجمع الحاسد وألقى خطبة حماسية فياضة، بدأها بقوله مخاطبًا رجال الجيش:

«حماة البلاد وفرسانها!

«من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات.

إلى أن قال: وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم ويقول:

إليكم يُـرَدُّ الأمر وهـو عـظيم — فـإني بكم طـول الـزمـان رحيم
إذا لم تكـونـوا للخـطوب وللردى — فمن أيـن يـأتى للديـار نـعيـم؟
وإن الفتى إن لم ينـازل زمـانـه — تـأخـر عنـه صـاحبٌ وحميم
فـرُدُّوا عنـان الخيـل نحـو مخيم — تـقلبـه إبـين البيـوت نـسيـم
وشدوا له الأطراف من كل وجهـة — فمشـدود أطـراف الجهـات قـويم
إذا لم تكن سيفًـا فكن أرض وطأة — فـليس لمغـلول اليـديـن حـريم

وختم خطبته بقوله: وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادية عند النوازل أن يقال (مات شهيد الأوطان!)، فنادى الجميع (رضينا بالموت فى حفظ الأوطان!).

ولما شبت الحرب العرابية لازم النديم عرابى كفر الدوار ثم فى التل الكبير، وكانت مجلته (الطائف)، تصدر فى معسكر الجيش المصرى.

وبعد أن وقعت الهزيمة، ظل مخلصًا للثورة فى محنتها، فبرهن على وفاء نادر ووطنية أصيلة عميقة، وكان ممن أمرت الحكومة باعتقالهم، وعجزت عن التعرف إلى مقره والقبض عليه، وظل مختفيًا عن عيونها وجواسيسها نحو تسعة أعوام، وأعيا الحكومة أمره، وجعلت ألف جنيه لمن يرشد عنه، ولكنها لم تهتد إليه.

وقد وصف ما لقيه من الشدائد أثناء اختفائه فى قصيدة تفيض وطنية وإيمانًا وفخرًا وشجاعة، وهى من غرر قصائده. قال:

أتحسبنـا إذا قلنـا بلينـا — بلينـا أو يـروم القلب لينـا
نعم للمجـد نقتحم الـدواهى — فيحسب خـامـل أنـا دُهينـا
تنـاوشنـا فتقهـرنـا خـطوب — تـرى ليث العرين لها قـرينـا
سـواء حـربهـا والسلم إنـا — أنـاس قبـل هـدنتهـا هـدينـا

إلى أن قال:

إذا مـا الدهـر صافـانا مـرضنا — فـإن عدنـا إلى خـطب شفينـا
لنـا جلد عـلى جـلد يقـينـا — فـإن زاد البـلا زدنـا يقينًـا
ألفنـا كـل مكـروه تفـدى — لـه فـرسـانـه بـالـراجلينـا
فـأعيـا الخـطب مـا يلقـاه منـا — ولكنـا صحـاح مـا عيينـا

* * *

سلينا يا خطوب فقد عرفنا | بأنا الصلب صلنا أو صلينا
وقرى فوق عاتقنا وقولى: | نزلت اليوم أعلى طور سينا
علينا للعلا دين وضعنا | عليه الروح لا الدنيا رهينا
فهل يمسى رهين فى سرور | وهل تلقى بلا كدر مدينا؟
إذا ما المجد نادانا أجبنا | فيظهر حين ينظرنا حنينا
يغنينا فيلهينا التغنى | عن الباكى وينسينا الحزينا
ولسنا الساخطين إذا رزئنا | نعم يلقى القضا قلبا رزينا
فإنا فى عداد الناس قوم | بما يرضى الإله لنا رضينا
إذا طاش الزمان بنا حلمنا | ولكنا نُهينا أن نهينا

إلى أن قال:

سلوا عنا (منابرنا) فإنا | تركنا فى منصتها فطينا
لحكمتنا تقول إذا هذرتم | ألا هبى بصحيتك فاصبحينا
سَرىَ فينا من الآباء سِرٌّ | يسوق البر نحو المعوزينا
فإن عشنا منحنا سائلينا | وإن متنا نفحنا الزائرينا

وقال يصف إحاطة الجند بالمنزل الذى كان فيه يريدون اعتقاله فنجاه الله من شرهم:

أأنسى يوم مصر والبلايا | تطاردنى ولا ألقى معينا
فكنت[1] الغوث فى يوم كريه | أخاف الشهم والحبر السمينا
مُدحنا فيه فى إشراق شمس | فلما جاء مغربه هُجينا!
وهل أنسى هجوم الجند عمرًا | بلا علم وقد كنا فجينا
أحاطوا بى وسدوا كل باب | وصرنا بين أيدى الباحثينا
وكان السطح مملوءًا بجند | وخلف البيت كم وضعوا كمينا
فأدركت الوحيد وكان صيدًا | قريبًا من فخاخ الطالبينا
وأرشدت النديم إلى مكان | رآه بعد حيرته مكينا
وأعمى الله عنا كل عين | وكنا للعساكر ناظرينا
وصرنا فوق سطح فيه علو | يحطم هاويًا منه متينا

---

(١) الخطاب هنا وفى الأبيات التالية موجهة إلى الرسول ﷺ، والنديم شريف النسب

فلم أرهب ونـوبى من طمـار   ولم أنـظر شمـالا أو يمينـا
ويـوم الغيظ كنت لنا مجيـرا   بسـطوتـه من البلوى حمينـا
فقـد كنا بـلا ستر يـرانـا   أمـام العين كـل القـاصـدينـا
وكم سرنا بـلا خـوف جهـارا   ركبنـا الخيل أو جئنـا السفينـا
وإنى الآن فى خـطب عـظيم   أرى فى طـيِّـه داء دفـينـا
أتـانـا مخـبرٌ عن قـوم سـوء   أرادوا وصفنـا لـلحـاكمينـا
وخـاف الضُّـرَّ أحبـابى جميعًـا   وقالوا لى بـالوشـاية قـد رمينا
فعجـل بـالـرحيـل بـلا تـوان   ولا تخـبر صـديقـا أو خـدينـا
فـأدرك يـا أبى نجـلا دهـاه   من الأهـوال ما يـوهى البدينـا
فـما خفت المنون ولا الأعـادى   نعم خفت انشـراح الشـامتينـا

* * *

فسـرتُ الليـل يصحبنى نُبـات   لِخِـلّ نحـو منـزلـه دُعينـا
ورافقنى خـليـل كـان قبـلا   يـوافى حـين كنـا ظـاهـرينـا
وأدركنـا القـطار بغـير خـوف   وكنـا بـالثيـاب منكـرينـا
وألقى الله سـتر الحفظ فضـلا   فلم تـرنـا عيـون المبلسينـا
وكـان الخـل منتـظرًا قـدومى   بخيـل أوصـلتنـا سـالمينـا
ونجىّ الله بعـد اليـأس عبـدا   يـرى الـرحمن خـير المنقـذينـا

وإنك لترى هذا الشعر أقوى فى الروح والأسلوب من شعره فى إبان الثورة. وهكذا يبدو أن الهزيمة لم تنل منه، بل زادته قوة وحيوية، وصلابة وبلاغة، وأن الشدائد صقلت مواهبه كما تصقل المعادن وتجلى جواهرها فى لهب النار، فاحتفظ النديم فى سنى المحنة بما حباه الله من إيمان صادق، وعزم ثابت، وصمود على الأيام، وكذلكِ الشدائد والمحن، يختلف أثرها فى نفوس الناس، فبينما تبعث اليأس والجزع فى النفوس الضعيفة، نراها على العكس تزيد النفوس الكبيرة ثباتًا وصبرًا، وشجاعة وإيمانًا، ومن هنا جاء شعر النديم بعد هزيمة الثورة أقوى منه فى أوج انتصارها.

وفى الحق أن النديم هو الزعيم الوحيد بين الزعماء العرابيين الذى استمر فى جهاده ضد الانجليز ونضاله عن مصر فى عهد الاحتلال، وتلك لعمرى ميزة كبرى جديرة بأن تحيط اسمه بهالة من المجد والخلود، وقد اهتدت الحكومة إلى مكانه سنة ١٨٩١ وقررت نفيه إلى خارج

القطر، وفى أوائل عهد الخديو عباس الثانى عَفى عنه ورخص له بالعودة إلى مصر، فعاد إليها، وأنشأ مجلة (الأستاذ) سنة ١٨٩٢ فتجلت فيها روحه الوطنية التى لم تضعفها الهزيمة ولم تنل منها الشدائد، مما أحفظ عليه الإنجليز وصنائعهم، فتدخل اللورد كرومر، وأمر بإبعاده عن مصر ثانية، فاضطر إلى تعطيل صحيفته سنة ١٨٩٣، وودع قراءه وداعًا مؤثرًا فى آخر عدد صدر منها (فى ١٣ يونيه سنة ١٨٩٣) قال:

«ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب، والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظمة والجلال، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرا فى أعين الواقفين عند الظواهر، وعلى هذا فإنى أودع إخوانى قائلا:

أودعكم والله يعلم أننى ... أحب لقاكم والخلود إليكم
وما عَنْ قِلى كان الرحيل وإنما ... دَواعٍ تبدَّت فالسلام عليكم!

وانتهى به المطاف فى منفاه إلى الآستانة حيث توفى سنة ١٨٩٦، وشيعت جنازته فى احتفال مهيب مشى فيه كثير من العلماء والكبراء، يتقدمهم السيد جمال الدين الأفغانى، ودفن هناك.

بالأمس كان غريبًا فى ديارهم ... واليوم صار غريب اللحد والكفن!

* * *

محمود سامي البارودي

١٨٤٠ - ١٩٠٤



محمود سامي البارودي هو إمام الشعراء المحدثين قاطبة، وباكورة الأعلام فى دولة الشعر الحديث، وأول من نهض به وجارى فى نظمه فحول الشعراء المتقدمين، فبعث النهضة الشعرية من مرقدها بعد طول الخمود.

ولد سنة ١٨٤٠، وهو ابن حسن بك حسنى من ضباط المدفعية فى الجيش المصرى، وحفيد عبد الله الجركسى أحد الكشاف فى عهد محمد على، وسمى البارودى نسبة إلى إيتاى البارود التى كان أحد أجداده الأمير مراد البارودى ملتزمًا لها فى عهد الالتزام.

وقد تلقى العلم أول ماتلقاه على أيدى أساتذة خصوصيين فى سراى والده بغيط العدة (القريبة من باب الخلق) والمعروفة بسراى البارودى. ولما بلغ الثانية عشرة من عمره انتظم فى المدرسة الحربية، وتخرج منها سنة ١٨٥٥، والتحق بخدمة الجيش المصرى، وأخذ يترقى حتى بلغ رتبة أميرالاى، وخاض غمار الحروب فى ثورة كريد سنة ١٨٦٦، إذ كان ضابطًا فى الجيش الذى أنفذته مصر لإخماد تلك الثورة وانتصر على الثوار فى مواقع عدة.

ولما شبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٨٧٧ أنفذت مصر جيشًا لنجدة تركيا كان البارودى من ضباطه، وأبلى فى الحرب بلاء حسنا، وصقلت المعارك مواهبه الشعرية، ولما عاد إلى مصر رقى إلى رتبة اللواء، وعين مديرًا للشرقية، وكان محافظا للعاصمة حين ألف شريف باشا وزارته الثانية سنة ١٨٧٩ فى أوائل عهد الخديو توفيق، فاختاره فيها وزيرًا للمعارف والأوقاف، واشترك فى حوادث الثورة العرابية، وكان من زعمائها المشار إليهم بالبنان، وتولى رآسة وزارة الثورة سنة ١٨٨٢، ثم كانت الهزيمة، ونفى مع زملائه إلى جزيرة سيلان (سرنديب) وظل فى منفاه نيفا وسبعة عشر عاما، واسبغ عليه النفى سمات التضحية والبطولة[١].

---

(١) راجع ترجمته تفصيلا فى كتابنا (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى).

الحنين إلى الوطن

كانت حياة زعماء الثورة العرابية فى منفاهم حياة ألم وحزن، إذ انقطعت صلتهم بالناس، وطال اغترابهم عن أرض الوطن، وبعدت الشقة بينهم وبين أهليهم ومواطنيهم، ولم يكترث لهم أحد، ولم يعطف عليهم أحد (والناس مع الغالب!)، وجادت قريحة البارودى بشعر مؤثر فى الحنين إلى الوطن، والحزن على فراقه، مما يعد آية فى البلاغة، وبلغت سليقته الشعرية فى منفاه ذروة العظمة والجلال.

قال يصف الرحيل عن أرض الوطن:

مَحَا البينُ ما أبقت عيون المها منى ... فشبْتُ ولم أقض اللُّبانة من سنِّ

عَنَاءٌ ويأسٌ واشتياقٌ وغربةٌ ... ألا شَدَّ ما ألقاه فى الدهر من غبن

إلى أن قال:

ولما وقفنا للوداع وأسبلتْ ... مدامعنا فوق الترائب كالمزن

أهبت بصبرى أن يعود فبزَّنى ... وناديت حلمى أن يثوب فلم يغن

وما هى إلا خطوة ثم أقلعت ... بنا عن خطوط الحىّ أجنحة السفن

فكم مهجة من زفرة الشوق فى لظى ... وكم مقلة من غرزة الدمع فى دجن

وما كنت جربت النوى قبل هذه ... فلما دهتنى كدت أقضى من الحزن

ولكننى راجعت حلمى وَرَدَّنى ... إلى الحزم رأى لا يحوم على أفن

ولولا بنيات وشيب عواطل ... لما قرعت نفسى على فائت سنى

الصبر على الشدائد

وتجلت فى منفاه صفاته العالية من الشمم، وعلو النفس واحتمل آلام النفى بشجاعة وإباء، وصبر وإيمان، وله فى ذلك شعر يفيض بهذه المعانى السامية.

قال وهو فى سرنديب (سيلان):

لم أقترف زِلَّةً تقضى علىَّ بما ... أصبحت فيه فماذا الويل والحَرَب؟

فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى ... ذنب أدان به ظلمًا وأغترب؟

فلا يظن بى الحساد مندمة ... فإننى صابر فى الله محتسب

أنـربت مجـدًا فلم أعبـأ بمـا سلَبتْ ... أيـدي الحـوادث مني فهـو مكتسب
لا يخفض البؤس نفسًا وهى عـاليـة ... ولا يشيد بذكر الخامل النشب[١]

وقال مشيرًا إلى مصادرة أملاكه:

يـانـاصـر الحق عـلى البـاطـل ... خُـذْ لى بحقى من يـدى مـاطـلى
أخـرجنى عـما حـوتـه يـدى ... من كسبى الحـر بـلا نـاطـل[٢]
من غـير مـاذنب سـوى منطق ... ذى رونق كـالصـارم القـاطـل[٣]
فـإن أكـن جُـرِّدت من ثـروتى ... فـفضـل ربى حـليـة العـاطـل

وقال من قصيدة أخرى فى مقاومة الظلم والصمود أمام المحن والخطوب:

إذا المـرء لم يدفـع يـد الجـور إن سَـطَتْ ... عـليـه فـلا يـأسف إذا ضـاع مجـدُهُ
ومن ذلَّ خـوف المـوت كـانت حيـاتـه ... أضـرَّ عـليـه مـن حمـام يـؤدُّهُ
وأقْـتـل داء رؤيـة الـعـين ظـالمـا ... يسىء ويُـتْـلى فى المحـافـل حمـده
عـلام يعيش المـرء فى الـدهـر خـامـلا ... أيـفـرح فى الـدنـيـا بيـوم يَـعـدُه؟
عَفـاءٌ عـلى الـدنيـا إذا المـرء لم يعش ... بهـا بـطلا يحمى الحقـيـقـة شَـدُّه

وقال فى هذا المعنى:

أمـطرى لؤلؤًا جبـال (سـرنـديـ ... ـب) وفيضى آبـار (تكـرور) تبـرا
أنـا إن عشت لست أعـدم قـوتـا ... وإذا مـت لسـت أعـدم قـبـرًا
هِمَّـتى همـة الملوك ونـفـسـى ... نفس حـرٍّ تـرى المـذلـة كفـرًا

ومن قوله فى الحنين إلى الوطن والصبر على الشدائد:

فيـا دمـوع القـطر سيلى دمًـا ... ويـا بنـات الأيـك نُـوحى معى
وأنت يـانَسْمَـة (وادى) الغضـا ... مُـرِّى بـريَّـاك عـلى مـربعى
وأنت يـا عصفـورة المنحنَى ... بـالله غَنِّى طـربًـا واسجـعى
وأنـت يـاعـين إذا لم تـفـى ... بـذمـه الـدمـع فـلا تهجعى

(١) النشب: المال والعقار.
(٢) الناطل: الشىء القليل.
(٣) القاطل: القاطع

أبيت أرعى النجم فى سدفة ... ضلَّ بها الصبح فلم يطلع

❊ ❊ ❊

فهل إلى الأشواق من غاية ... أم هل إلى الأوطان من مرجع؟
لا تأسَ يا قلبُ على ما مضى ... لابد للمحنة من مقطع

يتمنى أن يرى مصر

وقال فى منفاه يتمنى أن يرى مصر:

يا حبذا جرعةٌ من ماء مَحْنِية ... وضجعة فوق برد الرمل بالقاع[1]
ونَسْمةٌ كسميم الخلد قد حملت ... ريَّا الأزاهر من مِيثٍ وأجراع[2]
ياهل أرانى بذاك الحى مجتمعًا ... بأهل ودى من قومى وأشاعى؟

وقال فى هذا المعنى:

أبيت حزينًا فى (سرنديب) ساهرًا ... طوال الليالى والخَليون هُجَّدُ
إذا خطرت من نحو (حلوان) نسمة ... نَزَتْ بين قلبى شعلة تتوقد
شبابٌ وإخوانٌ رزئتُ ودادهم ... وكل امرئٍ فى الدهر يشقى ويسعد!

ومن قصيدة له فى هذا المعنى قالها فى منفاه يتشوق إلى الوطن:

هل من طبيبٍ لداء الحب أوراقى ... يشفى عليلًا أخا حزن وإيراق[3]
قد كان أبقى الهوى من مهجتى رمقًا ... حتى جرى البَيْنُ فاستولى على الباقى

وفيها يقول:

ياروضة النيل لامَسَّتْكِ بائقةٌ ... ولا عدتك سماءٌ ذات إغداق[4]
ولا برحت من الأوراق فى حُلَلٍ ... من سندس عبقرىٍّ الوشى برَّاق
يا حبذا نَسمٌ من جوها عَبِقٌ ... يسرى على جدول بالماء دفَّاق
مَرْعَى جيادى ومأوى جيرتى وحِمَى ... قومى ومنبتُ آدابى وأعراقى

---

(١) المحنيه. ما انحنى من الأرض
(٢) الميث. جمع ميثاء الأرض اللينة
(٣) الراقى. اسم فاعل من رقاه يرقيه أى عوذه فهو راق.
(٤) البائقة الداهية والبلية ولا عدتك أى لا تجاوزتك

أصبــوا إليهــا عــلى بُعــدٍ ويعجبنى ... أنى أعــيش بهــا فى ثــوب إمــلاق

وكيف أنسى ديــارًا قــد تــركتُ بهــا ... أهــلًا كــرامًــا لهم ودى وإشفــاقــى

* * *

فيــا بــريــدَ الصَّبــا[1] بلِّغ ذوِى رحِمى ... أنى مقيم عــلى عهــدى وميثــاقــى

وأنت يــا طــائــرًا يبكى عــلى فَنَنٍ ... نفسى فــداؤك من ســاقٍ إلى ســاق

أذكــرتنى مــا مضى والشمــل مجتمــعٌ ... بمصــر والحــربُ لم تنهض عــلى ســاق

وقال أيضًا فى منفاه:

رُدُّوا عــلىَّ الصبا من عصــرى الخــالى ... وهــل يعــود ســوادُ اللمــة البــالى؟

مــاض من العيش مــالاحت مخــايله ... فى صفحــة الفكــر إلا هــاج بلبــالى

أدهى المصــائب غــدر قبــله ثقــة ... وأقبــح الــظلم صَــدٌّ بعــد إقبــال

* * *

لا عيــب فىّ ســوى حــريــة مــلكت ... أعــتنى عــن قبــول الــذل بــالمــال

قــلبى سليــم ونفــسى حــرة ويــدى ... مــأمــونــة ولــســانى غــير خــتــال

بلوت دهــرى فــما أحمــدت سيــرتــه ... فى ابــق مــن لــيــالــيــه ولا تــالى

حليت شــطريــه من يســر ومعســرة ... وذقــت طعــميــه من خــصب وإمحــال

لم يــبــق لى أرب فى الــدهــر أطــلبــه ... إلا صــحــابــة حــر صــادق الخــال

وأيــن أدرك مــا أبغــيــه من وطــر؟ ... والصدق فى الدهــر أعيا كــل محتال

لافى (ســرنــديــب) لى إلْفٌ أجــاذبــه ... فضــل الحــديث ولاخــلّ فيــرعى لى

أبيــت مــنفــردا فى رأس شــاهــقــة ... مثــل القطامى فــوق المربــأ العــالى

إذا تــلفَّتُّ لم أبــصــر ســوى صــور ... فى الــذهن بــرسمهــا نقــاش آمــالى

* * *

عــلام أجــزع والأيــام تــشــهــد لى ... بصــدق مــا كــان من وسمى وإغفــالى

راجعت فهــرس آثــارى فــما لمحت ... بصيــرتى فيــه مــايُــزْرى بــأعمــالى

فكيف ينكــر قــومى فضــل بــادرتى ... وقــد ســرتْ حِكَمى فيــهم وأمثــالى

---

(١) الصبا بالفتح. ريح معروفة.

أنـا ابن قـولى وحسبى فى الفخـار بـه ... وإن غـدوت كـريـم الـعـم والخـال
ولى مـن الـشـعـر آيـات مـفـصلة ... تـلوح فى وجـنـة الأيـام كـالخـال
ينسى لهـا الفاقـد المحزون لـوعتـه ... ويهـتـدى بـسـنـاهـا كـل قـوال
فـانـظر لقـولى تجـد نفسى مصـورة ... فى صفحـتـيـه فـقـولى خط تمثـالى
ولا تـغـرنـك فى الـدنـيـا مشـاكلة ... بـين الأنـام فليس النبـع كـالضـال
إن ابـن آدم لـولا عـقـلـه شَبـحٌ ... مـركـب مـن عـظام ذات أوصـال

ومن قصيدة له يتشوق إلى مصر:

خليـلَّى هـذا الشـوق لاشـك قـاتـلى ... فميلا إلى (المقياس) إن خفتـما فقـدى
ففى ذلـك (الوادى) الـذى أنْبَتَ الهـوى ... شفـائى من سقمى وبرئى من وجـدى

وقال فى هذا المعنى:

طـال شـوقـى إلى الـديـار ولـكـن ... أين من (مصـر) من أقام (بكنـدى)[1]
حبـذا (النيـل) حـين يجـرى فيبـدى ... رونـق الـسـيـف واهـتـزاز الـفـرنـد
تـتـثـنى الـغـصـون فى حـافـتـيـه ... كـالعـذارى يسحبـن وشى الـفـرنـد
قـلدتهـا يـد الـغـمـام عـقـودا ... هـى أبهى مـن كـل عـقـد وبـنـد
كـيـف لا تهـتـف الحـمـام عـليـه ... وهـى تـسـقـى بـه سـلافـة قـنـد
كـلما صـورتـه نـفـسـى لـعـيـنى ... قـدح الـشـوق فى الـفـؤاد بـزنـد

الحنين إلى الأهل والولد

وقال فى منفاه وقد رأى فى المنام ابنته الوسطى:

تـأوَّبَ[2] طـيفٌ مـن (سمـيـرة) زائـرٌ ... ومـا الـطيف إلا مـاتُـريـه الخـواطـر
طـوى سُدْفَـةَ[3] الـظلماء والليـل ضاربٌ ... بـأوراقـة والنجـوم بـالأفق حـائـر
فـيـالـك مـن طـيـفٍ ألم ودونـه ... محيط مـن البـحـر الجـنـوبى زاخـر
تخـطَّى إلىَّ الأرض وَجْـدًا ومـا لـه ... سـوى نـزوات الشـوق حـادٍ وزاجـر
ألمَّ ولم يـلبـث وسـار ولـيـتـه ... أقـام ولـو طـالت عـلىَّ الـديـاجـر

---

(١) كندى مدينة صغيرة فى جزيرة سيلان (سرنديب).

(٢) تأوب. أى أتى ليلا.

(٣) السدفة. الستر.

تحمل أهوالَ الظلام مخاطرا … وعهدى بمن جادت به لا تخاطر
«خماسية[١]» لم تدر ما الليل والسرى … ولم تنحسر عن صفحتيها الستائر
فيا بُعْدَ ما بينى وبين أحِبَّتى … ويا قرب ما التفتَّ عليه الضمائر
ولولا أمانى النفس وهى حياتها … لما طار لى فوق البسيطة طائر
فان تكن الأيام فرَّقن بيننا … فكل امرىء يوما إلى الله صائر

إلى أن قال:

فلا يشمت الأعداء بى فلربما … وصلتُ لما أرجوه بما أحاذر
فقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه … وتنهض بالمرء الجدود العواثر
ولى أمل فى الله تحيا به المُنى … ويُشرق وجه الظن والخطبُ كاشرُ
إذا المرء لم يركن إلى الله فى الذى … يحاذره من دهره فهو خاسر
وإن هو لم يصبر على ما أصابه … فليس له فى معرض الحق ناصر
ومن لم يذق حلو الزمان ومُرَّه … فما هو إلا طائش اللب نافر
علَّى طِلابُ العِزِّ من مستقره … ولا ذنب لى إن عارضتنى المقادر

إلى أن قال:

فان كنت قد أصبحتُ فَلّ[٢] رزية … تقاسمها فى الأهل بادٍ وحاضر
فكم بطلٍ فلَّ الزمان شَبَاتَهُ … وكم سيِّد دارت عليه الدوائر
فسوف يبين الحق يوما لناظرٍ … وتنزو[٣] بعوراء الحقود السرائر
وما هى إلا غمرة ثم تنجلى … غيابتها والله من شاء ناصر
فقد حاطنى فى ظلمة الحبس بعدما … ترامت بأفلاذ القلوب الحناجر

* * *

فمهلاً بنى الدنيا علينا فإننا … إلى غاية تَنْفتُّ فيها المرائر
تطول بها الأنفاس بُهْرًا[٤] وتلتوى … على فلكة الساقين فيها المآزر

---

(١) أى بنت خمس سنوات.
(٢) فل. أى منهزم.
(٣) تنزو: تطمح يقال: نزا به قلبه طمح.
(٤) بهرا بالضم تتابع الأنفاس من الإعياء فى اللسان.

هنالك يعلو الحق والحق واضحٌ ... ويسفُل كعب الزور عاثر
وعما قليل ينتهى الأمر كله ... فما أولٌ إلا ويتلوه آخر

يشيد بعظمة الأهرام

قال يصف (الأهرام) ويشيد بعظمتها:

سل (الجيزة) الفيحاء عن (هرمى) مصر ... لعلك تدرى غيب ما لم تكن تدرى
بناءان رَدَّا صولة الدهر عنهما ... ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر
أقاما على رغم الخطوب ليشهدا ... لبانيهما بين البرية بالفخر
فكم أمم فى الدهر بادت وأعصر ... خلت وهما أعجوبة العين والفكر
تلوح لآثار العقول عليهما ... أساطير لا تنفك تتلى إلى الحشر
رموز لو استطلعت مكنون سرها ... لأبصرت مجموع الخلائق فى سطر
فما من بناء كان أو هو كائن ... يدانيهما عند التأمل والخبر

وختمها بقوله:

فيا نسمات الفجر أدى تحيتى ... إلى ذلك البرج المطل على النهر
ويالمعات البرق إن جزت بالحمى ... فصوبى عليها بالنثار من القطر
عليها سلام من فؤاد متيم ... بها لا بربات القلائد والشذر[1]
ولا برحت فى الدهر وهى خوالد ... خلود الدراى والأوابد من شعرى

شعر القتال

ومن قصيدة له فى إحدى المعارك التى خاضها، ويبدو منها مبلغ شجاعته وصبره على أهوال القتال.

ولما تداعى القوْل واشتبك القنا ... ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
وزُيّن للناس الفرار من الردى ... وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا ... سقينا بكأس لا يفيق لها شرب
صبرت لها حتى تجلت سماؤها ... وإنى صبور إن ألم بى الخطب

---

(١) الشذر: صغار اللؤلؤ.

الفساد فى عهد إسماعيل

وقال من قصيدة يصف سوء الحكم وظلم الحكام فى عهد إسماعيل، وينصح قومه بالمطالبة بحقوقهم والمبادرة بإصلاح شؤونهم قبل أن تسوء العقبى، وهى من شعره السياسى الوطنى الرائع:

قامت به من رجال السوء طائفة   أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه   بغضًا ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت   قواعد الملك حتى ظل فى خلل

إلى أن قال:

فبادروا الأمر قبل الغوث وانتزعموا   شكالة الريث فالدنيا مع العجل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضًا   لكل منتزع سهمًا ومختتل
حتى تعود سماء الأمن ضاحية   ويرفل العدل فى ضفاف من الحلل

الجيش والدستور

وقال فى أوائل عهد الخديو توفيق يدعو إلى الشورى وتقوية الجيش:

أمران ما اجتمعا لقائد أمة   إلا جنى بهما ثمار السؤدد
(جمع) يكون الأمر فيما بينهم   (شورى) وجند للعدو بمرصد

يندد بالدسائس

وقال من قصيدة يشكو فيها من الدسائس التى كانت تحاك حوله:

نقموا على حميتى فتألبوا   حزبا على وجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفريتهم فلما صادفوا   سمعا يميل إلى الملام توسعوا
لا عيب فىَّ سوى حمية ماجد   والسيف يغلبه المضاد فيقطع

يحث على الاعتدال، ويستنكر الذل

قال فى هذا المعنى:

إذا شئت أن تحيا سعيدًا فلا تكن   لدودًا ولا تدفع يد اللين بالقسر
ولا تحتقر ذا فاقة فلربما   لقيتَ به شهما يبرّ على المثرى

فـرُبَّ فـقـير يمـلأ القـلب حـكـمـةً ... وربَّ غـنى لا يـريش ولا يـبـرى[١]
وكن وسـطًا لا مشـرئـبـا إلى السُهى ... ولا قـانعًـا يبغى التـزلف للصُّفـر[٢]
فـأحمد أخـلاق الفتى مـا تكـافـأت ... بمنـزلـةٍ بـين التـواضـع والـكـبر
ولا تـعتـرف بـالـذل فى طلب الغنى ... فـإن الغنى فى الـذل شـرٌّ من الفقـر

العودة إلى الوطن

وقد عاد إلى الوطن سنة ١٩٠٠ بعد أن فقد نور عينيه فى منفاه، فاستقبل مصر بقصيدته التى مطلعها:

أبـابـل مـرأى العـين أم هـذه مصر ... فـإنى أرى فيهـا عيـونًـا هى السحـر
فـإن يك مـوسى أبـطل السحـر مـرة ... فـذلـك عصـر المعجـزات وذا عصــر

إلى أن قال:

وإنى أمـرؤ تأبى لى الضيم صـولـة ... مـواقعهـا فى كـل معتـرك حمـر
أبىٌّ عـلى الحـدثـان لا يستفـزنى ... عـظيم ولا يأوى إلى سـاحتى ذعر

عبرة الحوادث

ومن قصيدة له قالها بعد عودته من المنفى تفيض توجعًا لحالة البلاد بعد أن جثم الاحتلال على صدرها، وقد تذكر عندما مر بقصر الجزيرة أيام إسماعيل حين كـان فى أوج سلطانة، وما انتهى إليه أمره من خلع وخسران، وتذكر أخطاءه التى كان لها أثرها فى التمهيد للاحتلال، فلم يترحم على عهده، ونظم هذه القصيدة معتبرًا ومذكرًا، وهى من آيات الشعـر فى العظة والاعتبار، وقال:

هـل بالحمى عن سرير الملك من يـزع؟ ... هيهـات قـد ذهب المتبـوع والتبـع!
هـذى (الجزيـرة) فانـظر هل تـرى أحدًا ... يتـأى به الخـوف أو يـدنـو بـه الـطمع؟
أضحت خـلاء وكـانت قبـل منـزلـة ... للملك منهـا لـوفـد العـز مـرتـبـع
فـلا مجـيب يـرد القـول عـن نبـأ ... ولا سـمـيـع إذا نـاديـت يسـتـمـع
كـانـت منـازل أمـلاك إذا صـدعـوا ... بـالأمـر كـادت قلوب الناس تتصـدع
عـاشـوا بهـا حـقبـة حـتى إذا نهضت ... طـير الحـوادث من أوكـارهـا وقعـوا

---

(١) أى لا ينفع ولا يضر.
(٢) القانع هنا: السائل المتذلل، والصفر: الذهب.

لـو أنهم علمـوا مقـدار مـا فغـرت ... يـد الحـوادث مـا شـادوا ولا رفعـوا
دارت عليهم رحى الأيـام فـانشعبـوا ... أيـدى سبـا وتخلت عنهم الـشيـع
كـانت لهم عصب يـسـتـدفـعـون بهـا ... كيـد العـدو فـما ضـروا ولا نـفعـوا

* * *

أين المعـاقـل بـل أين الجحـافـل بـل ... أيـن المنـاصـل والخـطيـة الشـرع؟
لا شيء يـدفـع كيـد الـدهـر إن عصفت ... أحـداثـة أو بقى من شـر مـا يفـع
زالـوا فـما بكت الـدنيـا لفـرقـتهم ... ولا تـعـطلت الأعـيـاد والجـمـع
والـدهـر كـالبحـر لا ينفـك ذا كـدر ... وإنمـا صـفـوه بـين الـورى لمـع
لـو كـان للمـرء فكـر فى عـواقبـه ... مـا شـاب أخـلاقـه حـرص ولا طمـع
وكيف يـدرك مـا فى الغيب من حـدث ... من لم يـزل بغـرور العيش ينخـدع
دهـر يـغـر وآمـال تـسـر وأعـ ... ـمـار تمـر وأيـام لهـا خـدع
يسعـى الفـتى لأمـور قـد تضـر بـه ... ولـيس يـعـلم مـا يـأتى ومـا يـدع

* * *

يـا أيهـا الـسـادر المـزورّ من صـلف ... مـهـلا فـإنـك بـالأيـام منـخـدع
دع مـا يـريب وخـذ فيـما خلقت لـه ... لعـل قـلبـك بـالإيمـان يـنـتـفـع
إن الحـيـاة لـثـوب سـوف تخـلعـه ... وكـل ثـوب إذا مـارت يـنـخـلع

وظل البارودى بعد عودته من المنفى فى عزلة من الناس، لا يجتمع إلا بالصفوة المختارة من الأدباء والشعراء والحافظين لعهده، إلى أن كانت وفاته سنة ١٩٤٠، فخلف مجدًا لا يبلى على الزمان.

* * *

اسماعيل صبرى

١٨٥٤ - ١٩٢٣



شاعر بطبعه وسليقته، وطنيٌّ بفطرته وحسن سريرته، أدرك عهد الاحتلال فى إبان قوته وسطوته، فتحركت شاعريته، تجاهد الاستعمار، وتمجد المعانى الوطنية، وتخلدها فى قصائد غرّ تشبه أن تكون تغاريد من نبع القلب الصافى وفيض الإحساس المرهف والذوق الرفيع.

كان شاعرًا رقيقًا مجيدًا، عميق الوجدان، مقلا فى شعره، محتاطًا فى نشر ما تجود به قريحته، كان علمًا من أعلام الطبقة الأولى من شعراء العصر الحديث، وثانيهم بعد البارودى.

ولد سنة ١٨٥٤ بمدينة القاهرة، والتحق بمدرسة المبتديان سنة ١٨٦٦، ثم بمدرستى التجهيزية والإدارة (الحقوق)، وأتم دراسته بمصر سنة ١٨٧٤، ثم ألحق بالبعثة المصرية إلى فرنسا، ونال شهادة الليسانس فى الحقوق من كلية «اكس» سنة ١٨٧٨، ولما عاد إلى مصر التحق بالمناصب القضائية حتى عين وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) سنة ١٨٩٩، واعتزل الخدمة فى سنة ١٩٠٧.

ظهرت مواهبه السعرية منذ نعومة أظفاره، وظلت تنمو وتزدهر طول حياته، وكانت شاعريته ووطنيته عنوان مجده وموضع فخاره.

كان معاصروه يلقبونه (شيخ الشعراء)، واعترف له بذلك زملاؤه، شوقى وحافظ ومطران وعبد المطلب ونسيم وغيرهم، وإنك لتلمح تقدير شوقى لزعامته من قوله فى رثائه:

أيام أمرح فى غبارك ناشئًا ... تهج المهار على غبار خصاف[1]

أتعلّم الغايات كيف ترام فى ... مضمار فضل أو مجال قواف

---

(١) المهار: جمع مهرة وخصاف فرس مسهور فى العرب

ومن قول حافظ فى رثائه أيضًا:

لقد كنت أغشاه فى داره ونـاديه فيها زها وازدهر

وأعرض شعرى على مسمع لطيف يحس نبوّ الوتر

تتجلى فى شعره القومى روح الحب الخالص للوطن، والشجو الحزين على مآسيه، والاستمساك بالعزة والكرامة، والشمم والإباء، ولقد عبّر بأرق القصائد عن شعور مواطنيه، وترجم عن آمالهم وآلامهم.

كانت وطنيته عميقة الجذور، عاش حياته لم يزر إنجليزيًّا قط، ولم يذهب يوما إلى الوكالة البريطانية، فى حين أنها كانت مع الأسف مقصد الكبراء والعظماء فى ذلك العهد، وطالما استماله اللورد كرومر إلى زيارته ليكسبه إلى صف المناصرين للاحتلال، فاستعصم وأبى، ولما قيل له لعلك لو فعلت كنت اليوم رئيسًا للوزارة، قال: وماذا تفيدنى رآسة الوزارة غير اغضاب ضميرى وإرضاء ذوى المطامع وأصدقاء الجاه[1].

كان صديقًا صدوقا للزعيم مصطفى كامل، أيده فى جهاده منذ الساعة الأولى ولم يكن يكتم مناصرته إياه فى أى منصب تولاه.

كان محافظًا للاسكندرية سنة ١٨٩٦ – ١٨٩٩، وأراد مصطفى كامل أن يلقى بها خطبة من خطبه الوطنية الكبرى، فأوعزت إليه الحكومة أن يمنع إقامة الاجتماع الذى أعد لإلقاء الخطبة، بحجة المحافظة على الأمن والنظام، فأبى صبرى على الحكومة ما أرادت، ورخص بإقامة الاجتماع، وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام، وألقى مصطفى كامل خطبته.

ولما عين وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) فى نوفمبر سنة ١٨٩٩ ظل على مودته لمصطفى، وكان فى غالب الأيام يخرج من الوزارة ويعرج بدار اللواء المقابلة لها ليزور صاحب اللواء ويقضى معه الوقت الطويل، ولم يمنعه منصبه من المجاهرة بصداقته له ومناصرته إياه فى الوقت الذى كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به، وإلى ذلك يشير شوقى فى رثائه لاسماعيل صبرى إذ يقول:

ويّح الشباب وقد تخطر بينهم هل متعوا بتمسح وطواف؟

لو عاش قدوتهم ورب (لوائهم) نكس (اللواء) لثابت وقاف

فلكم سقاه الودّ حين وداده جَرَبٌ لأهل الحكم والاشراف

---

(١) ذكر هذه الواقعة الأستاذ أحمد الزين فى مقدمته لديوان إسماعيل صبرى ص ٣٢.

دعوته إلى الدستور

وإنك لتجد فى شعر إسماعيل صبرى انسجاما مع سياسة مصطفى كامل وتمجيدًا للوطنية ومناصرة للأمة فى جهادها للحرية والاستقلال.

قال فى قصيدة وجهها إلى الخديو عباس حلمى الثانى يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ يدعو إلى الدستور.

سدد سهام الرأى (بالشورى) يحط ... بـك منه فى ظُلم الحـوادث فيلقُ
واسبق بـهِ واضرب بـه وأفتـح بـه ... مـا شئت من بـاب أمـامك يُغلق

حادثة دنشواى

وقال فيها يصور حادثة دنشواى ويصف فظائع الإنجليز فيها والعفو الذى أصدره الخديو عن مسجونيها.

وأقلت عشـرة قـريـة حكم الهـوى ... فى أهلهـا وقضـى قـضـاء أخـرقُ
إن أنّ فـيـهـا بـائس ممـا بـه ... أو رنّ جـاوبـه هـنـاك مـطوّق[1]
وارحمـتـا لجُنـاتهـم مـاذا جـنـوا؟ ... وقضـاتهم[2] مـا عـاقهم أن يتقـوا؟
مـا زال يُقـذى كـل عـين مـا رأوا ... فيهـا ويؤذى كـلّ سمـع مـا لقـوا
حتى حكمت فـجـاء حكمـك آيـة ... لـلنـاس طـىّ صحـيفـة تـتـألـق
نـزلت تـرفـرف حـول كـاتب نصهـا ... زمـرًا مـلائـكـةُ الـرضـى وتحلق
شكـرتك مصـرُ عـلى سلامـة بعضهـا ... شكـرًا يغـرب فى الـورى ويشـرق
ذكـرت لك الصفـح الجميـل ولم تـزل ... تـرمـى إلى أمـر أجـل وتـرمق[3]
قـانـون (دنشـاواى) ذاك صحيفـة ... تـتـلـى فتـرتـاع الـقلوب ونـخفـق
هـل يـرتجى صفـو ويهـدأ خـاطـر ... والمـوت حـول نصـوصهـا يتـرقـرق؟
ومضـاجـع القـوم النيـام أواهـلٌ ... بـمـعـذب يـردى وآخـر يـرهـق

(١) المطوق. السجين.
(٢) فضاتهم أى قضاة المحكمة المخصوصة التى حكمت عليهم.
(٣) يريد الدستور.

لن تبلغ الجرحى شفاء كاملاً ... ما دام جارحها المهند يبرق
فاحكم بغير العنف واكسر سيفه ... فالحلم أجمل والمكارم أليق

رثاؤه لمصطفى كامل

وقد جزع لوفاة مصطفى كامل جزعًا شديدًا، وشيع جثمانه إلى مرقده الأخير (يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨)، ووقف على قبره يلقى قصيدته فى وداعه، ولم يكد يلقى البيت الأول منها وهو:

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعيًا ... هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا

حتى ظهر عليه التأثر الشديد والإعياء، ولم يستطع أن يتم القصيدة، وقد ألقاها فى حفلة تأبينه، وتدل هذه القصيدة على مبلغ حبه له وإخلاصه لصداقته، وإعجابه به، وشدة حزنه عليه، فجاءت آية فى بلاغة الرثاء، ورقة التعبير عن الحزن والألم، وكأن كل بيت فيها دمعة وفاء تذرفها عين الصديق على صديقه الحميم. قال:

أجل أنا من أرضاك خلا موافياً ... وبرضيك فى الباكين لو كنت واعيًا
وقلبى ذاك المورد العذب لم يزل ... كما ذقت منه الحبّ والود صافيا
سوى أنه يعتاده الحزن كلما ... رآك عن الحوض المهدَّد نائيا
ويعثر فى بعض الخطوب إذا مشى ... إلى بعض ما يهوى فيرجع داميا
وإن رامه سرب المسرات لم يجد ... محلا به من لاعج الهمّ خاليا
ألا عللانى بالتعازى وأقنعا ... فؤادى أن يرضى بهن تعازيا
وإلا أعينانى على النوح والبكا ... فشأنكما شأنى وما بكما بيا
وما نافعى أن تبكيا غير أننى ... أحبّ دموع البر والمرء وافيا

* * *

أيا (مصطفى) تالله نومك رابنا ... أمثلك يرضى أن ينام اللياليا
تكلم فإن القوم حولك أطرقوا ... وقلْ ياخطيب الحيّ رأيك عاليا
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة ... تخالك أعواد المنابر فانيا
وتبكيك لولا أن فيها بقية ... تعللها من ذلك الصوت داويا
فهل ألقت ما بين جفنك والكرى ... محالفةً أم قد أمنت الأعاديا؟

* * *

فقـدناك فقـدان الكميّ سـلاحـه — وسارى الدياجى كوكب القطب هاديـا
وبتنـا وقـد بـاتت رفـاتـك فى الثرى — سقاها الحيا[1] نستبطىء الـدمع هـاميا
ولـولا تـرات من أمـانيك عنـدنـا — كـريمٌ بكينـا إذ بكينـا الأمـانيـا
طـواك الـردى طىء الكتـاب تضمنت — صحـائفـه من كـل فخـر معـانيـا
مضـاءٌ إذا البيض انتمت لأصـولهـا — غضبنـا إذا سمّـاك قـوم يمـانيـا
ورأى يجـلى اليـأس واليـأس ضـارب — عـلى الأفق ليـلا فـاحم اللون داجيـا
إذا مـا تقـاضينـا ولم تـك بيننـا — ذكـرنـاهـا حتى نجيـد التقـاضيـا
فليتـك إذ أعيبـت كـل مسـاجـل — قنعت فلم تعى الـطبيب المـداويـا
وليتـك إذ ناضلت عن مصـر لم تفض — مـع الحـبر قلبًـا يعلم الله غـاليـا

* * *

لقـد ضاع إخـلاص الطبيب وحـذقـه — سدى فبكى الفخر الـذى كان راجيـا
ولم تنتهـز تلك العقـاقـير فـرصـة — ترى الناس فيها فضل (بقراط) باديـا
نحييـك سيفًا بـات فى التـرب مغمـدًا — تـقلّده فـيـهـا مضـى الحق مـاضيـا

مواساته لجرحى الحرب

ولقد كان له شعر حماسى يملأ القلوب أملا وشجاعة.

قال من قصيدة له مخاطبًا الأمير عمر طوسون يشكره على مواساته جرحى الحرب:

وكم تعهـدت جرحى من أسـود وغى — إن يكشر الدهـر عن أحداثـه كشروا
مستنجـدًا من بنى مصـرٍ إلى شمـم — إذا رأوا ثلمـة فى حـوضهم جبَـرُوا
مستهميًـا هـاميًـا و (النيـل) فى وجـل — مـن أن تجـود بـه أيمـانكم حـذر

الوحدة بين العنصرين

وقال داعيًا إلى الوحدة الوطنية بين عنصرى الأمة:

عينَى فيـك اليـوم قـبـطيًّـة — تروى الأسى عن مسلم موجَع
ويـأخـذ الـبر وآى الـوفـا — عن الكتـاب الـطيب المشْـرع

---

(١) المطر.

ومن قصيدة له حين اشتد الخلاف بين المسلمين والأقباط سنة ١٩١١ يدعو إلى الوحدة الوطنية:

خففوا من صياحكم ليس فى مصـــــــــر لأبنـــاء مصـــر مـــن أعـــداء
دين عيسى فيكم ودين أخيـه   أحمد يأمراننا بالإخاء
مصر أنتم ونحن إلا إذا قا   مت بتفريقنا دواعى الشقاء
مصر ملكٌ لنا إذا تماسكنا   وإلا فمصر للغرباء

تنديده بصنائع الاحتلال

وقال فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ يندد بسياسة مصطفى فهمى حين سقطت وزارته وكان مواليا للاحتلال خاضعا له:

عجبت لهم قالوا سقطتَ ومن يكن   مكانك يأمنْ من سقوط ويسلم
فأنت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى   وحرمت خوف الذل ما لم يحرم
فلو أسقطوا من حيث أنت زجاجة   على الصخر لم تصدع ولم تتحطم[1]

فى الإباء وعزة النفس

ومن قوله فى الإباء وعزة النفس، والزراية بالمتكبرين:

أيها التائه[2] المدلّ علينا   ويك قل لى من أنت؟ إنى نسيت
لو فرشت الطريق درًّا لأخطو   فوقه نحو داركم ما رضيت
أنا أغنى من أن يقال فلان   وفلان تزاوروا ما حييت!

وقال فى الاستمساك بالكرامة:

لكسرة من رغيف خبز   تؤدم بالملح والكرامة
أشهى إلى الحرّ من طعام   يُختم بالشهد والملامة

---

(١) أى أن مصطفى فهمى كان فى منزلة دانية لا يؤلمه السقوط منها، بحيث لو أسقطوا زجاجة من ذلك المكان المنخفض لم تنكسر.

(٢) التائة: المتكبر من التيه بكسر التاء.

يستنكر تعدد الزوجات

وقال يذم تعدد الزوجات:

يـا من تـزوج بـاثنتـين ألا اتئـدْ ألقيت نفسـك ظـالمـا فى الهـاويـةْ
مـا العـدل بـين الضـرتـين بممكن لـو كنت تعـدل مـا أخـذت الثـانيـة!

التوحيد والحرية

وله فى تمجيد التوحيد والحرية كلمات بليغة وإن لم تكن شعرا إلا أنها تتشبه فى النغم والرنين وقوة الأثر، وهى من الشعر المنثور البليغ. قال:

أحب التوحيد فى ثلاثة: الله. والمبدأ. والمرأة.
وأحب الحرية فى ثلاثة:
حرية المرأة فى ظل زوجها
وحرية الرجل تحت راية الوطن
وحرية الوطن فى ظل الله.

تنديده بالظلم والاستعمار

قال فى قصيدة له يخاطب (الدواة):

وإذا الـظلم والـظلام استعـانـا يـوم نحس بأجهـل الجـاهلينـا
واستمـدا من الشـرور مـدادا فـاجعليـه فى قسمـة الـظالمينـا

إلى أن قال:

وإذا كـان فيـك نقـطة سَـوء كـونت من خيـانـة تكـوينـا
فـاجعليها قسط الـذين استباحـوا فى السيـاسات حـرمـة الأضعفينـا!

تنديده بالمستعمرين

قال ينعى على إيطاليا عدوانها على طرابلس (ليبيا) سنة ١٩١١ ويندد بما فى فعلتها من الغدر ونقض العهود والمواثيق:

بـعضَ هـذا الجفـاء والـعـدوان راقـبـى الله أمـةَ الـطليـان!

قد ملأت الفضاء غدرًا وجهلا — وتسنمت غارب الطغيان
وبعثت السفين ترمى طرابلـ — ـس بحرب مشبوبة النيران
تخرق البحر والمواثيق والعـ — ـهدَ جهارا وذمة الجيران
سيَّرتها أضغان قوم لقوم — سَلِموا من دناءة الأضغان[1]
من رآها تجرى توهم أن الـ — ـقوم هموا للثأر للأوطان
لا وربّ الأسطول ما حمل الأسـ — ـطول جيشًا إلى حمى الحبشان[2]
إن قوم الطليان أحرص من أن — يُفضحوا مرتين فى ميدان

الامتيازات الأجنبية

وقال فى هذه القصيدة يشير إلى الامتيازات الأجنبية التى منحتها الدول الشرقية للأوروبين فقابلوها بالغدر والعقوق واتخذوها وسيلة للعدوان على هذه الدول:

ويحهْم ما لصنعهم أبطر القو — م فعقّوا ما كان من إحسان؟
ولماذا تمخض السلم عن حر — ب لظاها يشوى الوجوه عوان؟
منحٌ قد بذرن فى شر أيدٍ — كن مذكن منبت الكفران
هكذا فلتك المروءات فى عصـ — ـر البهاليل من بنى الرومانِ!

القوة سياج الاستقلال

وقال فيها يدعو إلى التسلح بالقوة للدفاع عن الذمار وصد مطامع الاستعمار ويحذر أمم الشرق من غدر الدول الاستعمارية وعدوانها وتبييتها الشر تحت ستار الود والصداقة:

لا ينق بعضنا ببعض وهذا — ما أعد الإنسان للإنسان
إن تسلَّم على الغريب فسلم — فى ظلال السيوف والمران[3]
ربما أصبح العناق صراعًا — فى زمان الآداب والعرفان[4]

---

(١) يريد بالذين سلموا من دناءة الأضغان العرب وهم المعتدى عليهم فى هذه الحرب.

(٢) يشير بهذا البيت والذى يليه إلى هزيه الطليان أمام الأحباش فى معركه عدوه المشهورة سنة ١٨٩٦ ويعيرهم بالسكوت عن الأخذ بثأرهم فى هذه المعركة.

(٣) يريد المران الرماح أى القوة المسلحة.

(٤) فى هذا البيت ينهكم بالدول الأوربيه وما تنطوى عليه من الغدر ونقض العهود فى عصر المدنية والعلوم والآداب.

التغنى بعظمة مصر

وله قصيدة خالدة يتغنى فيها بعظمة مصر ومفاخرها، ويستحث مصر الحديثة على إحياء مجدها، قالها سنة ١٩٠٩ على لسان فرعون مصر يخاطب قومه ويبعث فيهم روح العمل لبناء مجد الدولة قال:

لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى ... إذا ونى يوم تحصيل العلا وانى

إلى أن قال:

لا تقربوا (النيل) ان لم تعملوا عملا ... فماؤه العذب لم يخلق لكسلان

ردوا المجرَّة كدّا دون مورده ... أو فاطلبوا غيره ريّا لظمآن

وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم ... لا تتركوا بعدكم فخرًا لإنسان

لا تتركوا مستحيلا فى استحالته ... حتى يميط لكم عن وجه إمكان

مقالة هبطت من عرش قائلها ... على مناكب أبطال وشجعان

مادت لها الأرض من ذعر ودان لها ... ما فى المقطم من صخر وصوان

يبنون ما تقف الأجيال حائرة ... أمامه بين إعجاب وإذعان

من كل مالم يلد فكر ولا فتحت ... على نظائره فى الكون عينان

ويشبهون إذا طاروا إلى عمل ... جنا تطير بأمر من (سليمان)

* * *

(أهرامهم) تلك حىّ الفنَّ متخذا ... من الصخور بروجا فوق كيوان

قد مر دهر عليها وهى ساخرة ... بما يضعضع من صرح وإيوان

لم يأخذ الليل منها والنهار سوى ... ما يأخذ النمل من أركان نهلان

جاءت إليها وفود الأرض قاطبة ... تسعى اشتياقا إلى ما خلد الفانى

فصغرت كل موجود ضخامتُها ... وغض بنيانها من كل بنيان

وعاد منكر فضل القوم معترفا ... يثنى على القوم فى سرٍّ وإعلان

تلك الهياكل فى الأمصار شاهدة ... بأنهم أهل سبق. أهل إمعان

إذا أقام عليهم شاهدا حجر ... فى هيكل قامت الأخرى ببرهان

كـأنمـا هـى والأقـوام خـاشـعـة أمـامـهـا صحـف من عـالم ثـانى
تستقبـل الـعـين فى أثنـائـهـا صـور نصيحـة الـرمـز دارت حـول جـدران
لـو أنها أعـطيت صـوتـا لكـان لـه صـدى يـروّع صـم الإنس والجـان

وختمها بقوله:

أين الأولى سجلوا فى الصخـر سيـرتهم وصـغـروا كـل ذى مـلك وسـلطان
بـادوا وبـادت عـلى آثـارهـم دول وأدرجـوا طـىّ أخـبـار وأكـفـان
وخـلفـوا بـعـدهـم حـربـا مخـلدة فى الكـون مـا بـين أحجـار وأزمـان
وزُحـزحـوا عن بقـايـا مجـدهم وسـطا عـليهم الـعـلمُ ذاك الجـاهـل الجـانى
ويـل لـه هـتـك الأسـتـار مقتحـما جـلال أكـرم آثـار وأعـيـان
لـلجهـل أرجـح مـنـه فى جهـالـتـه إذا هـما وزنـا يـومـا بمـيـزان

إلى شوقى فى منفاه

وكان على ود صميم مع شوقى، وحينما نفى شوقى من مصر خلال الحرب العالمية الأولى ظل على صلته به، وكان شوقى قد أرسل إليه من منفاه بالأندلس سنة ١٩١٧ ببيتين من قصيدة له مشهورة[١] قال فيها:

يـا سـارى البـرق يـرمى عن جـوانحنـا بـعـد الهـدوء ويهمى من مـآقـينـا[٢]
لمـا تـرقـرق فى دمـع الـسـماء دمًـا هـاج البكـا فخضبنـا الأرض بـاكينـا!

فأجابه صبرى بهذه الأبيات:

يـا وامض البـرق كم نبَّهت من شـجن فى أضلع ذهلت عـن دائـهـا حـيـنـا
فـالمـاء فى مـقـل، والـنـار فى مهـج قـد حـار بينـهـما أمـر المحـبـينـا
لـولا تـذكـر أيـام لـنـا سـلفـت مـابـات يبكى دمـا فى الحى بـاكينـا
يـا آل ودى عـودوا لا عـدمـتـكـم وشـاهـدوا ويحكم فعـل النـوى فينـا
يـا نسمـة ضمخت أذيـالهـا سحـرا أزهـار أنـدلس هـبّى بـواديـنـا[٣]

---

(١) سيرد ذكرها فى الحديث عن شوقى.

(٢) يريد شوقى أن البرق قد اقتبس اشتعاله من نار جوانحه وتخيل أن ما يهمى به البرق من المطر مشتق من دموعه.

(٣) يخاطب صبرى نسمة الأندلس التى عطرتها أزهاره ويعيش فى جوها شوقى ويناجيها أن تهب عليه فى مصر.

وقد عاش اسماعيل صبرى كريم الخلق، صادقا عيوفا، أبيـا وفيا لـوطنه وأصـدقائـه، معتزا بكرامته، صريحا محبا للحق، بعيدا عن الزهو والخيلاء، وظل عـلى هذه الأخـلاق الفاضلة إلى أن توفى فى ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ بعد مرض طويل، وخلف كنوز من الشعر والوطنيـة، والفضائـل النفسية، أضفت على اسمه هالة من المجد والخلود.

* * *

أحمد شوقي

شاعر الوطنية الأكبر
١٨٧٠ - ١٩٣٢



بلغ الشعر الوطني ذروته على لسان شوقي وحافظ، فلقد حملا لواء النهضة الشعرية فى العصر الحديث، وتغنيا بالوطنية، وكان للحوادث الكبرى التي وقعت فى مصر والشرق صداها فى شعرهما، وكلاهما كان له أثره وفضله فى تغذية الحركة الوطنية بعيون الشعر الوطني، سطع نجمهما فى عصر واحد، وغردا فى جيل واحد، وانتقلا إلى جوار ربهما فى عام واحد (١٩٣٢) ولم تمض على وفاة حافظ ثلاثة أشهر حتى لحق به شوقي فى الرفيق الأعلى.

سمى شوقي أمير الشعراء، ولقب الأمير لم يعد يتفق والروح الديمقراطية، ولم تعد الامارة تضفى على صاحبها منزلة محترمة، هذا إلى أن شوقي أكبر من أن يمجد بهذا اللقب، فهل نسميه (سيد الشعراء)؟ إن كلمة السيادة لغير الأمة لم تعد أيضًا تتفق والأوضاع الديمقراطية، فهل نسميه (زعيم الشعراء)؟ إنه ولا ريب أقدر شعراء عصره، ولم يكن ينازعه فى زعامة الشعر أحد من أنداده ومعاصريه، فلقد عقدوا له لواء الزعامة وبايعوه عليها فى المهرجان الذى أقيم له بمصر سنة ١٩٢٧ وجمع أقطاب الشعراء من العالم العربي وخاطبه فيه صنوه حافظ بقوله:

أميرَ القوافى قد أتيتُ مبايعا   وهذى وفود الشعر قد بايعت معى

على أن لقب (زعيم الشعراء) لا يكفى للتعريف به والتنوية بمكانته، وخير لقب له أن يسمى (شاعر العربية الأكبر) وأن نسميه فى هذا الكتاب (شاعر الوطنية الأكبر)

ولد أحمد شوقي فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٠[1] وتعلم فى المدارس النظامية، ودخل مدرسة

---

(١) عن التاريخ الثابت فى شهادة الليسانس التى نالها الفقيد من كلية الحقوق بباريس

الادارة (الحقوق)، فى أوائل عهد الاحتلال، وفى سنة ١٨٨٧ سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق والأدب، وأتم دراسته سنة ١٨٩٣.

أدرك شوقى الاحتلال الإنجليزى وهو شاب مهذب مثقف، وعرف كيف عصف الاحتلال باستقلال البلاد، وإذ كانت عبقريته الشعرية قد خلقت وولدت معه ولازمته منذ صباه، فقد اقترنت بشعوره الوطنى الذى تولد فى نفسه بالفطرة، وزاده توهجًا ورسوخا رؤيته الاحتلال الأجنبى يجثم على صدر البلاد، فامتزجت شاعريته بوطنيته، وكان لمصر وآلامها صدى بعيد وأثر عميق فى شعره، وظل حبه للوطن يوجهه فى قصائده ويلهمه التغريد له والحنو عليه.

التحق منذ عودته إلى مصر بديوان المعية الخديوية، وعلت مكانته لدى الخديو عباس الثانى حتى سمى (شاعر الأمير) ولكن روحه الوطنية لم تتأثر كثيرًا من صلته بالقصر هذا إلى أن الخديو عباس كان فى أول عهده بالعرش يناوىء الاحتلال والاحتلال يناوئه، حتى إذا جنح لمهادنة الاستعمار، لم يكن لهذا التحول أثر كبير فى شعر شوقى، اللهم إلا هدأة وقتية فى الحرب المشبوبة بين الأمة والاحتلال، على أن تأصل روح الوطنية فى نفسه جعله لايجارى الخديو عباس فى انصرافه عن الحركة الوطنية، ثم فى تنكره لها، فبقى شعره ينهل من منبع الوطنية الصافى.

وانفصل عن منصبه فى القصر بعد خلع الخديو عباس عن العرش فى ديسمبر سنة ١٩١٤ فتحرر من المنصب الحكومى، فزادته الحرية قوة وانتاجا وتحليقًا فى سماء الشعر والفن والخيال، واستهدف لاضطهاد السلطة العسكرية البريطانية، اذ قررت نفيه وتركت له اختيار البلد الذى ينفى إليه، فاختار أسبانيا (الأندلس)، وبقى على عهده للوطن، ثم عاد من منفاه فى فبراير سنة ١٩٢٠، والبلاد فى غليان الثورة، فاستقبلت مصر شاعرها الملهم استقبالا حافلا رائعًا.

ويمتاز شعر شوقى بقوة البيان، وروعة الموسيقى الشعرية، وسعة الأفق، والتعمق فى استيعاب الحوادث التاريخية، قديمها وحديثها، ولقد جارى فحول الشعراء المتقدمين، وبذهم فى كثير من قصائده، وجدد بعض التجديد فى الشعر العربى بما اقتبسه عن شعراء الغرب، وعن الثقافة الأوروبية، وسار فى التجديد شوطًا بعيدًا وخاصة بعد عودته من المنفى، إذ وضع عدة مسرحيات شعرية بلغت مبلغًا عظيما من الفن والموسيقى والجمال، كمصرع كليوباتره، ومجنون ليلى، وعنترة، وغيرها، وظل ينتج ويشدو ويبدع، إلى أن توفى فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢.

الوطنية فى شعر شوقى

فى قصائد شوقى يسطع نور الوطنية، ويتأجج لهيبها، وهو أغزر الشعراء مادة وأوسعهم انتاجا فى هذه الناحية، ولقد ظل يستلهم روح الوطنية طول حياته، شابا وكهلا وشيخًا، بل إن

سعره الوطنى فى شيخوخته كان أقوى منه فى شبابه، وقد يكون مرجع ذلك إلى تجرده من الاتصال بالقصر بعد خلع الخديو عباس حلمى، كما أسلفنا، ثم إلى نفيه من مصر فى أوائل الحرب العالمية الأولى، فأثار البعد عن الوطن شاعريته، وجاد بأبدع قصائده فى الحنين إلى مصر وحبه لها والهيام بها إلى درجة التقديس، ومرجع ذلك أيضا إلى تأصل عبقرية الشعر فى نفسه، فلم تضعفها السن، ولم ينل منها الزمن وظلت قوية تتدفق حيوية ونشاطا.

والوطنية فى شعر شوقى هى فيض الفطرة والإلهام، وليست من صنع الظروف أو التكلف، ولذلك جاءت قوية جارفة، عميقة رائعة.

فتأمل فى أول قصيدة له فى ديوانه وهى التى قالها فى المؤتمر الشرقى الدولى المنعقد بمدينة جنيف عام ١٨٩٤ ومطلعها.

هَمَّتِ الفلكُ واحتواها الماء ... وحداها بمن تُقلّ الرَّجاء

تجدها آية فى شعر الملاحم أو الشعر التاريخى، وتحس وأنت تقرؤها أنها قبس من نور الوطنية، فهى سجل ناطق (لكبار الحوادث فى وادى النيل)، وقد بلغ عدد أبياتها ثلثمائة بيت إلا قليلا (تسعين ومائتى بيت)، عرض فيها عرضا أخاذا بديعا تاريخ مصر من أقدم العصور إلى عام نظمها، أشاد بعظمتها ومجد مفاخرها، وحنى عليها فى كبواتها، واستنزل السخط على كل من اعتدى عليها.

فانظر إلى قوله عن عظمة مصر:

قُلْ لبانٍ بنَى فشادَ فغالى ... لم يَجُزْ مصر فى الزمان بناء
ليس فى الممكنات أن تُنْقَل الأجْبال[1] شُمًّا وأن تُنال السماء

ولما انتهى فى سرد الحوادث إلى الحملة الفرنسية سجل إخفاقها وارتدادها عن مصر، قال:

وأتى النسر[2] ينهب الأرض نهبًا ... حوله قومهُ النسورُ ظِماء
يشتهى النيل أن يشيد عليه ... دولةً عرضُها الثرى والسماء
حلُمتْ رومةٌ بها فى الليالى ... ورآها القياصرُ الأقوياء
فأتت مصر رُسْلُهم تتوالى ... وترامت سودانَها العلماء
ولو استشهد الفَرنسيسُ روما ... لأَتَتْهُمْ من رومةَ الأنباء
علمتْ كلُّ دولة قد تولَّتْ ... أننا سمها وأنا الوباء

(١) الأجبال: جمع جبل.
(٢) يقصد نابليون.

قـاهـر العصـر والممـالـك نـابليـون ولَّتْ قـوادُه الكبـراء
جـاء طيشًا وراح ومن قبـل أطـاشت أنـاسَها العلياء

وانظر كيف يصور فى البيتين الآتيين سكوت الأهرام وهى تواجه نابليون بأنه سكوت السخرية والاستهزاء وكأنها تتنبأ له بالهزيمة فى ختام معاركه، قال:

سكتت عنه يوم عيَّرها الأهـرام لكن سكوتها استهزاء
فهى توحى إليه أن تلك (واتـر لـو) فأين الجيوش أين اللواء؟

وتأمل كيف يعبر عن قناة السويس بأنها نكبة على مصر قال:

جمع[1] الزاخرينْ كَرْها فلاكا نـا ولا كـان ذلك الالتقاء
أحمـرٌ عند أبيض للبرابا جِصَّةُ القُطْرِ منها سوداء

والقصيدة كلها على هذا الغرار فى الإجادة والإبداع، ولقد نظمها وهو فى الرابعة والعشرين، وكأنما رسم فيها منهجه فى الشعر، فهو يقتبس من عبقريته الشعرية، ومن روحه الوطنية معا، وقد لازمه هذا الامتزاج فى شتى قصائده.

شوقى ومصطفى كامل

سارت نهضة الشعر فى مصر إلى جانب النهضة الوطنية التى هبت لمقاومة الاحتلال، ومن هنا جاءت صلة الزعيم مصطفى كامل بشعراء عصره، وكانت دعوته الوطنية تلقى صدى وتأييدا فى قصائدهم الغرّ، بحيث يمكن القول بأن الشعر لم يتألق فى سماء مجده مثلما تألق فى عهد مصطفى كامل ومحمد فريد.

وقد ظهر التجاوب بين دعوة مصطفى كامل وشعر شوقى، وزاد فى هذا التجاوب أن شوقى كان صديقًا حميا لمصطفى، وكلاهما معجب بصاحبه أيما إعجاب، ولا غرو فهما صنوان، وفرسا رهان، هذا فى ميدان الوطنية والجهاد، وذلك فى دولة الشعر والبيان، وكان شوقى يعتز بصداقته لمصطفى ومشاركته إياه فى تعهده الروح الوطنية وغرسها فى نفوس الجيل، وإلى ذلك يشير فى قصيدته عن ذكرى مصطفى سنة ١٩٢٥ اذ يقول فيها مخاطبا الفقيد.

أتَـذْكُر قبل هذا الجيل جيلا سهـرنـا عن معلِّمهم ونـاما؟
مِهـار الحق بغَّضْنا اليهم شكيم القيصـريةِ واللجـاما[2]

---

(١) الإشارة هنا إلى سعيد الذى منح دلسبس امتياز القناة، ويريد بالزاخرين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر.

(٢) مهار، جمع مهر، والمراد بالمهار هنا الشباب، والمراد بشكيم القيصرية ولجامها. بطش الاحتلال وجبروته.

(لـواؤك) كـان يَسقيهم بجـامٍ ... وكـان الشعرُ بـين يدىَّ جـاما
من الـوطنيـة استبقـوا رحيقًـا ... فضَضْنـا عن معُتَّقِهـا الختـامـا

وكان مصطفى يصف شوقى بأنه «الغدير الصافى فى القاف الغاب، يسقى الأرض ولا يبصره الناظرون»، وكان يخصص لقصائده أسمى مكان فى (اللواء)، وفى ذلك يقول شوقى فى مرثاته الخالدة:

قـد كنت تهتف فى الورى بقصائـدى ... وتجـلّ فـوق الـنّيـريـن مـكـانى

وزاره وهو على فراش مرضه الأخير، فطلب إليه مصطفى أن يرتيه إذ أحس بدنو أجله، وفى ذلك يقول شوقى:

وجعلت تسـألنى الـرثـاء فهـاكـه ... من أدمعى وسـرائـرى وجنـانى

ويبدو الانسجام بين دعوة مصطفى كامل وشعر شوقى فى كثير من قصائده.

قصيدة شوقي فى وداع اللورد كرومر

فمن ذلك قصيدته المشهورة فى وداع اللورد كرومر سنة ١٩٠٧ حين اضطر إلى الاستقالة على أثر حادثة دنشواى، ففى أبياتها تتجلى الروح الوطنية والنقمة على الاحتلال، قال:

أيـامُكم أم عهـد اسمـاعيـلا ... أم أنت فـرعـونٌ يسوس النيـلا؟
أم حـاكمٌ فى أرض مصـر بـأمـره ... لا سـائـلا أبـدًا ولا مسئـولا
يـا مـالكًـا رقّ الـرقـاب ببأسـه ... هـلا اتخـذت إلى القلوب سبيـلا؟
لمـا رحلَت عن البلاد تشهّـدت ... فكـأنـك الـداء العيـاء رحيـلا
أوسَعْتنـا يـومَ الـوداع إهـانـةً ... أدبٌ لعمـرك لا يصيبُ مثيـلا[1]

إلى أن قال:

أنـذرتـنـا رقًـا يـدوم وذَلـةَ ... تبقى وحـالا لا تـرى تحـويـلا
أحَسـبِتَ أن الله دونـك قـدرةً ... لا يملك التـغيـير والـتبـديـلا؟
الله يحـكـم فى المـلوك ولم تـكـن ... دولٌ تنـازعـه القـوى لتـدولا

---

(١) يشير إلى خطبة اللورد كرومر فى الحفلة التى أقامها صنائع الاحتلال بدار الأوبرا تكريمًا له وأهان فيها المصريين.

وعونُ قبلك كان أعظم سطوةً   وأعزّ بين العالمين قبيلا

* * *

اليوم أخلفت الوعود حكومةٌ   كنا نظن عهودَها الانجيلا
دخلتْ على حكماالوداد وشَرعه   مصرًا فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها وهدت ركنها   وأضاعت اعتقلالها المأمولا

وقال:

قد مدَّ إسماعيل قبلك للورى   ظلَّ الحضارة فى البلاد ظليلا
إن قيس فى جود وفى سرف إلى   ما تنفقون اليوم عُدَّ بخيلا
أو كان قد صرع (المفتش) مرةً   فلكم صرعت بدنشواى قتيلا
لا تذكر الكرباج فى أيامه   من بعد ما أنبتَّ فيه ذيولا

قصيدته فى ذكرى دنشواى

وقصيدته سنة ١٩٠٧ أيضًا عن (ذكرى دنشواى)، بعد مرور عام على حادثتها، فى سبيل طلب العفو عن سجنائها، وفيها وصف مؤثر لهذه المأساة.

قال:

يادنشوايَ على رُباكِ سلامُ   ذهبت بأنس رُبوعِك الأيامُ
شهداءُ حُكمك[1] فى البلاد تفرقوا   هيهاتَ للتملِ الشتيتِ نظام
مرّت عليهم فى اللحود أهلة   ومضى عليهم فى القيود العام
كيف الأراملُ فيك بعد رجالها   وبأىِّ حالٍ أصبح الأيتام؟
عشرون بيتًا أقفرتْ وانتابها   بعد البشاشة وحشة وظلام
ياليت شعرى فى البروج حمائمٌ   أم فى البروج منيةٌ وحمام؟
(نيرونُ) لو أدركتَ عهد (كرومر)   لعرفت كيف تنفذ الأحكام!

* * *

نوحى حمائمَ دنشواى وروعى   شعبًا بوادى النيل ليس ينام
إن نامت الأحياء حالت بينه   سَحَرًا وبين فراشِه الأحلام

---

(١) أى حكم المحكمة المخصوصة فى قضية دنشواى.

متوجعٌ يتمثلُ البومَ الذى ضجتْ لشدة هوله الأقدام
السوط يعملُ والمشانقُ أربعٌ متوحداتٌ والجنودُ قيام
والمستشارُ[1] إلى الفظائع ناظرٌ تدمى جلودٌ حوله وعظام
فى كلِّ ناحيةٍ وكلِّ محِلةٍ جزعًا من الملأ الأسيف زحام
وعلى وجوهِ الثاكلين كآبة وعلى وجوهِ الثاكلاتِ رَغام

رثاء لمصطفى كامل

ولما توفى مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ رثاه شوقى بقصيدته الخالدة التى تعد أكبر مرثاة فى تاريخ الأدب العربى، ترجم فيها عن شعوره بالحزن والألم بآيات بينات تجلت فيها حكمة الشعر وقوة الوطنية وروعة البيان، وقد نشرت يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨ عقب وفاة الزعيم بثلاثة عشر يومًا، فأثرت فى النفوس تأثيرًا عميقًا، وجددت أحزان الأمة، وحفظناها وحفظها الشباب وقتئذ عن ظهر قلب، لأنها عبرت عن شعورنا جميعا فى الرزء الفادح، ننشرها كاملة لأنها قطعة من الشعر الوطنى الخالد. قال فى مطلعها:

المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما فى مأتم والدانى
يا خادم الإسلام أجر مجاهد فى الله من خلد ومن رضوان
لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى فى الزائرين وروِّع الحرمان
السكة الكبرى[2] حيال رباها منكوسة الأعلام والقضبان
لم تَألُها عند الشدائد خدمةً فى الله والمختار والسلطان
يا ليت مكة والمدينة فازتا فى المحفلين بصوتك الرنان
ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا ما غاب من قس ومن سحبان[3]
جار التراب وإنت أكرم راحل ماذا لقيت من الوجود الفانى؟

وقال عن مرضه الذى أودى بحياته:

أبكى صباك ولا أعاتب من جنى هذا عليه كرامةً للجانى[4]
يتساءلون أبا لسلال قضيت أم بالقلب أم هل مت بالسرطان

---

(١) يريد الكبتن متشل مستشار وزارة الداخلية وكان يشرف على تنفيذ الحكم.
(٢) يريد سكة حديد الحجاز
(٣) قس وسحبان خطيبان من أبلغ خطباء العرب.
(٤) الجانى إشارة إلى مصطفى كامل أى أنه ضحى بحياته وشبابه فى سبيل مصر.

الله يشهد أن موتك بالحجا ... والجد والإقدام والعرفان

وقال يشيد بأخلاق الفقيد:

إن كان للأخلاق ركن قائم ... في هذه الدنيا فأنت الباني
بالله فتِّش عن فؤادك في الثرى ... هل فيه آمالٌ وفيه أماني
وجدانُكَ الحيّ المقيم على المدى ... ولرُبَّ حيٍّ ميّتِ الوجدان

وقال في فلسفة الحياة:

الناسُ جارٍ في الحياة لغاية ... ومضلَّل يجري لغير عنان
والخلدُ في الدنيا وليس بهينٍ ... عليا المراتب لم تُتَحْ لجبان
فلو أن رسلَ الله قد جبنوا لما ... ماتوا على دين ولا إيمان
المجد والشرف الرفيع صحيفة ... جُعلت لها الأخلاق كالعنوان
وأحبُّ من طول الحياة بذلة ... قصَرٌ يريك تقاصرَ الأقران
دقّاتُ قلب المَرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذكر للانسان عمرٌ ثاني
للمرء في الدنيا وجم شؤونها ... ما شاء من ربح ومن خسران
فهي القضاء لراغب متطلع ... وهي المضيق لمؤثر السلوان

* * *

الناس غادٍ في الشقاوة رائحٌ ... يشقى له الرحماء وهو الهاني
ومنعَّم لم يلق إلّا لذة ... في طيها شَجَنٌ من الأشجان
فاصبر على نُعْمَى الحياة وبؤسها ... نعمى الحياة وبؤسها سيان

وقال مخاطبًا الزعيم:

ياطاهر الغدوات والرَّوحات والـ ... ـخطرات والإسرارِ والإعلان
هل قام قبلك في المدائن فاتح ... غازٍ بغير مُهَنَّد وسنان؟
يدعو إلى العلم الشريف وعنده ... أن العلوم دعائم العمران

وقال في وصف الجنازة:

لَفّوك في عَلَم البلاد منكّسًا ... جَزَع الهلالُ على فتى الفتيان

ما احمرّ من خجل ولا من ريبة ... لكنما يبكى بدمْع قانى[1]
يزُجُّون نعشك فى السناء وفى السنا ... فكأنما فى نعشك القمران
وكأنه نعش (الحسين) «بكربلا» ... يختال بين بكى وبين حنان
فى ذمة الله الكريم وبره ... ما ضم من عرف ومن إحسان
ومشى جلال الموت وهو حقيقة ... وجلالك المصدوق يلتقيان

* * *

شَقّت لمنظرك الجيوبَ عقائلٌ ... وبَكَتكَ بالدمع والهتونِ غوانى
والخَلْقُ حولك خاشعون كَعهدهم ... إذ ينصتون لخطبة وبيان
يتساءلون بأى قلب تُرْتَقى ... بعدُ المنابرُ أم بأى لسان
فلو إن أوطانًا تُصَوَّر هيكلا ... دَفنوك بين جوانح الأوطان
أو كان يُحْمَل فى الجوارح ميت ... حملوك فى الأسماع والأجفان
أو صيغ من غُرّ الفضائل والعُلى ... كَفَنٌ لبست أحاسن الأكفان
أو كان للذكر الحكيم بقية ... لم تأت بَعْدُ رُثيتَ فى القرآن

وقال يصف الفقيد فى مرضه الأخير:

ولقد نظرتك والردى بك محدق ... والداء ملء معالم الجثمان
يبغى وَيطْغى والطبيب مضلل ... قَنِطٌ وساعات الرحيل دوانى
ونَواظرُ العُواد عنك أمالها ... دمعٌ تعالج كتمَه وتعانى
تُملى وتكتب والمشاغل جمة ... ويداك فى القرطاس ترتجفان
فهشَشْتَ لى حتى كأنك عائدى ... وأنا الذى هدّ السقام كيانى
ورأيتُ كيف تموت آساد الشَّرى ... وعرفتُ كيف مصارع الشجعان
ووجدتُ فى ذاك الخيال عزائمًا ... ما للمنون بدكّهن يدان

* * *

وجعلتَ تسألنى الرثاء فهاكه ... من أدمعى وسرائرى وجنانى
لولا مغالبة الشجون لخاطِرى ... لنظمتُ فيك يتيمة الأزمان

---

(١) قانى: أحمر.

وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت فتعـود سيـرتَها من الـدوران

* * *

قد كنتَ تهتف فى الورى بقصائدى وتُجِلُّ فـوق النيـرات مكـانى
مـاذا دهـانى يـوم بِنْتَ فعقَّنى فيـك القريضُ وخـاننى إمكـانى
هَـوِّنْ عليـك فـلا شمـات بميت إن المنيـة غـايـة الإنسـان
مـن للحسـود بميتـة بُلّغتـهـا عـزّت على كسرى أنو شروان
عـوفيت من حَرَب الحياة وحرْبها فهل استرحت أم استراح الشانى

وقال فى ختام القصيدة يذكر فضل مصطفى على مصر:

يـا صَبَّ مصر ويـا شهيدَ غرامها هـذا ثـرى مصـرٍ فنم بـأمـان
اخلع عـلى مصـر شبـابـك غـاليًـا والبس شبـاب الحـور والـولـدان
فلعـل مصرًا من شبـابك تـرتـدى مجـدًا تـتيـه بـه عـلى الـبلدان
فلو أنـابـالهـرمـين من عَـزَماتـه بعض المضـاء تحـرّك الهـرمـان
علّمت شبـان المـدائن والقـرى كيف الحيـاة تكـون فى الشبـان
مصـر الأسيفـة ريفهـا وصعيـدهـا قـبرٌ أبـرُّ عـلى عِـظامِـك حـانى
أقسمتُ أنـك فى التراب طهـارةٌ مَـلَكٌ يهـاب سؤالـه المَـلَكـان

شهيد الحق

وكان سوقى لا يفتأ يذكر مصطفى بعد وفاته:

فمن ذلك قصيدته التى نظمها سنة ١٩٢٥ لمناسبة ذكراه بعنوان (شهيد الحق)، تناول فيها ما أصاب البلاد من انقسام وتشاحن وتناحر، ثم انتقل من ذلك إلى ذكرى مصطفى كامل، فوفاه حقه من التمجيد، قال فى مطلعها:

إلامَ الخـلْفُ بينـكـمـو إلا مـا؟ وهـذه الضجـةُ الكبـرى عـلاما؟
وفـيمَ يـكيـد بـعضـكُم لـبعضٍ وتُبـدون العـداوة والخصـامـا؟
وأين الفـوز؟ لا مصـر استقـرت عـلى حـالٍ ولا السـودان داما

إلى أن قال:

وَلِينـا الأمـرَ حـزبًـا بعـد حزب فلم نَـكُ مصلحين ولا كـرامـا

جعلنـــا الحـكم تـــولـيـــةً وعَـــزْلا ولم نَـعْـدُ الجـزاء والانـتـقـامـا
وسُسْنـا الأمـر حـين خـلا إلينـا بـأهـواء النفـوس فـما استقـامـا

وقال ذاكرًا مناقب الفقيد:

شـهيـدَ الحـق قـم تَـره يـتـيـما بـأرض ضُيِّعتْ فيـهـا اليـتـامى
أقـام عـلى الشفـاه بهـا غـريبًا ومـرَّ عـلى القلوب فـما أقـامـا[1]
سقِمتَ فلم تَبِت نفسٌ بخـير كـأن بمهجـة الـوطن السقـامـا
ولم أر مثـل نعشـك إذ تهـادى فغـطّى الأرض وانتـظم الأنـامـا
تحـمَّـل همـةً وأقـلَّ دِيـنًـا وضـمّ مـروءةً وحـوى زمـامـا
ومـا أنسـاك فى العشـرين لمـا طلعتَ حيـالهـا قمـرًا تمـامًـا
يُشـارُ إليـك فى النـادى وتُـرمَى بعيـنى من أحـب ومن تعـامـى
إذا جئتَ المنـابـر كنت (قسًّـا) إذا هـو فى عكـاظَ عَـلا السنـامـا
وأنـت ألـذُّ لـلحـق اهـتـزازًا وألـطف حـين تنـطقـه ابتسـامـا
وتحـمـل من أديـم الحق وجـهًـا صـراحًـا ليس يتخـذ اللثـامـا

* * *

أتـذكـرُ قبـل هـذا الجيـل جيـلًا سهـرنـا عن معلِّمـهم ونـامـا؟
مِهـارُ الحق بغَّضْنـا إليـهـم شكيمَ القيـصـريـة والـلجـامـا
لـواؤك كـان يسقيـهم بجـامٍ وكـان الشعـر بـين يدىَّ جـامـا
من الـوطنيـة استبقـوا رحيقًـا فَضضْنـا عن مَعتقهـا الختـامـا
غـرسنـا كَـرمهـا فـزكـا أصـولا بـكـل قـرارة وزكـا مُـدامـا
جمعتهمـو عـلى نبـرات صـوت كنفـخ الصوّر حـركت الرجـاما[2]
لـكَ الخـطبُ التى غص الأعـادى بسـوْرتهـا وسـاغت للنّـدامى[3]
فـكـانـت فى مـرارتهـا زئـيـرًا وكـانت فى حـلاوتهـا بغـامـا[4]

* * *

(١) أى أن الحق تنطق به الأفواه ولا يستقر فى القلوب.
(٢) الرجام: القبور.
(٣) السورة: الحدة والشدة: والندامى جمع نديم والمراد بهم والأنصار والأصدقاء.
(٤) البغام: صوت الظبى.

بكَ الوطنية اعتدلت وكانت ... حديثًا من خرافةَ أو مناما

بنيتَ قضية الأوطان منها ... وصيَّرتَ (الجلاء) لها دِعاما

وله قصيدة فى ذكراه سنة ١٩٢٦ قال:

لم يمُتْ من له أثرْ ... وحياةٌ من السيَرْ

أدعه غائبًا وإن ... بعدت غاية السفرْ

آيب الفضل كلما ... آبت الشمس والقمر[١]

رُبَّ نور مُتَمِّم ... قد أتانا من الحُفَر

إنما الميْت من مشى ... ميِّتَ الخُبْرِ والخَبر

من إذا عاش لم يُفِد ... وإذا مات لم يضر

ليس فى الجاه والغنى ... منه ظلٌّ ولا ثمر

قَبُحَ العزُّ فى القصـ ... ـور إذا ذَلَّت القُصُر

* * *

أعْوزَ الحقّ ذائدٌ ... وإلى (مصطفى) افتقر

وتمنّت جياضه ... هبّةَ الصارم الذكر

الذى يُنفذ المُدى ... والذى يركب الخطر

أيها القوم عَظِّموا ... واضع الأسّ والحجر

أذكروا الخُطبةَ التى ... هى من آية الكبر

لم يرَ الناس قبلها ... منبرًا تحت محتضر

لستُ أنسى لواءَه ... وهو يمشى إلى الظُّفر

حَشَرَ الناسَ تحتَه ... زُمَرًا إثْرُها زمر

وترى الحقَّ حولَه ... لاترى البيض والسُّمر[٢]

كلما راح أو غدا ... نفخ الروح فى الصور

* * *

(١) أى يعود للفقيد فضل وتتجدد ذكراه كلما آبت الشمس وعاد القمر

(٢) البيض: السيوف والسمر الرماح.

يـاأخا النَّفْس فى الصبـا | لـذة الـروح فى الصِّغَـر
وخـليــلا ذَخَـرتُـه | لم يُـغَـوَّم بمـدّخـر
حـال بـيـنى وبـيـنـه | فى فُجـاءاتـه القـدَر
كـيـف أجـزِى مـودَّةً | لم يَشُبْ صفْـوها كـدر
غـيرَ دمـع أقـولـه | قَـلَّ فى الشـأن أوكـثُر
وفــؤادٍ مـعـلَّلٍ | بـالخيـالات والـذكـر
لم ينم عنـك سـاعـةً | فى الأحـاديث والسَّمـر
قـم تـر القـومَ كـتلة | مثـل مَلْمـومـة الصخـر
جَـدّدوا أُلفـةَ الهـوى | والإخـاء الـذى شـطرِ
لـيس لـلخُـلف بيـنهـم | أو لأسـبـابـه أثـر
أَلَّـفـتـهـم روائـحٌ | غـاديـاتٌ من الغِـير
وصَـحـوا من منـوَّم | وأفـاقـوا من الخَـدر[1]
أقـبلوا نـحـو حَقِّـهـم | مـا لهـم غيـره وطـر
جَـعـلوه خـلّيّـة | شـرعـوا دونها الإبـر
وتـواصَـوْا بـخـطّةٍ | وتـداعـوا لمـؤتمـر
وقـصـارى أولى النهـى | يتـلاقَـون فى الفكـر
آذنـونـا بمـوقـفٍ | من جـلال ومن خـطر
نسمـع الـليثَ عـنـده | دون آجـامـه زأر
قـل لهـم فى نـديِّهم[2] | مصـر بـالبـاب تنتـظر

شوقي وفريد

لم تكن صلة شوقى بفريد كصلته بمصطفى، وعندما تولى فريد زعامة الحركة الوطنية سنة ١٩٠٨، بعد وفاة الزعيم الأول، كانت سياسة (الوفاق) بين الخديوى عباس الثانى والمعتمد البريطانى قد ثبتت قواعدها، وتنكر عباس للحركة الوطنية، ومع صلة شوقى بالقصر واشتداد الجفاء بين الخديوى وفريد، فإنه لم يتعرض له بسوء فى أى قصيدة له، وكان هذا منه نعم الوفاء للوطنية.

---

(١) الخدر الكسل.
(٢) يريد البرلمان.

وبدا حب شوقي للحزب الوطني وتأييده له من رثائه لعمر بك لطفى أحد أقطاب هذا الحزب ومؤسس التعاون فى مصر، فقد نظم سنة ١٩١١ فى رثائه قصيدة بديعة قال فى مطلعها:

قِفُوا بالقُبور نُسائِلْ عمرْ ... متى كانت الأرضُ مَثْوَى القمرْ؟

وفيها يقول:

«نِقَاباتُكَ» الغُرُّ تبكى عليكَ ... ويبكى عليك النَّدِىُّ الأغرّ[1]

ويبكى التعاونُ من سَنَّهُ ... عشيَّة ليس له من أثر

ويبكيكَ (حِزبٌ) تخيَّرتَه ... شريفُ المَرَامِ شريفُ الوطَر

ويبكى الأولَى أنت عَلَّمْتَهُمْ ... وأنت غرستَ فكانوا الثمر

رثاؤه لفريد

ولما توفى فريد سنة ١٩١٩ رثاه بقصيدة من عيون شعره، ظهر فيها تقديره للزعيم الشهيد، قال:

كلُّ حَيٍّ على المنية غادى ... تتوالى الزكابُ والموتُ حادى[2]

ذهبَ الأوَّلون قَرْنًا فقرنًا ... لم يَدُم حاضرٌ ولم يَبق بادى[3]

هل ترى منهمو وتسمعُ عنهم ... غير باقى مآثرٍ وأ يادى؟

* * *

كُرَة الأرض كم رَمَتْ صولجانا ... وطَوَتْ من ملاعب وجياد

والغُبارُ الذى على صفْحَتَيْها ... دَورانُ الرحى على الأجساد

كلُّ قبرٍ من جانب القفر يبدو ... علم الحق أو منار المعاد

وزمام الركاب من كلِّ فَجٍّ ... ومحطُّ الرِّحالِ من كل وادى

تطلع الشمسُ حيث تطلع نضجًا ... وتُنحىُّ كمِنْجَل الحصَّاد

إلى أن قال:

أسألتم حقيبةَ الموت ماذا ... تحتها من ذَخيرةٍ وعتاد؟

---

(١) نادى المدارس العليا وكان عمر لطفى رئيسه.

(٢) الحادى هو الذى يغنى للقافلة فتنشط فى سيرها.

(٣) الحاضر ساكن الحضر، والبادى ساكن البادية.

إن فى طيها إمامَ صُفوف ... وحواريّ نِيَّةٍ واعتقاد
لو تركتم لها الزمام لجاءت ... وحدَها بالشهيد دارَ الرشاد
انظروا هل تَروْن فى الجمع (مصرا) ... حاسرًا قد تجلَّلت بسواد
تاجُ أحرارها غُلامًا وكهلًا ... راعها أن تراه فى الأصفاد
وسِّدوه الترابَ نِضْوَ سِفارٍ ... فى سبيل الحقوق نِضو سُهاد
واركِزوه إلى القيامة رُمْحًا ... كان للحشد والنَّدى والطِّراد
وأقِرُّوه فى الصفائح عَضْبًا ... لم يَدِنْ بالقرار فى الأغماد

وقال مشيرًا إلى موته فى منفاه:

نازحَ الدار أقصرَ اليومَ بَيْنٌ ... وانتهت محنةٌ وكفَّت عوادى
وكفى الموت ما تخاف وترجو ... وشفى من أصادقٍ وأعادى
من دنا أو نأى فإن المنايا ... غايةُ القرب أو قُصارى البُعاد
سِرْ مع العمر حيث شئت تؤوبا ... وافقد العمر لا تؤبْ من رُقاد
ذلك الحقُّ لا الذى زعمُوه ... فى قديمٍ من الحديث مُعاد
وجرى لفظهُ على ألْسنُ النا ... س ومعناه فى صدور الصِّعاد
يتحلَّى به القوىُّ ولكن ... كتحلِّى القتال باسم الجهاد

* * *

هل ترى كالتراب أحسنَ عدلا ... وقياما على حقوق العباد
نزل الأقوياء فيه على الضَّعفى وحلَّ الملوكُ بالزُّهاد
صفحاتٌ نقيةٌ كقلوب الرسل مغسولة من الأحقاد
قم إن اسْطعت من سريرك وانظر ... سِرَّ ذاك اللواء فى الأجناد
هل تراهم وأنت موفٍ عليهم ... غير بُنيان ألفة واتحاد
أمةٌ هيئت وقومٌ لخير الدهر أو شرِّه على استعداد
مصرُ تبكى عليكَ فى كل خدرٍ ... وتصوغُ الرثاءَ فى كل ناد
لو تأملتها لراعك منها ... غُرَّةُ البرِّ فى سواد الحداد
منتهى ما به البلادُ تُعزَّى ... رجلٌ مات فى سبيل البلاد
أمَّهاتٌ لا تحمل الشَّكل إلَّا ... للنجيب الجرىء فى الأولاد

(كفـريـدٍ) وأين ثـانى فـريـدٍ ... أىُّ ثـانٍ لـواحـد الآحـاد؟
الـرئيس الجـوادِ فيـها علمنـا ... وبلونـا وابن الـرئيس الجـواد
أكَلَتْ مـالَـه الحـقـوقُ وأبـلى ... جسمَـه عـائـدٌ من الهم عـادى
لـك فى ذلـك الضّنى رِقّـةُ الـرُّو ... ح وخَـفْـقُ الـفـؤاد فى الـعُـوَّاد
عِلّةٌ لم تَـصِـل فـراشَـكَ حتى ... وَطِئـتْ فى الـقـلوب والأكـبـاد
صـادفت قـرحـة يـلائمهـا الصـــبر وتـأبى عليـه غـيرَ الفسـاد
وَعَـدَ الـدهـرُ أن يكـون ضِمـادا ... لـك فيهـا فكـان شـر ضمـاد
وإذا الـروح لم تنفِّسْ عـن الجِسْـــم (فبقـراط)(١) نـافـخٌ فى رَمـاد

قصيدته فى ذكراه

وفى سنة ١٩٢٤ نظم قصيدة فى ذكراه الخامسة، وهى من أبلغ شعره ومن أروع ما قيل فى تمجيد فريد ووطنيته وتضحياته، قال:

نُجـدِّد ذكـرى عهـدكم ونعيـدُ ... ونُـدْنى خيالَ الأمس وهـو بعيـدُ
وللناس فى الماضى بصائرُ يهتدى ... عليهن غـاو أو يسـير رشيـد
إذا ألْميت لم يكرمُ بأرض ثناؤه ... تحـيرٌ فيهـا الحىّ كيف يســود
ونحن قضـاة الحق نرعى قـديمه ... وإن لم يفتنا فى الحقوق جـديد
ونعلم أنـا فى البنـاء دعـائـم ... وأنتم أسـاسٌ فى البنـاء وطيـد
فـريدُ ضحـايـانـا كـثيرٌ وإنمـا ... مجـال الضحايـا أنت فيه فـريد
فما خَلْفَ ما كابدتَ فى الحق غايةٌ ... ولا فـوق ما قـاسيت فيه مـزيـدُ
تغرَّبتَ عشرًا أنت فيهن بـائسٌ ... وأنت بـآفـاق البـلاد شـريـد
تجـوع ببلدان وتَعـرَى بغيـرهـا ... وتـرزح تحت الداء وهـو عتيـد
ألا فى سبيـل الله والحقِّ طارفٌ ... من المـال لم تبخـل بـه وتليـد
وَجُودك بعد المال بالنفس صابرا ... إذا جـزع المحضور وهـو يجـود

* * *

(١) بقراط هو أبو الطب.

فلا زلت تمثالا من الحق خالصًا … على سِرِّه نبنى العلا ونشيد
يعلِّم نشءَ الحىِّ كيف هوى الحمى … وكيف يحامى دونه ويذود

حبه وتقديسه للوطن

إن حب شوقى للوطن يتمشى فى معظم قصائده، مما تراه فى ديوانه، وقد اقتبسنا طرفا منها، وله فوق ذلك أبيات بلغ فيها حبه للوطن درجة التقديس والعبادة مما يجعلها تسير مسرى الحكم والأمثال، على تعاقب السنين والأجيال، وتبعث فى نفوس المواطنين روح الإخلاص العميق للوطن والفناء فيه.

كقوله سنة ١٩٢٠ بعد عودته إلى مصر من منفاه:

وياوطنى لقيتُك بعد يأسٍ … كأنى قد لقيتُ بك الشبابا
ولو أنى دُعيتُ[١] لكنتَ دينى … عليه أقابل الحَتْم المجابا[٢]
أدير إليك قبل البيْت وجهى … إذا فُهتُ الشهادةَ والمتابا

ففى هذه الأبيات يقدم شوقى الوطن على الدين ويدير وجهه إلى الوطن قبل الكعبة عندما يلقى ربه.

وقوله سنة ١٩٢٤ مخاطبًا الشباب:

وَجْهُ الكنانة ليس يُغضب ربَّكم … أن تجعلوه كوجهه معبودا
ولُّوا إليه فى الدروس وجوهكم … وإذا فرغتم. فاعبدوه هجودا
إن الذى قَسَمَ البلادَ حباكمو … بلدًا كأوطان النجوم مجيدا
قد كان–والدنيا لُحودٌ كلها– … للعبقرية والفنون مُهودا

وقوله وهو فى منفاه:

وطنى لو شغلتُ بالخلد عنه … نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

أى أنه لو شغل عن الوطن بجنة الخلد وسكنها، لبقيت نفسه تهفو إلى الوطن وتنزع إليه.

وقوله من قصيدته سنة ١٩٢٦ فى نكبة دمشق من الاستعمار الفرنسى:

---

(١) أى دعيت إلى الموت.
(٢) الحتم المجاب هو الموت.

وللأوطان فى دَم كل حُرٍّ يدٌ سَلَفَتْ ودينٌ مستحقٌّ
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرَّجةٍ تُدقّ

وقوله:

لا تلوماها أليست حرة وهوى الأوطان للأحرار دين

وقال سنة ١٩٠٤:

أحبك مصر من أعماق قلبى وحبك فى صميم القلب نام

وبلغ حبه لمصر أن جعلها كعبة أشعاره قال:

وإنى لَغِرِّيد هذا البطاح تغَذَّى جَناها وسلسالَها
تَرَى مصرَ كعبةَ أشعاره وكلٌّ معلقة قالَها

ثورة سنة ١٩١٩

قال من قصيدة له بعنوان (الحرية الحمراء) يمجد ثورة ١٩١٩:

يومُ البطولة لو شهدتُ نهارَه لنظمتُ للأجْيال ما لم يُنْظَم
غُبنَتْ حقيقتُه وفات جمالُها باعَ الخيالِ العبقرىِّ الملهَمِ
لولا عوادى النفى أو عقبانه والنفىُ حالٌ من عذاب جهنم
لجمعتُ ألوانَ الحوادث صورةً[1] مثّلت فيها صورة المستسلم
وحكيتُ فيها النيلَ كاظمَ غيظه وحكيتُه متَغَيِّظًا لم يكظم
دَعَت البلادَ إلى الغمار فغامرت وطنيةٌ بمثقف ومعلّم
ثارت على الحامى العتيد وأقسمت بسوَاه جَلَّ جلالُه لا تحتمى

* * *

يومَ النضالِ كَسَتْكَ لونَ جمالها حُرِّيةٌ صَبَغتْ أديمَك بالدم

(١) يشير إلى أنه كان منفاه حين شبت الثورة.

تعلقه بالجلاء

ويبدو فى شعره مبلغ تعلقه بالجلاء، وإيمانه به، وهذا ولا ريب من فيض الوطنية التى يستلهم منها شعره.

قال فى سنة ١٩٢٤ يخاطب الشباب الذين أفرج عنهم بعد الحكم عليهم فى قضية المؤامرة الكبرى:

لَمَّا بَنَى اللّهُ القضيةَ[1] منهمو ... قامت على الحقِّ المبينِ عَمُودا
جادوا بأيام الشبابِ وأوشكوا ... يتجاوزون إلى الحياةِ الجودا
طلبوا (الجلاءَ) على الجهادِ مَثُوبةً ... لم يطلبوا أجْرَ الجهاد زهيدا
والله: ما دون الجلاءِ ويومِهِ ... يومٌ تُسمِّيه الكِنانةُ عيدا
وَجَد السجينُ يدًا تُحطِّمُ قَيْدَهُ ... من ذا يُحَطِّمُ للبلاد قيودًا؟

وحدة وادى النيل

وقال فى يولية سنة ١٩٢٤ عن وحدة وادى النيل من قصيدة له فى استنكار حادث الاعتداء على المرحوم سعد زغلول ونجاته من محاولة اغتياله:

ولن نرضى أن تُقَدَّ القناةُ ... ويُبْتَرَ من مصر سودانُها
فمصرُ الرياضُ وسودانُها ... عيون الرياض وخلجانُها
وما هو ماءٌ ولكنه ... وريدُ الحياة وشِرْيانُها
تتمِّمُ مصرَ ينابيعُهُ ... كما تَمّم العينَ إنسانُها
وأهلوه منذ جرى عَذْبُه ... عشيرةُ مصر وجيرانُها

مشروع ملنر

هو مشروع المعاهدة الذى انتهت إليه مفاوضات سعد - ملنر سنة ١٩٢٠ ويحمل فى طياته عناصر الحماية، وكان ممن عارضوه المرحوم الدكتور عبد الحميد أبو هيف، فلما توفى سنة ١٩٢٦ رثاه شوقى فى قصيدة أشار فيها إلى هذه المعارضة وأيدها، قال:

---

(١) يقصد القضية الوطنية.

بـالأمس كـانت لابن هيف غَضْبَـةٌ   لـلحق نـذكـرهـا يـدًا بـيضـاءَ
مشت البـلاد إلى رسـالـة (ملنـر)   وتحـفـزت أرضًـا لهـا وسـماء
فلمحتُ أعـرجُ فى زوايـا الحق لم   أعـلمْ عـليـه ذِمَّـةً عـرجـاء[1]
ارتـدت العـاهـاتُ عن أخـلاقـه   لـسمّـوهـنّ وحلّت الأعـضـاء
لمـا رأى (التقريـر) ينفث سمّـه   سبق الحـواة فـأخـرج الـرقـطاء[2]
هتـك الحمـايـةَ والـرجـال وراءهـا   يـتلمسـون لهـا الستـور ريـاءَ

تصريح ٢٨ فبراير

وقال عن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢[3].

ربحت من (التصريح) أن قيـودها   قـد صرن من ذهبٍ وكنَّ حـديـدًا
أومـا ترون عـلى (المنابـع)[4]عُـدَّةً   لا تنجلى وعلى (الضفـاف) عديـدًا
يـافتيةَ النيـل السعيد خـذوا المدى   واستـأنفـوا نَفسَ الجهـاد مـديـدًا

يدعو إلى التضحية ويهاجم الاستعمار

قال يدعو إلى الجد والتضحية:

والمـرء ليس بصـادقٍ فى قـولـه   حتى يؤيـد قـولَـه بِفعَـالِـه
والشعب إن رام الحيـاة كبيـرةً   خـاضَ الغِمار دمـا إلى آمـالـه

ومن قصيدته سنة ١٩٢٦ فى نكبة دمشق من الاستعمار الفرنسى:

لَحَـاهـا اللّهُ أنبـاء تـوالتْ   على سمع الـولىّ بما يشُقُّ[5]
يفصّلهـا إلى الدنيـا بـريـدٌ   ويُجْملهـا إلى الآفـاق بَـرْقُ

---

(١) أصيب المرحوم أبو هيف بمرض بترت فيه ساقه وكان يمشى على ساق صناعية.

(٢) الرقطاء. الحية.

(٣) هو التصريح الذى أعلنته بريطانيا فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وأقرت فيه بانتهاء الحماية على مصر وبالاعتراف باستقلالها واحتفظت فيه بتولى أمور أربعة تعصف بجوهر الاستقلال وهى (١) تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية فى مصر (٢) الدفاع عن مصر (٣) حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات (٤) السودان.

(٤) منابع النيل بالسودان. وعدة أى جنودا. والضفاف قناة السويس.

(٥) الولى أى المحب والصديق.

وللمستعمـرين وإن ألانـوا قلوبٌ كـالحجـارة لا تَـرِقُّ
رماك بطيشه ورمى فرنسـا أخو حربٍ بـه صَلَفٌ وحُمق
إذا مـا جـاء طُـلَّاب حقٍّ يقول عصابةٌ خرجوا وشَقُّوا
دمُ الثـوار تعـرفه فـرنسـا وتـعـلم أنـه نـورٌ وحـقُّ

إلى أن قال:

نـصحـتُ ونحـن مختـلفـون دارًا ولـكـن كُـلُّنـا في الهمِّ شَـرْق
ويجـمـعنـا إذا اخـتـلفت بـلادٌ بـيـانٌ غـيرُ مُخـتـلفٍ ونُـطْقُ
وقـفـتـم بـين مـوت أو حـيـاة فـإن رمتم نعيمَ الـدهر فـاشْقـوا
ولـلأوطـان في دم كـل حـرٍّ يـدٌ سـلفـت ودَيْـنٌ مسـتـحـقّ
ومن يَسقى ويَشْـرَبُ بـالمنـايـا إذا الأحـرار لم يُسْقَـوا ويَسْقُـوا؟
ولا يبنى المـمـالـكَ كـالضحـايـا ولا يُـدْنى الحـقـوق ولا يحـق
فـفي الـقتـلى لأجيـالٍ حيـاةٌ وفي الأسـرى فِـدًى لهُمُ وعتْـقُ
ولـلحـريـة الحـمـراء بـابٌ بـكـل يـدٍ مضـرَّجـة يُـدَقُّ

يشفق على الوطن

من قصيدة له في استقبال عيد الفطر يشفق على مصر ويقول أن لا عيد حتى تتحقق أهدافها.

وطني أَسفتُ عليكَ في عيـد المَـلَا وبـكيـتُ مـن وَجْـد ومـن إشـفـاق
لا عـيـدَ لى حـتى أراكَ بـأمَّـةٍ شَـمَّاء راويـة مـن الأخـلاق
ذهب الكـرامُ الجـامعـون لأمـرهمْ وبـقيت في خَلْف بـغـير خـلاق[1]
أيـظلّ بـعـضُـهـم لـبـعض خـاذلا ويـقـالُ شَـعـبٌ في الحـضـارة راق؟
وإذا أراد الله إشـقـاء الـقُـرىَ جـعـلَ الهـداةَ بهـا دُعـاةَ شِقـاق

يدعو إلى الأخلاق

إن بيته المشهور عن الأخلاق هو ديوان من الشعر تتجلى فيه الحكمة الأزلية في أن الأخلاق

(١) الخلاق: النصيب الوافر من الخير.

هى أساس حياة الأمم وسبيلها إلى العظمة والمجد:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت … فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقد أكد هذا المعنى الرائع فى غير موضع.

قال:

وإذا أصيب القومُ فى أخلاقهم … فأَقِمْ عليهم مأتمًا وعويلا

وقال:

وما السلاحُ لقومٍ كلُّ عُدَّتهم … حتى يكونوا من الأخلاق فى أُهب

وقال أيضًا:

على الأخلاق خُطُّوا الملكَ وابنوا … فليس وراءها للعز رُكْنُ

وقوله:

المجد والشرفُ الرفيعُ صحيفةٌ … جُعلت لها الأخلاقُ كالعُنوان

وقوله:

وإذا ما أصابَ بُنْيانَ قومٍ … وَهْىُ خُلْقٍ فإنه وَهْىُ أُسِّ

وقوله:

كذا الناس بالأخلاق يَبْقَى صلاحُهم … ويذهبُ عنهم أمرهُم حين تَذْهَبُ

وقوله:

ولقد يُقام من السيوف وليس مِنْ … عَثَراتِ أخلاقِ الشعوب قيامُ

ومن قصيدته (نهج البردة):

صلاحُ أمْرِك للأخلاق مَرْجِعُه … فقوِّم النفسَ بالأخلاق تَسْتَقِمِ

والنفسُ من خيرها فى خير عافية … والنفس من شرها فى مرتعٍ وَخِم

وقوله:

وكان جنابُهم فيها مَهيبا … وَللأخلاق أجدرُ أن تُهابا

وقال فى هذا المعنى من قصيدة له سنة ١٩٢٠:

وليس بعامر بنيانُ قومٍ … إذا أخلاقهم كانت خرابا

وقوله:

ولا المصائب إذ يُرمَى الرجالُ بها ... بقاتلاتٍ إذا الأخلاقُ لم تُصَبِ

يدعو إلى الوحدة الوطنية

من قصيدة له فى رثاء بطرس غالى سنة ١٩١٠:

الحقُّ أبلجُ كالصباح للناظرِ ... لو أن قومًا حَكَّموا الأحلاما
أعَهِدتَنا والقِبط إلا أمةً ... للأرض واحدةً تروم مراما
نُعْلِى تعاليم المسيح لأجلهم ... ويوقِّرون لأجلنا الإسلاما
الدينُ للديَّان جلَّ جلاله ... لو شاء ربك وحَّدَ الأقواما
ياقومِ بانَ الرشدُ فاقْضوا ما جرى ... وخذوا الحقيقة وانبذوا الأوهاما
هذى ربوعُكُم وتلك ربوعنا ... متقابلين نعالج الأياما
هذه قبوركم وتلك قبورنا ... متجاورين جماجمًا وعظاما
فَبِحرْمة الموتى وواجب حقهم ... عيشوا كما يقضى الجوارُ كراما

وقال من قصيدة أخرى له فى هذا المعنى سنة ١٩١٠:

تعالَوْا عسى نطوى الجفاءَ وعهدَه ... وننبذ أسباب الشقاق نواحيا
ألم تك (مصرٌ) مَهْدَنا ثم لحدنا ... وبينهما كانت لكلٍ مغانيا
ألم تك من قبل (المسيح بن مريم) ... و (موسى) و (طه) تعبد النيل جاريا
فهلا تساقَيْنا على حُبه الهوى ... وهلَّا فديناه ضفافًا ووايا
ومازال منكم أهل ودّ ورحمة ... وفى المسلمين الخيرُ ما زال باقيا
فلا يَثْنكم عن ذمة قتلُ (بطرس) ... فقِدْمًا عرفنا القتل فى الناس فاشيا

القوة فى الاتحاد

صوت الشعوب من الزئير مجمعا ... فإذا تفرق كان بعضَ نباح

يستحث الشباب على العلم والجاد

قال مخاطبًا الشباب فى قصيدة نظمها سنة ١٩٢٤:

يا شباب الغد وأبناى الفدى ... لكُم أكرِمْ وأَعززْ بالفداء
هل يمد الله لى العيش عسى ... أن أراكم فى الفريق السعداء
وأرى تاجكُم فوق السها ... ورأى عرشكُم فوق ذُكاء
من رآكم قال مصر استرجعت ... عزها فى عهد (خوفو) و (مناء)
أمة للخلد ما تبنى إذا ... ما بنى الناسُ جميعا للعفاء
إنما مصر إليكم وبكم ... وحقوق البر أولى بالقضاء
عصركم حر ومستقبلكم ... فى يمين الله خير الأمناء
لا تقولوا حطّنا الدهر فما ... هو إلاّ من خيال الشعراء
هل علمتم أمةً فى جهلها ... ظهرت فى المجد حسناء الرداء
باطن الأمة من ظاهرها ... إنما السائل من لون الإناء
فخذوا العلم على أعلامه ... واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واقرأوا تاريخكم واحتفظوا ... بفصيح جاءكم من فصحاء
أنزل الله على ألسنهم ... وحيْه فى أعصر الوحى الوضاء
واحكموا الدنيا بسلطان فما ... خُلقت نضرتها للضعفاء
واطلبوا المجد على الأرض فإن ... هى ضاقت فاطلبوه فى السماء!

يدعو إلى إنكار الذات

وقال مخاطبًا الشباب فى قصيدة قالها سنة ١٩٢٤.

قالوا أتنظم للشباب تحيّة ... تبقى على جيد الزمان قصيدا
قلت الشباب أتم عقد مآثر ... من أن أزيدهمو الثناء عقودا
قبلت جهودهم البلاد وقبّلتْ ... تاجا على هاماتهم معقودا
خرجوا فما مدوا خناجرهم ولا ... منّوا على أوطانهم مجهودا
خفى الأساس عن العيون تواضعا ... من بعد ما رفع البناء مشيدا

حكمه وعظاته

تنساب فى شعر شوقى الحكم والعظات يخاطب بها مواطنيه ويبصرهم بعبر التاريخ وعظات الحوادث، مما نذكر طرفًا منه.

جلال الخالدين

قال عن جلال الملوك وأنه إلى زوال ولا يبقى إلا جلال الخلود:

جــلالُ الملك أيــامٌ وتمضى ... ولا يمضى جـلال الخـالـدينـا

الخلود للعمل الصالح

وقال سنة ١٩٢٣ عن الخلود وأنه للعمل الصالح:

من سَــرَّه أن لا يموتَ فبــالعُـلَى ... خَلُدَ الرجـال وبـالفعـال النَّــابـهِ

مـا مـات من حـاز الثَّـرَى آثـارَه ... واستــولت الـدنيــا عـلى آدابــه

قــل للمـدلّ بمــا لـه وبجــاهــه ... وبمــا يُحـلّ النــاسُ من أنسـابــه

هــذا الأديم يَصُــدّ عن حُضَّــاره ... وينـام مـلء الجفن عــلى غُيّـابــه

إلا فــتىً يمشــى عـليــه مجــدِّدًا ... ديبــاجتيــه معـمّــرا لخــرابــه

العدل أساس الملك

وقال فى العدل:

والعــدل فى الـدولاب أسٌّ ثــابت ... يُفنى الــزمــانَ وينقــذ الأجيــالا

فلسفة الحياة

وقال من قصيدته فى رثاء مصطفى كامل:

دقَّــاتُ قلب المـرء قــائلة لـه ... إن الحــيـــاة دقــائـق وثــوان

ومن قوله فى ذكرى كارنارفون مكتشف كنوز توت عنخ آمون:

فى المـوت ما أعيـا[1] وفى أسبـابـه ... كـل امـرىء رَهْنٌ بِــطْىٍّ كتـابــه

(١) ما أعياز أى ما أعجز عن إدراك حقيقته. ورهن بطى كتابه، أى باق فى الحياة حتى ينتهى أجله.

إن نـام عنـك فكـل طبٍّ نـافـع	أو لم ينم فـالـطب من أذنـابـه

إلى أن قال منوهًا بفضل كارنارفون فى اكتشافاته الأثرية:

أفْضَى إلى خَتم الـزمـان ففَضّـهُ	وحَبَـا إلى التاريـخ فى محرابـه
وطوى القرونَ القهقرى حتى أتى	فـرعـونَ بـين طَعامه وشرابـه

ومن قوله فى العظة والاعتبار حين سقطت أدرنة وكانت من أمهات المدن الإسلامية فى مقدونية وغلبها البلغار سنة ١٩١٢:

يـا أخت أنـدلس عليـك سـلامُ	هـوت الخلافـة عنـك والإسـلامُ

إلى أن قال يندد بسياسة الترك:

رفعوا على السيفِ البنـاءَ فلم يدم	مـا للبنـاءِ عـلى السيـوف دوام
أبقى الممالـكِ ما المعارفُ أُسّـه	والـعـدلُ فيـه حـائطٌ ودعـام
إنْ الـغـرورَ إذا تملَّكَ أمـةً	كـالـزهـرِ يُخفى المـوتَ وهـو زؤام

لا حقّ للضعيف

وقال سنة ١٩٢٣ أثناء انعقاد مؤتمر لوزان مشيرًا إلى صلف الإنجليز مع مصر لأنها لم يكن لها من القوة ما تسترد به حقها:

أَتعلم أنهم صلفـوا وتـاهـوا	وصدّوا الباب عنـا موصدينا؟
ولـو كنـا نجـرُّ هنـاك سيفـا	وجـدنـا عنـدهم عـطفًا ولينـا
سيقضى (كـرزن) بالأمـر عنـا	وحـاجاتُ (الكنـانةِ) مـا قضينا

وقال فى هذا المعنى:

يـا طـيرُ والأمثـالُ تُضـ	ـرب لِـلَّبيـب الأمثـل
دُنـيـاك من عـاداتهـا	ألا تـكـون لأعـزل

الحكم للشعوب لا للمستبدين

قال سنة ١٨٩٤ فى أول قصيدة له فى ديوانه ينبه الملوك إلى قوة الشعوب ويدعوهم إلى النزول على حكمها:

إن ملكتَ النفوس فابغ رضاها ... فلها ثورةٌ وفيها مضاءُ
يسكن الوحش للوثوب من الأسـ ... ـر فكيف الخلائق العقلاءُ؟
يحسب الظالمون أن سيسودو ... ن وأن لن يؤيد الضعفاء
والليالى جوائرٌ مثلما جا ... روا وللدهر مثلهم أهواء

وقال سنة ١٩٢٢ يبشر بحكم الشعوب وزوال حكم الفرد:

زمان الفرد يا فرعون وَلّى ... ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض ... على حكم الرعية نازلينا

وقال سنة ١٩٢٣ يندد بالمستبدين:

المستبدّ يُطاق فى ناووسه ... لاتحت تاجيه وفوق وثابه[١]
والفرد يؤمن شره فى قبره ... كالسيف نام الشرُّ خلف قِرابه[٢]

وقال فى هذا المعنى يخاطب توت عنخ آمون سنة ١٩٢٥:

قسما بمن يحيى العظا ... م ولاأزيدك من يمينْ
لو كان من سفر أيا ... بك أمس أو فتح مبين
لرأيت جيلا غير جيـ ... ـلك بالجبابر لايدين
ورأيتَ محكومين قد ... نصبوا وردّوا الحاكمين[٣]
رُوحُ الزمان ونَظْمُه ... وسبيله فى الآخرين
ان الزمان وأهله ... فرغا من الفرد اللعين
فإذا رأيت مشايخا ... أوفتية لك ساجدين
لاقِ الزمانَ تجدهمو ... عن ركبه متخلّفين
هم فى الأواخر مولدا ... وعقولُهم فى الأولين

الشعب قد يُخْدَع

قال فى مسرحية (مصرع كليوباترة) على لسان (حابى) يخاطب (ديون)[٤]:

---

(١) الناووس. القبر. والوثاب: السرير.
(٢) قراب السيف: غمده.
(٣) نصبوا وردوا: أى ولوا وعزلوا الحاكمين.
(٤) حابى وديون: من أشخاص الرواية وكلاهما من أمناء مكتبة قصر كليوباترة.

إسمَع الشعب ديونُ كيف يُوحون إليه
ملأ الجوَّ هُتافا بحياتْ قاتليْه
أثّر البهتانُ فيه وانْطلَى الزُّورُ عليه
يا لَهُ من بَبَّغاءَ عقلُه فى أُذُنَيْه

الحياة الدستورية السليمة

قال عن الدستور:

شرٌّ الحكومة أن يساس بواحد فى الملك أقوامٌ عداد رماله

وقال سنة ١٩٢٤ من قصيدة له عن (الأزهر):

وتَفيَّأوا الدستور تحتَ ظلالِه كَنَفًا أهشَّ من الرياض وأنضرا
لا تجعلوه هوًى وخُلْفًا بينكم ومَجَرَّ دنْيا للنفوس ومَتْجَرا
اليوم صَرَّحت الأمور فأظهرتْ ما كان من خَدع السياسة مضمرا
قد كان وجْهُ الرأى أن نبقى يدًا ونرى وراء جنودها إنجلْترا
فإذا أتتنا بالصفوف كثيرةً جئنا بصفٍّ واحد لن يُكْسَرا

وقال سنة ١٩٢٦ من قصيدة له فى عيد الجهاد:

وبالدستور وهو لنَا حياةٌ نرى فيه السلامةَ والفلاحا
أخذناه على المُهج الغَوَالى ولم نأخذه نَيْلًا مُسْتَماحا
بَنَيْنا فيه من دَمْعٍ رُواقا ومن دم كلِّ نابتةٍ جنَاحا

وقال سنة ١٩٢٧ عن الحياة الدستورية السليمة:

إذا سَلِمَ الدستور هانَ الذى مَضَى وهان من الأحداث ما كان آتيا
الأكل ذنب لليالى لأجله سَدَلْنا عليه صَفْحَنا والتَّناسيا

وقال سنة ١٩٢٦ حينما اجتمع المؤتمر الوطنى يوم ١٩ فبراير من تلك السنة وائتلفت فيه الأحزاب يحيى الدستور لمناسبة عودته بعد توحيد الصفوف:

صَرْحٌ[1] عل الوادى المباركِ ضاحى متظاهرُ الأعلام والأوضاحِ

---

(١) يريد الدستور.

ضـافى الجـلالـة كـالعَتيق مفصَّـلٌ ساحـاتِ فضـل فى رِحابِ سَمـاح
وكـأن رَفْـرَفَـه رواق مـن ضُحَـى وكـأن حـائـطَه عـمـود صَبَـاح
الحقُّ خَلْف جنـاحٍ استـذرى[1] بـه ومـراشِـدُ السلطانِ خَلفَ جَنَـاح
هــو هيكـلُ الحـريـة القـانى، لـه مـا لِلهيـاكـلِ من فِـدىً وأضَـاح
يُبْنَى كـما تُبْنَى الخنـادقُ فى الـوغى تحتَ النبـالِ وصَـوْبها السحَّـاح
يَنْهـارُ الاستبـدادُ حـولَ عِـراصِـه مِثْـل انهيارِ الشـركِ حـول(صلاح)[2]
ويكبُّ طـاغـوتُ الأمـور لِوَجْهِـه متَحَـطِّمَ الأصـنـامِ والأشبـاح

***

هـو مـا بَنَى الأعْـزَالُ بـالـرَّاحـات أو هــو مـا بَنَى الشهـداءُ بـالأرواح
أخَـذَتْـهُ (مصـرُ) بكـل يـومٍ قـاتمٍ وَرْدِ الكـواكـب أحمَـر الإصْبـاح
هَبَّتْ سِمـاحًـا بـالحيـاةِ شَبـابُهـا والشِّيـب بـالأرْمَـاقِ غـيْرُ شِحَـاح
وَمَشَتْ إلى الخَيْـلِ الدوارعِ وانبَـرَتْ لـلظَّافـرِ الشـاكِى بـغـير سِـلَاح
وقـفـاتُ حـقٍّ لم تَـقِـفْـهـا أمـةٌ إلاَّ انْـثَـنَـتْ آمـالُهـا بِـنـجـاح
وإذا الشُّعـوبُ بَنَـوْا حقيقـة مُلكِهِمْ جـعـلوا المـآتـمَ حـائط الأفـراح

إلى أن قال فى توحيد الصفوف:

بُشـرى إلى الـوادى تَهُـزُّ نَبَـاتَـهُ هَـزَّ الـربيـعِ مَنَـاكب الأدواح
تسـرى مُلَمَّحَـةَ الحُجُـول عـلى الرُّبَى وتَسِيـلُ غُـرَّتُهـا بكـلِّ بِـطاح
التـامت الأحـزابُ بـعـد تَصـدُّعٍ وتـصـافـت الأقـلامُ بـعـد تَـلَاح
سُحبَتْ عـلى الأحقـاد أذيـالُ الهوى ومَشى عـلى الضغْن الـودادُ المـاحى
وجـرَتْ أحـاديثُ العتـاب كـأنها سَـمَـرٌ عـلى الأوتـاد والأقـداح
تـرْمى بِطرْفِـكَ فى المجـامع لا تـرى غـيرَ التعـانُـق واشتبـاك الـراح

إلى أن قال يصف تعطيل الدستور عام ١٩٢٥:

احتَـلَّ حِصن الحق غـيرُ جنـوده وتَكـالَبَتْ أيـدٍ عـلى المفتـاح

---

(١) استذرى: استظل.
(٢) صلاح: اسم لمكة.

ضَجَّت عـلى أبطالها تُكُناتُـه ... واستَوْحَشَت لِكُماتها النُّزَّاح
هُجِرَت أرائِكُه وعُطِّلَ عُودُه ... وخلا من الغادين والرواح
وعلاهُ نَسْجُ العنكبوت فزاده ... كالغارِ من شرفٍ وسمتِ صلاح

وقال ينصح الشباب:

قُلْ للبنين مقال صدق واقتصد ... ذرعُ الشباب يضيقُ بالنُّصَّاح
أنتمْ بنو اليوم العصيبِ نشأتمو ... فى قصف أنواءٍ وعصف رِياح
ورأيتمو الوطنَ المؤلف صخرَةً ... فى الحادثات وسَيْلها المجتاحِ
وشهدتمو صَدْعَ الصفوفِ وما جَنَى ... من أمر مُفْتاتٍ ونَهْيِ وَقاحِ
صوتُ الشعوب من الزئير مجمَّعًا ... فإذا تَفَرَّق كان بعضَ نُباح
أظمتكمو الأيامُ ثم سقتكمو ... رَنَقًا من الإحسان غيرَ قَراح
وإذا مُنِحتَ الخيرَ من مُتَكلِّفٍ ... طَهَرتْ عليه سجيَّةُ المناح
تركَتْكُمو مثلَ المَهِيضِ جناحُه ... لا فى الحبال ولا طريقُ سَراح
مَنْ صَيَّرَ الأغلالَ زُهْرَ قلائدٍ ... وكسا القيودَ محاسنَ الأوضاح
إن التى تبغونَ دون منالها ... طولُ اجتهادٍ واضطرادُ كِفاح
سيروا إليها بالأناةِ طويلةً ... إن الأناةَ سبيلُ كل فلاح
وخذوا بناء المُلْكِ عن دُستوركم ... إن الشِّراعَ مُثَقِّفُ الملَّاح

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٦ حين اجتمع برلمان الائتلاف:

الحق أبلجُ والكنانة حُرَّةٌ ... والعزُّ للدستور والإكبارُ
الأمر شورى لايعيثُ مسلَّط ... فيه ولا يطغَى به جبَّار
عهدٌ من الشورى الظليلة نضِّرت ... صاله واخضلَّت الأسحار
تجنى البلاد بها ثمارَ جهودها ... ولكل جهد فى الحياةِ ثمار
بنيان آباء مشوا بسلاحهم ... وبنين لم يجدوا السلاح فثاروا
فيه من التل المدرَّج حائطٌ ... ومن المشانق والسجون جدار
أبت التقيد بالهوى وتقيدت ... بالحق أو بالواجب الأحرار
فى مجلس لا مالُ مصر غنيمة ... فيه ولا سلطانُ مصر صَغَار
ما للرجال سوى المراشد منهجٌ ... فيه ولا غير الصلاح شعار

يتعاونون كأهل دارٍ زلزلت حتى تقر وتطمئن الدار
يجرون بالرفق الأمور وفلكها والريح دون الفلك والإعصارُ
ومع المجدّد بالأناة سلامةٌ ومع المجدّد بالجِماح عِثارُ

يدعو إلى انتخاب الأكفاء الشرفاء

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٢ قال فى مطلعها:

أُعدَّت الراحةُ الكبرى لمن تَعبا وفاز بالحق من لم يَأْلُهُ طلبا

إلى أن قال مشيرًا إلى الانتخابات البرلمانية:

دارُ النيابة قد صُفَّتْ أرائكها لا تُجْلسوا فوقها الأحجار والخُشُبا
اليومَ يا قَوْمُ إذْ تبنون مجْلِسَكم تبنون للعَقِب الأيامَ والحقبا

ومن قصيدته سنة ١٩٢٤ عن (الأزهر):

دار النيابة هُيِّئَت درجاتُها فلْيَرْقَ فى الدَّرَج الذوائب والذُّرَا
الصارخون إذا أسىء إلى الْحِمَى والذائدون إذا أُغِيرَ على الثَّرَى
لا الجاهلون العاجزون ولا الأُلى يمشون فى ذهب القيود تَبَخْترا

رُوَّاد الوطنية

قال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له فى رثاء المرحوم عبد اللطيف الصوفانى:

ألستَ من فئة سهامٍ سَنُّوا المحاماة والرِّماء
فَتاهُم بالشباب ضحَّى ما أعظم الذبحَ والفداء
ومات أبطالهم جياعا فى غير أوطانهم ظِماء
ولو أرادوا متاع دنيا لأدركوا الحكم والثراء
قضيةُ الحق منذ قامت لم تأل أركانَها بناء
تحذو على مصطفى وتبنى جيلا من الحق أقوياء
شرعتمو للشباب دِينا كدينهم بيِّنا سواء
لما أتيتم به جعلتم رأسَ تعاليمه (الجلاء)
جمعتم مصر ثم سِرْتم فكنتم الجمع واللواء
وما عرفتم لغير مصر وغير أحبابها ولاء

لم تمسحوا للعميد رأسا ولا نفضتم لـه حـذاء

وقال من قصيدة يرثى فيها المرحوم أمين الرافعى:

قيل غالٍ فى الرأى قلت هَبُوه قـد يكون الغلوّ رأيـا أصيلا
وقـديمـا بنى الغلو نفـوسـا وقـديمـا بنى الغـلوّ عقـولا
قـد فقـدنـا بـه بَقِّيـة رَهْطٍ أيقـظوا النيـل واديـا ونـزيـلا
حـركوه وكـان بـالأمس كـالكهـف حُـزونـا وكـالـرقيم سُهـولا
يـا أمين الحقـوق أدّيت حتى لم تَخُنْ مصرَ فى الحقوق فتيلا
ولـو اسـطعتْ زدتَ مصـر مـن الحقِ عـلى نيـلهـا المبـارك نيـلا
لستُ أنسـاك قـابعـا بـين درجيـك مكبًّـا عـليهـا مـشغـولا
قد تواريت فى الخشوع فخالو ك ضئيلا وما خلقتَ ضئيلا
سائل (الشعب) عنك و(العلم) الخفـاق أو سائل (اللواء) الظليلا
تُنْشِد الناس فى (القضية) لحنًا كـالحـوارى رتّـل الإنجيـلا
مـاضيا فى الجهـاد لم تتـأخـر تَزِن الصفَّ أو تقيم الرَّعيـلا
ما تبالى مضيت وحدك تحْمى حَـوْذَةَ الحق أم مضيتَ قبيلا

يدعو إلى النهضة الاقتصادية

قال سنة ١٩٢٠ من قصيدة له فى الاحتفال بإنشاء بنك مصر يدعو إلى الاكتتاب فى رأس مال البنك وينوه بفضل المال فى نهضة الأمم:

قل بالممـالك وانـظر دولة المـال واذكـر رجـالا أدالـوهـا بـإجمـال

إلى أن قال:

يـا طـالبـا لمعـالى الملك مجتهـدًا خذها من العلم أو خذها من المال
بالعلم والمال يبنى النـاس ملكهم لم يُبْنَ ملكٌ على جهل وإقـلال
سراة مصر عهدناكم إذا بُسطت يـد الدعـاء سراعـا غير بُخّـال
تبين الصدق من بين الأمور لكم فامضوا إلى الماء لا تلووا على الآل
لايذهب الدهر بين الترهات بكم وبـين زهـر من الأحـلام قتـال
هاتوا الرجال وهاتوا المال واحتشدوا رأيـا لـرأى ومثقـالا بمثقـال
هذا هو الحجـر الدرىّ بينكمـو فابنوا بنـاء قريش بيتهـا العالى

آمال مصر إليها عالما طمحت ... هل تبخلون على مصر بآمال

فابنوا على بركات الله واغتنموا ... ما هيأ الله من حظٍّ وإقبال

وقال فى قصيدة أخرى:

الملك بالمال والرجال ... لم يُبن ملك بغير مال

يحيى النهضة النسوية

كان مؤيدًا ونصيرًا لنهضة المرأة، ألقى هذه القصيدة سنة ١٩٢٤ فى جمع حافل من السيدات المصريات بمسرح حديقة الازبكية، وجعل عنوانها فى ديوانه (مصر تجدد مجدها بنسائها المتجددات) قال:

قُم حَيِّ هذى النِّيراتِ ... حيِّ الحِسَانَ الخيراتْ

واخفِض جَبينك هَيبةً ... للخُرَّد المتخفِّرات[1]

زَيْنَ المقاصِر والحِجَا ... لِ وزيْن محرابِ الصلاة

هذا مَقَامُ الأمَّهَا ... تِ فهل قَدرتَ الأمهاتِ؟

لا تلغُ[2] فيه ولا تَقُلْ ... غير الفواصِلِ محكَمات

وإذا خطبتَ فلا تكن ... خطْبًا على مِصر الفتاةِ

اذكرْ لها اليابان لا ... أمَمَ الهوى المتهتِّكاتِ

ماذا لقيتَ من الحَضا ... رة يا أخيَّ الترَّهاتِ

لم تُلق غير الرق من ... عُسرٍ على الشرقى عاضت

* * *

خُذْ بالكتاب وبالحدِيـ ... ـث سيرة السلف الثقاة

وارجع إلى سُنن الخليـ ... ـقَةِ واتَّبِعْ نُظُمَ الحياة

هذا رسولُ الله لم ... يُنقِصْ حُقُوقَ المؤمنات

العِلْم كان شريعةً ... لنسائه المتفقهاتِ

رُضْنَ التجارة والسيا ... سة والشؤونَ الأخريات

ولقد علمت بناته ... لُجَجُ العلوم الزاخرات

كانت سكينة[3] تملأ الـ ... ـدنيا وتهزأ بالرواة

---

(١) الخرد: العذارى. والمتخفرات: المستحييات. والخفر هو الحياء.

(٢) لاتلغ: لا تقل باطلا.

(٣) سكينة: بنت الحسين رضى الله عنها.

روت الحديث وفسرتْ   آى الكتاب البينات
وحضارة الإسلام تنـ   ـطقُ عن مكان المسلمات
بغداد دار العالما   ت ومنزلُ المتأدبات
ودمشقُ تحت أميةٍ   أمّ الجوارى[1] النابغاتِ
ورياض أندلسٍ نَمَيْـ   ـن الهاتفاتِ الشاعرات
أدْعُ الرجالَ لينظروا   كيف اتحاد الغانيات
والنَفْع كيف أخَذْنَ فى   أسبابه متعاونات
لما رأيْنَ ندى الرِّجا   لِ تفاخُرًا أو حُبَّ ذات
ورأيْنَ عِنْدهُمُو الصنا   ئِعَ والفُنُونَ مُضَيَّعاتِ
والبر عند الأغنيا   ء من الشؤون المُهْمَلاتِ

أقبلن يَبْنين المآ   ثِرَ للنجاح مؤفقاتِ
للصالحات عقائلِ الـ   وادِى هوى فى الصالحات
الله أنبتهنَّ فى   طاعاته خيرَ النَّباتِ
فأتين أطيب ما أتى   زَهَرُ المناقِب والصفاتِ
لم يكفِ أنْ أحْسَنَّ حـ   ـتى زِدْنَ حضَّ المحسنات
يمشين فى سُوقِ الثوا   ب مُساوِمات رابحاتِ
يَلْبَسْنَ ذُلَّ السائلا   ت وما ذكرْنَ البائسات
فوجُوهُهُنَّ وماؤها   سِتْرٌ على المُتَجَمِّلاتِ
مصر تُجَدِّدُ مَجْدَها   بنسائها المُتَجَدِّدَاتِ

النافرات مِنَ الجمو   د كأنه شَبَحُ المَماتِ
هل بَيْنَهُنَّ جَوَامِدًا   فرْقٌ وبينَ المومياتِ
لما حَضَنَّ لنا القضـ   ـية كُنَّ خيرَ الحاضِنَاتِ
غَذَيْنَهَا فى مَهْدِهَا   بِلِبَابِهِنَّ الطاهرات
وسبَقْنَ فيها المُعْلميـ   ـن إلى الكَريهة مُعْلَمَاتِ[2]
يَنفُثْنَ فى الفِتْيَانِ من   رُوحِ الشجاعة والثباتِ
يَهْوَيْنَ تقبيلَ المُهَنْـ   ـد أو مُعَانَقَةَ القناة
ويَرَيْنَ حتى فى الكَرَى   قُبَلَ الرجّال مُحرَّمات

---

(١) الفتيات.

(٢) المعلمون: بفتح اللام: الفرسان لهم علامة فى الحرب لبطولتهم.

يحيى الصحافة

قال سنة ١٩٢٠ من قصيدة له فى احتفال أقامته نقابة الصحفيين:

لكل زمان مضى آيةٌ ... وآية هذا الزمان الصُّحُفْ
لسان البلاد ونبض العباد ... وكهف الحقوق وحرب الجَنَفْ[1]
تسير مسير الضحى فى البلاد ... إذا العلم مزَّق فيها السَّدف
وتمشى تعلمّ فى أمَّةٍ ... كثيرةٍ من لا يخطُّ الألف

* * *

فيا فتية الصحف صبرًا إذا ... نبا الرزقُ فيها بكم واختلف
فإن السعادة غير الظهور ... وغير الثراء وغير التَّرَف
ولكنها فى نواحى الضمير ... إذا هو باللؤم لم يكتنف
وروموا النبوغَ فمن نالَه ... تلقى من الحظ أسنى التحف
حمدنا بلاءكمْ فى النضال ... وأمس حمدنا بلاء السلف
ومَن نسى الفضل للسابقين ... فما عرف الفضل فيما عرف
أليس إليهم صلاحُ البناء ... إذا ما الأساس سَما بالغُرَف

يندد بمن يخذل الوطنية

فى سنة ١٩٠٤ خطب مصطفى رياض باشا فى حفلة تأسيس مدرسة محمد على الصناعية بالإسكندرية خطبة امتدح فيها اللورد كرومر كما امتدح الاحتلال البريطانى.

وقد أثارت هذه الخطبة سخط الرأى العام واستنكرها المواطنون، وكان شوقى صوت الشعر الناطق باستنكار الخطبة وصاحبها، قال:

كبير السابقين من الكرام ... برغْمى أن أنالك بالملام
مقامك فوق مازعموا ولكن ... رأيت الحق فوقك والمقام

---

(١) الجور والظلم.

إلى أن قال:

غمرتَ القوم[1] إطراء وحمدًا ... وهم غمروك بالنعم الجسام
رأوا بالأمس أنفك فى الثريا ... فكيف اليوم أصبح فى الرَّغام
خطبتَ فكنت خطبًا لاخطيبًا ... أضيف إلى مصائبنا العظام
لهجت بالاحتلال وما أتاه ... وجرحك منه لو أحسست دام
وهل تركت لك السبعون عقلا ... لعرفان الحلال من الحرام؟

يندد بقاضى دنشواى

كان أحمد فتحى زغلول أحد قضاة محكمة دنشواى الذين أصدرا ذلك الحكم الجائر فى تلك المأساة سنة ١٩٠٦، وقد رقى بعد ذلك وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) وأقيمت له حفلة تكريم فى فندق شبرد دعى إليها شوقى فرفض الدعوة وأرسل فى ظرف مغلق هذه الأبيات التى عبر فيها أبلغ تعبير عن تنديده بالمحتفل به وبالمحتفلين:

إذا ما جمعتم أمركم وهممتمو ... بتقديم شىء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة ... وسروال مجلود وقيد سجين
ولا تعرضوا شعرى عليه فحسبه ... من الشعر حكم خطه بيمين
ولا تقرأوه فى «شبرد» بل اقرأوا ... على ملأ فى دنشواى حزين

الحنين إلى الوطن

زاد حب شوقى للوطن وتعلقه به فى منفاه بالأندلس، وقد كان نفيه بأمر السلطة العسكرية البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥، وبقى فى منفاه بعيدًا عن الوطن نحو خمسة أعوام إلا قليلا، فازداد شعورًا بلوعة الحزن على فراقه، واستثار النفى الوطنية الكامنة فى نفسه، وأججت الغربة نارها، فانطلق يشدو بالحنين إلى الوطن.

حسبك منه سينيته الأندلسية، تلك القصيدة الخالدة التى نظمها سنة ١٩١٩ يعارِض فيها سينية البحترى، قال فى مطلعها:

اختلافُ النهار والليل يُنسى ... أذكرا لى الصبًا وأيامَ أُنسى

---

(١) يريد المحتلين.

وسَلَا (مصرَ) هل سلا القلب عنها ... أو أَسَا جُرحَهُ الزمانُ المؤسِّى
كلما مرّت الليالى عليه ... رَقّ والعهدُ فى الليالى تُقسِّى

إلى أن قال:

يا ابنةَ اليّم[1] ما أبوك بخيلٌ ... ماله مولعًا بمنعٍ وحبس
أحرامٌ على بلابله الدَوْ ... حُ حلالٌ للطير من كل جِنس؟
كلُّ دار أحقّ بالأهل إلّا ... فى خبيثٍ من المذاهب رِجْس[2]
نَفَسى مِرْجَلٌ وقلبى شِراعٌ ... بهما فى الدموع سيرى وأرسى
واجعلى وجهَك (الفَنار) ومجرا ... ك يدَ (الثغر) بين (رمل) و (مكْس)
وطنى لو شُغِلتُ بالخُلد عنه ... نازعتنى إليه فى الخلد نفسى
شَهِد الله لم يغبْ عن جفونى ... شخصُهُ ساعةً ولم يَخْلُ حِسّى

والقصيدة من أروع مانظم شوقى

وله فى هذا المعنى قصيدة أخرى رائعة نظمها فى منفاه يعارض فيها نونية ابن زيدون. قال:

يانائح (الطَّلْح) أشباهٌ عوَادينا ... نَشْجَى لواديك أم نَأسَى لوادينا[4]؟
ماذا تقُصُّ علينا غير أن يدًا ... قصتْ جَناحك جالت فى حواشينا!
رمى بنا البين[3] أيْكًا غَيْرَ سامرنا ... أخا الغريب؛ وظلًّا غير نادينا

ثم انتقل من خطاب الطائر الحزين إلى بكاء الأندلس قال:

آهًا لنا! نازِحَىْ أيْكٍ بأندلس ... وإن حلَلْنا رفيفًا من روابينا[5]
رسمٌ وقفنا على رسم الوفاء له ... نجيش بالدمع والإجلالُ يَثنينا

إلى أن قال فى الحنين إلى مصر:

لكنَّ (مصر) وإن أغضت على مِقَةٍ[6] ... عينٌ من الخُلدِ بالكافور تَسقينا

---

(١) يقصد السفينة.

(٢) يقصد مذهب الاستعمار الذى يضطهد الوطنيين وينفيهم ويمنعهم من التعبير عن آرائهم والإعراب عن آمالهم.

(٣) الطلح وأدبا الأندلس، بضاحية أشبيلية، يخاطب حمام هذا الوادى ويتمثله شبيها به فى لوعته وغربته، وعوادينا أى عوادى الدهر ومصائبه.

(٤) البين: البعد، والأيك: الشجر الكثير الملتف.

(٥) الرفيف: الخصيب.

(٦) المقة: المحبة.

علـى جـوانبهـا رفَّت تمـائمنـا ... وحـول حـافـاتهـا قـامت رواقينـا[١]
مـلاعِبٌ مَـرِحَتْ فيهـا مـآرِبنـا ... وأربُـعٌ أنِستْ فـيهـا أمـانـينـا
ومـطلع لِسعـودٍ من أواخـرِنـا ... ومَـغْـرِبٌ لجدودٍ من أوَالـينـا
بِنَّا[٢] فلم نَخْل من رَوحٍ يُرَاوِحنُا ... من بِـرِّ مصرَ وريْحـانٍ يُغـادينـا
كـأمٍّ موسى عـلى اسم الله تكفلنا ... وبـاسمه ذهبتْ فى اليَمِّ تُلقينـا[٣]
ومصر كالكَرْم ذى الاحسان فـاكهةٌ ... لحـاضـريـن وأكـوابُ لبـاديـنـا
يا سارىَ البرق يَرمى عن جوانحنا ... بعـد الهدوء ويَهْمى عن مـآقينـا
لما تـرقـرق فى دمع السـماء دمًّا ... هاج البكا فخضَبْنا الأرض باكينا

إلى أن قال يخاطب مواطنيه:

إلى الـذين وجدنـا وُدَّ غيـرِهم ... دنْيَـا وودَّهمو الصـافى هـو الـدِّينـا
يـا من نَغَار عليهم من ضمـائـرنـا ... ومن مَصـون هـواهم فى تَنَـاجينـا
نـاب الحَنِـينُ إليكم فى خـواطـرنـا ... فى النـائبات فلم يـأخـذ بـأيْـدِينـا

إلى أن قال يشيد فى منفاه بعظمة مصر:

لم تنـزل الشمسُ ميـزانًـا ولا صعـدت ... فى ملكهـا الضخم عرشًـا مثـل وادينـا
ألم تُـؤلَّـهْ عـلى حـافَـاتـهِ ورأتْ ... عليـه آبـاءَهـا الغُـرَّ الميـامينـا؟
وهـذه الأرض من سَهْلٍ ومن جبـلٍ ... قبـل (القيـاصـرِ) دِنَّـاهَـا (فـراعينـا)
ولم يضَـع حَجَـرًا بـانٍ عـلى حجـرٍ ... فى الأرض إلَّا عـلى آثـار بـانِينـا
كـأن (أهـرامَ) مصـرٍ حـائطٌ نَهَضَتْ ... بـه يـدُ الـدهـر لا بنيـانُ فـانِينـا

إلى أن قال فى تحية مصر وتشوقه إليها من منفاه:

أرض الأُبـوةِ والميـلاد طيـبَهـا ... مَـرُّ الصّبا فى ذيـولٍ من تصـابينـا
كـانت محجّلةً فيهـا مـواقِفُنـا ... غُـرًّا مُسَلْسلَةَ المَجْـرى قـوافينـا
فـآب من كُـرَةِ الأيـامِ لاعِبُنـا ... وثـابَ من سِنَـة الأحـلام لاهِينـا

(١) الرواقى: جمع راقية وهى مايرقى به الصبى درءا للسحر.
(٢) بنا: أى بعدنا.
(٣) شبه مصر حين اضطرت إلى نفيه بأم موسى عليه السلام حين القته فى اليم صبيا وسألت الله أن يكفله.

ولم نَدَعْ لليالى صافيا فَدَعَتْ　　بأن نَغصَّ فقال الدهر آمينا
لو استطعنا لخُضْنا الجوّ صاعقةً　　والبرَّ نارَ وغًى والبحر غِسْلينا[١]
سَعْيًا إلى مصر نقضى حقَّ ذاكرنا　　فيها إذا نسى الوافى وباكينا

وقال يذكر والدته بحلوان وقد توفيت قبيل عودته:

كنزٌ (بحلوان) عند الله نطلبه　　خيرَ الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا　　لم يأته الشوق إلاَّ من نواحينا
إذا حَمَلْنا لمصرٍ أوله شجنا　　لم ندر أى هوى الأمّين شاجينا

وقال أيضًا سنة ١٩١٧ فى منفاه يهتف بمصر وساكنيها:

يا ساكنى مِصْرَ إنَّا لا نزال على　　عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا
هلّا بعثتم لنا من ماء نيلكم　　شيئًا نبل به أحشاء صادينا[٢]
كل المناهل بعد النيل آسنة　　ماأبعد النيل إلاَّ عن أمانينا

وقد بعث شوقى بهذه الأبيات إلى صديقه وصنوه حافظ إبراهيم فأجابه حافظ بالأبيات الآتية.

عجبت للنيل يدرى أن بلبله　　صادٍ ويسقى رُبَا مصر ويسقينا
تالله ماطاب للأصحاب مورده　　ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه　　وقد نأينا وإن كنا مقيمينا

يشيد بعظمة مصر

لقد ملك حب مصر مشاعره فكان يتغنى بعظمتها ويشيد بمفاخرها، وتفيض قصائده بهذا المعنى السامى.

قال فى تحية مصر والنيل والهرم من قصيدة نظمها سنة ١٩١٤ يحيى بها الطائرين العثمانيين سالم وكمال حين قدومهما إلى مصر على متن طائرتهما عن طريق العريش وسيناء:

يا راكب الريح حيِّ النيل والهرَما　　وعظِّم السفحَ من سيناءَ والحرما

---

(١) الغسلين: الصديد.
(٢) الصادى: الظمآن.

وقِــفْ عــلى أثَــرٍ مــرّ الــزمــانُ بــه ... فــكــانَ أنبــتَ من أطــوادِه قــمِــا
واخفِض جنــاحَك فى الأرض ِ التى حملت ... مــوسى رضيعًــا وعيسى الـطهـرِ مُنفِــطِا
وأخــرجَتْ حكمــةَ الأجيــالِ خــالــدةً ... وبــيَّــنــتْ لــلعــبــادِ الــسـيــفَ والــقــلما
هــذا فضــاءُ تُلِمُّ الــريــح خــاشعــةً ... بــه ويمشى عــليــه الــدهــر مُحتشــما

وقال من قصيدة له فى أبى الهول:

أَبَــا الهَــوْلِ طــالَ عليكَ العُصُــرْ ... وبلِّغتَ فى الأَرض أقصى العمــرْ
فيــالِدَةَ الــدَّهــرِ[1] لا الــدَّهــر شــ ... ــبَّ ولا أنت جــاوزت حَدَّ الصِّغَر
إِلاَمَ ركــوبــكَ مَــتْــنَ الــرمــا ... لِ لِطَىِّ الأَصيل وجَــوْب السَّحَــرْ
تُــســافــر منتــقــلا فى الــقــرو ... ن فــأيــان تُلقى غُبــار السفــر؟
أبــيْــنــكَ عَــهْــدٌ وبــين الجبــا ... لِ تــزولان فى المَوْعِــد المنتظَر[2]؟
أبــا الهــول أنتَ نــديم الــزمــا ... نِ نجىُّ الأوان سـمــيرِ العُصُــر
ظــليــلَ الحــضــارة فى الأوَّلــيـ ... ـنَ رَفيــعَ البــنــاء جليــلَ الأثــر

وختمها بقوله:

تحــرَّكْ أبــا الهَــول هــذا الــزمــا ... ن تحــرك مــافيــه حتى الحجــر

وقال عن الأهرام من قصيدة له سنة ١٩٢٢:

قِفْ نــاجِ أهــرامَ الجــلال ونــادِ ... هــل من بُنــاتــك مجلس أو نــادِ
نشكــو ونفــزع فيــه بــين عيــونهم ... إن الأُبــوَّة مــفــزع الأولاد
ونبثُّهم عــبثَ الهــوى بــتــراثهــم ... مــن كــلِّ مُلْقٍ لــلهــوى بقيــاد
ونبــين كيف تفــرقَ الأخــوانُ فى ... وقت البَــلاء تفــرقَ الأضــداد[3]
إن المغــالط فى الحقيقــة نــفســهَ ... بــاغٍ عــلى النفس الضعيفــة عــادِ

* * *

(١) أى ياأخا الدهر وقرينه فكأنه والدهر توأمان.

(٢) يوم القيامة.

(٣) يشير إلى الانقسام الذى حدث سنة ١٩٢١ بين سعد وعدلى وأنصارهما وتصدعت بسببه الوحدة الوطنية.

قـل للأعـاحيب الثلاث[١] مقـالـة ... مـن هـاتـف بمـكـانهن وشـاد
لله أنت فـما رأيتُ عـلى الصفـا ... هـذا الجلال ولا عـلى الأوتـاد
لـك كـالمعـابـد رَوعـةٌ قـدسيـة ... وعـليـك روحـانيـة الـعـبّـاد
أُسِّسْتِ من أحـلامهم بقـواعـد ... ورفِعتِ مـن أخـلاقِهـم بعـماد
قُمْ قَبِّـل الأحجـار والأيـدى التى ... أخـذت لهـا عهـدًا من الآبـاد
وخـذ النبـوغ من الكنـانـة إنها ... مهـد الشمـوس ومسقط الآراد[٢]

وقال يشيد بعظمة الأهرام من قصيدته (على قبر نابليون):

قم إلى الأهـرام واخشعْ واطـرحْ ... خيلة الصَّيـد[٣] وزهـوَ الفـاتحينْ
وتمـهـلّ إنمـا تمـشـى إلى ... حَـرَم الـدهـر ومحـرابِ القـرون
هـو كـالصخـرة عنـد القبط أو ... كـالحطيم الـطُّهـر عنـد المسلمين
وتسـنَّـمْ منـبـرًا مـن حَـجَـرٍ ... لم يـكن قبـلك حظُّ الخـاطبـين
وادع أجيـالا تـولت يسمعـوا ... لـك وابعث فى الأوالى حـاشـرين
وأعـدهـا كـلمـات أربعًـا[٤] ... قـد أحـاطت بـالقـرون الأربعـين
قـد عرضت الـدهـر والجيشَ معًـا ... غـايـة قصَّـر عنهـا الفـاتحـون
عِـظَةٌ قـومـى بهـا أولى وإن ... بَعـدَ العهـد فهـل يعتبـرون؟

قصر أنس الوجود

وقال سنة ١٩١٠ عن قصر (أنس الوجود) بأسوان وكيف يغمره النيل وقت الفيضان، من قصيدة يخاطب فيها الكولونل تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأسبق، وكان قد ألقى خطبة ينتقص فيها من قدر المصريين فرد عليه شوقى بهذه القصيدة:

أيّهـا المنْـتَـحِـى (بـأسـوانَ) دارًا ... كـالـثّـريّـا تـريـد أن تَنـقـضَّـا
اخلع النعـلَ واخفِض الطرفَ واخشـعْ ... لا تحـاوِل من آيـةِ الـدَّهـرِ غَضَّـا

---

(١) يريد الأهرام الثلاثة.

(٢) الآراد جمع رأد. يريد رأد الضحى: وقت ارتفاع الشمس.

(٣) الملوك.

(٤) يشير إلى الكلمة التى قالها نابليون لجنوده قبيل معركة الأهرام سنة ١٧٩٨ يستحثهم على القتال: «إن أربعين قرنا تنظر إليكم من فوق قمم هذه الأهرام»

قفْ بتلك (القصورِ) فى اليمِّ غرْقَى ... مُمسكًا بعضها من الذُّعر بعضا
كعذَارى أخفَيْنَ فى الماءِ بَضًّا ... سابحاتٍ به وأبدَيْنَ بَضَّا
مشرفاتٍ على الزوالِ وكانتْ ... مشرفاتٍ على الكواكبِ نَهْضا
شابَ من حولها الزمانُ وشابتْ . ... وشبابُ الفنونِ ما زال غَضًّا
صَنعةٌ تدهِش العقولَ وفنٌّ ... كان إتقانه على القوم فَرْضا
يا قصورًا نظرْتُها وهى تَقْضِى[1] ... فسكبت الدموعَ والحقُّ يُقضى
أنتِ سطرٌ ومجد مصرَ كتابٌ ... كيف سامَ البِلى كتابَك فَضَّا
وأنا المُحْتفى بتاريخ مصر ... مَن يَصُنْ مجدَ قومِهِ صانَ عِرْضا

وقال فى يناير سنة ١٩٢٣ بعد اكتشاف كنوز توت عنخ آمون يذكر عظمة مصر الخالدة:

قفى يا أخت (يوشع[2]) خبرينا ... أحاديث القرون الغابرينا
فمثلك من روى الأخبار طرا ... ومن نسب القبائل أجمعينا

إلى أن قال يشيد بحضارة قدماء المصريين وكيف بلغوا الشأو العظيم من المجد:

مشتْ بمنارهم فى الأرض (روما) ... ومن أنوارهم قَبست (أثينا)
ملوكُ الدهر بالوادى أقاموا ... عَلَى (وادى الملوك) مُحَجَّبينا
تعالى الله كان السحر فيهم ... أليسوا للحجارةِ مُنْطِقينا؟
غَدوا يبنون ما يُبقى وراحوا ... وراء الآبداتِ مُخلَّدينا
إذا عَمدوا لمأثرةٍ أعدُّوا ... لها الإتقانَ والخلق المتينا
وليس الخلد مرتبةً تلقَّى ... وتُؤْخذ من شفاه الجاهلينا
ولكن مُنتَهى هِمَمٍ كبار ... إذا ذهبتْ مصادِرُها بقينا
وسرُّ العبقرية حين يسرى ... فينتظم الصنائع والفنونا
وآثارُ الرجال إذا تناهتْ ... إلى التاريخ خير الحاكمينا
وأخذُك من فم الدنيا ثناء ... وتركِك فى مسامعها طنينا

وقال مخاطبًا توت عنخ آمون:

سلامٌ يوم وارتك المنايا ... بواديها ويومَ ظهرتَ فينا

---

(١) تقضى: أى تفنى.

(٢) الخطاب للشمس.

خــرجت من القبــور خــروج عيسى عـليــك جــلالــةٌ فى العــالمـينــا

ومن قصيدة أخرى له عن توت عنخ آمون وقد تخيله قد بعث بعد أربعين قـرنا ورأى الاحتلال جاثما عل صدر البلاد فحزن لما رآه وآثـر العودة إلى قبـره؛ والقصيدة من أروع ما جادت به قريحة شوقى فى الإشادة بأمجاد مصر وفى المعانى الوطنية، قال فى مطلعها مخاطبا توت عنخ آمون:

قُمْ سـابق (الساعـة) واسبق وعْـدَهـا الأرضُ ضاقت عنكَ فـاصدعْ غِمـدها
وامــلأ رمـاحــا غـورَهــا ونَجْـدَهــا وافتــح أصول النيــل واستــردَّهــا
شــلَّالَهــا وعَــذْبَهــا وعِــدَّهــا[1] واصــرف إلينـا جَــزْرهــا ومــدهــا

إلى أن قال:

ســافَـرَ أربعــين قـرنــا عَـدَّهــا حتى أتى الـدارَ فـأَلْفَى عنــدهــا
انْجِلْتــرًا وجـيَشـهــا ولــوردَهــا مَسْلُولـة الهندىِّ تحمى (هِنْـدَهـا)[2]
قامت على (السـودان) تبنى سَدَّهــا وركَّـزت دون (القنـاة) بَنْــدَهـا[3]

* * *

فقــال والحســرةُ مــا أشــدَّهــا ليتَ جـدار القَبْر مـا تَـدَهْـدَهـا[4]
وليتَ عـينى لم تـفــارق رَقْــدَهــا قُمْ نَبِّى يــا (بنتئـور)[5] مــادَهــا

* * *

مصــرُ الفـتــاةُ بلَغَت أشــدَّهــا وأثبتَ الــدم الــزكـىُّ رُشْــدَهَــا
ولعبــتْ عــلى الحبــال وَحْــدَهَــا وجَــرَّبتْ إرخــاءَهــا وشَــدَّهــا

* * *

يــاربِّ قَــوِّ يَــدَهــا وشــدَّهــا وافتـحْ لهـا السُّبْـلَ ولا تسـدَّهــا
وقِسْ لكـل خـطوة مــا بعْـدَهــا وعن صغيــرات الأمـور حُــدَّهـا

(١) العد: الماء الجارى
(٢) الهندى: السيف، وهِنْدها: أى الهند.
(٣) البند: العلم.
(٤) تدهده: انقط.
(٥) بنتئور: شاعر مصرى قديم.

واصرف إلى جد الشؤون جدَّها ولا تضع على الضحايا جهدها
واكبحْ هوى الأنفس واكسر حقدها واجمعْ على الأمِّ الرؤوم ولْدَها

وادى الملوك

وقال سنة ١٩٢٥ فى هذا المعنى يذكر توت عنخ آمون وحضارة عصره بعد أن اكتشفت كنوزه فى (وادى الملوك):

درجتْ على (الكنز) القرونْ وأتت على الدَّنِّ[1] السنون
ياابن الثواقب من (رعٍ) وابن الزواهر من (أمون[2])
نسبٌ عريق فى الضحى بذَّ القبائل والبطون
أرأيت كيف يئوب من غَمْر القضاء المغرَق‍ون
وتدول آثار القرو ن على رحى الزمن الطحون
حبُّ الخلود بنى لكم خُلُقًا به تتفردون
لم يأخذ المتقدمو ن به ولا المتأخرون
حتى تسابقتم إلى الإحسـ ـان فيما تعملون
لم تتركوه فى الجليـ ـل ولا الحقير من الشئون
هذا القيامُ فقل لنا الـ ـيومُ الأخيرُ متى يكون؟
البعث غاية زائلٍ فانٍ وأنتم خالدون
السبقُ من عاداتكم أترى القيامة تسبقون؟
أنتم أساطين الحضا رة والبناة المحسنون
المتقنون وإنما يُجزَى الخلودَ المتقنون

يتغنى بالنيل

نظم هذه القصيدة الرائعة يتغنى فيها بالنيل، فصور الحياة للوادى وأهله، وأبدع فى وصف روعته وجماله وجلاله، ثم انتقل إلى قدماء المصريين ومفاخرهم، وهى القصيدة التى تغنيها أم كلثوم فتزيدها بهاء وجمالا:

---

(١) الدن: باطية الخمر.
(٢) رع وأمون من آلهة مصر القديمة.

من أَىّ عهْـد فى القُرى تَتَـدفّقُ ... وبـأىّ كـفٍّ فى المـدائن تُـغـدِقُ
ومن السماء نـزلتَ أم فُجِّـرتَ من ... عُلْيا الجنـان جـداولاً تَتَـرقـرق
وبـأىّ عَـينٍ أم بـأيّـة مُـزْنَـة ... أم أىّ طُـوفـان تَـفيض وتَـفْهَـق
وبـأىٍّ نَـوْلٍ أنت نـاسِجُ بُـردةٍ ... لِلضفـتـين جـديـدُهـا لا يَخلُق
تَسْـودُّ دِيبـاجًـا إذا فـارقتهـا ... فإذا حضرت اخْضَوْضر الإِسْتبرقُ[١]
أتت الـدهورُ عليكَ مهدُك متـرعٌ ... وَحِيـاضك الشُـرقُ الشهيَّة دُفق[٢]
تَسْقى وتُـطعِمُ لا إنـاؤك ضـائِقٌ ... بـالـواردين ولإخِـوانـك ينفُق[٣]
والمـاء تسكُبه فُيسْبَـك عسجـدًا ... والأَرضُ تُغـرقهـا فيحيـا المُغْـرَق
تُعِيى متـابِعُك العقـولَ ويستـوى ... مُتَخـبِّطٌ فى عـلمـهـا ومحقِّـق

إلى أن قال:

دينُ الأَوائِـل فـيـك دينُ مـرُوءةٍ ... لم لا يُـؤَلِّـه مـن يَـقُـوتُ ويَـرزُق
لـو أن مخـلوقًـا يُـؤَلّـه لم تـكـن ... لِسـواك مـرتبـةُ الأُلـوهـة تخـلُق
جعلو الهـوى لك والـوقـارَ عبـادةً إن ... الـعـبـادةَ خَـشـيـةٌ وتـعـلُّق
دانـوا بـبحـرٍ بـالمكـارم زاخـرٍ ... عَـذْبِ المشـارع مَـدُّه لا يُـلْحـق
مـتـقّـيـدٍ بـعـهـوده ووعـوده ... يجرى على سَنَن الـوفـاء ويصـدُق
يـتقـبَّـل الـوادى الحيـاةَ كـريمـةً ... مـن راحتيـك عميـمـةً تـتـدَفّـق

إلى أن قال يصف مهرجان وفاء النيل عند قدماء المصريين وكيف كانت «عروس النيل» تقدم قربانًا له كل عام:

والمجـد عند الغـانيـاتِ رغيبـةٌ ... يُبغى كـما يُبغى الجمـال ويُعشْقَ
إن زوّجـوكَ بهنّ فهى عقيـدة ... ومن العقـائد مَـايَلبُّ ويَحْمَق[٤]
مـا أجمـلَ الإِيمـان لـولا ضَلّةٌ ... فى كـلِّ دينٍ بـالهـدايـةِ تَلْصَق
زُفَّت إلى مَلكِ الملوك يحثُّهـا ... دِينٌ ويَـدْفعهـا هـوًى وتَشـوُّق

---

(١) الديباج والاستبرق: ثوب الحرير.

(٢) الشرق: الغرقى.

(٣) ينفق يفنى أو يقل.

(٤) يلب، أى يصير لبيبا.

ولـربما حسـدتْ عليـك مكـانَها   تِرْبٌ تمسَّح بالعروس وتُحْـدِقُ[١]
مجلوة فى الفُلكِ يَحْـدو فلكَهـا   بـالشـاطئـيْن مُـزغـردٌ ومُصفِّق
فى مِهْـرَجانٍ هـزَّت الـدنيـا بـه   أعـطافَها واختَـال فيه المشْـرِق
فـرعـونُ تحتَ لـوائِـه وبنـاتُـه   يَجْرى بهنّ على السفين الزورق
حتى إذا بلغتْ مـواكبُها المدَى   وجـرى لغايتـه القضاءُ الأَسْبَق
وكسـا سماءَ المِهـرْجَانِ جـلالـةً   سيفُ المنيَّـةِ وهـو صَلْتٌ يَبـرق
وتَلَفتت فى اليمِّ كـلُّ سَفـينـةٍ   وانثال بالوادى الجموعُ وحدّقوا
ألقتْ إليـكَ بنفسهـا ونفيسهـا   وأتتـكَ شيِّقـةً حـواهـا شيِّق
خلعتْ عليـكَ حياءَهَـا وحياتَهـا   أأعـزُّ من هـذين شَىْءٌ يُنفَق؟
وإذا تَناهى الحبُّ واتفقَ الفِدَى   فـالروح فى بـابِ الضحية أَلْيَقُ

إلى أن قال يذكر النيل وأنه مصدر الحياة والحضارة لمصر والوادى:

أصـلُ الحضـارةِ فى صعيـدِك ثـابتٌ   ونَبـاتُهـا حَسَنٌ عليـك مُخـلّق[٢]
ولِـدتْ.فكنتَ المهدَ ثم تـرعـرعتْ   فـأظلَّهـا منـكَ الحَفِىُّ المُشفِـق
مـلأتْ ديـارَك حكمـةً مـأثـورهـا   فى الصَّخر والبردِى الكريم منبَّق[٣]
وبنت بيـوتَ العلم باذخَـةَ الـذُّرى   يـسعـى لهن مغـرِّبٌ ومشـرِّق
واستحـدثت دينًـا فكـان فضـائـلًا   وبنـاءَ أخـلاقٍ يـطول ويَشهَق[٤]
مَهَـدَ السبيـلَ لكـل دينٍ بعـده   كـالمسك ريَّـاه بـأخـرى تُفْتق
يـدعـو إلى برّ ويـرفـع صـالحًـا   ويَعـاف مـا هـو للمروءة مخلِق

وقال فى ختامها:

يـانيل أنت بـطيب ما نعت(الهـدى)   وبِمِـدْحَةِ (التـوراة) أحـرى وأخلق
وإليـك يُهدى الحمدَ خلْقٌ حـازهم   كَنَفٌ عـلى مرِّ الـدهـور مـرُهَّق[٤]

---

(١) الترب من ولد مع الإنسان. الجمع أتراب وأكثر ما تستعمل فى المؤنث. يقال هذه ترب فلانة.

(٢) مخلق: متطيب.

(٣) مبق: مصطف.

(٤) يشهق من شهق الجبل ارتفع.

(٥) المرهق: كثير غشيان الناس والأضياف.

وعليـك تُجلى من مصونـات النهى خـودٌ عرائس خـدرهن المُهْـرَق[1]
الـدرّ فى لَـبَـاتهـن مـنـظّم والـطيب فى حَبَـراتهن مـرقـرق
لى فيـكَ مـدحٌ ليس فيـه تكلفٌ أمـلاه حـبٌ لـيس فـيـه تَمَلق

وفى الحق أنه لم يوصف النيل فى عظمته وجلاله وماضيه وحاضره وخلوده بأبدع مما وصفه شوقى فى هذه القصيدة.

نشيد النيل

ووضع نشيدًا جميلا للنيل يتغنى به الشباب والمواطنون قال:

النيـلُ العَـذْبُ هـو الكَوْثَـرْ والجنّـة شـاطِئـهُ الأخضـر
ريّـانُ الصفحـة والمَنْـظرْ مـا أبهى الخَلد ومـا أنضـر

* * *

البحـر الفيّـاضُ القُـدُسُ الساقى الناس وما غرسـوا
وهـو المِنْوالُ لمـا لبسوا والمُنْعِمُ بـالقـطن الأنـورْ

* * *

جعـلَ الإنسانَ لـه شَـرْعـا لم يُخْـلِ الوادىَ مِنْ مـرْعَى
فتـرى زرعًـا يَتْلو زرعًـا وهـنـا يُجْنَى وهـنـا يُبْـذَر

* * *

جـارٍ ويـرى ليس بجـار لأنـاةٍ فـيـه ووقـارِ
يَـنْـصَبُّ كَـتَـلٍ مـنْهـار ويَضِـجُّ فتحسَبـه يَـزْأرْ

* * *

حَبَشىٌّ اللون كـجيـرتـه مـن منبعـه وبـحيـرتـه
صَبَـغَ الشّطّين بسُمْـرتـه لـونـا كـالمسك وكـالعنـبر

---

(١) المهرق: الصحيفة.

النشيد الوطنى

وفى سنة ١٩٢٠ وضع نشيدًا وطنيا أقرته اللجنة التى ألفت فى هذا العام لترقية الأغانى الوطنية قال:

بنى مصرٍ مكانكمو تهَيَّا — فهيَّا مهِّدوا للملك هيّا
خذوا شمس النهارِ له حليًّا — ألم تَك تاجَ أولكم مليّا

* * *

على الأخلاق خُطُّوا الملك وابنوا — فليس وراءها للعِزِّ ركنُ
أليس لكم بوادى النيل عدْنُ — وكوثرها الذى يجرى شهيًّا

* * *

لنا وطنٌ بأنفسنا نَقِيه — وبالدنيا العريضة نفتديه
إذا ما سيلت الأرواحُ فيه — بذلناها كأن لم نعطِ شيّا

* * *

لنا الهرم الذى صحب الزمانا — ومن حِدْثانه أخذ الأمانا
ونحن بنو السَّنا العالى نَمانا — أوائلُ عَلَّموا الأمم الرقيّا

* * *

تطاول عهدُهم عزًّا وفخرا — فلما آل للتاريخ ذُخرا
نشأنا نشأة فى المجد أخرى — جعلنا الحق مظهرها العليا

* * *

جعلنا مصر ملة ذى الجلال — وألفنا الصليب مع الهلال
وأقبلنا كصفّ من عوال — يشد السمهرىُّ السمهريا

* * *

تقوم على البناية محسنينا ونعهد بالتمام إلى بنينا
نموت فداكِ مصر كما حيينا ويبقى وجهك المَفْدِيُّ حيّا

نشيد الكشافة

نحن الكشافة فى الوادى جبريلُ الروحُ لنا حادى
يارَبِّ بِعيسَى والهادى وبموسى خُذْ بيد الوَطَنِ

* * *

كشافةُ مصر وصِبْيتها ومَنَاةُ الدار ومنيتها
وجَمالُ الأرض وحِليتها وطلائع أفراح المُدُن

* * *

نبتدر الخير ونَسْتبقُ ما يَرْضَى الخالِقُ والخَلْقُ
بالنفس وخالقها نثق ونزيد وثوقا فى المحن

* * *

فى السهل نرِفّ رياحينا ونجوب الصخر شياطينا
نبنى الأبدان وتبنينا والهمة فى الجسم المرن

* * *

ونخلى الخلق وما اعتقدوا ولوجه الخالق نجتهد
نأسو الجرحى أنّى وجدوا ونداوى من جَرحَ الزمن

* * *

فى الصدق نشأنا والكرم والعفةِ عن مَسّ الحُرَم
ورعاية طفل أو هَرِم والذود عن الغيد الحصن

* * *

ونوافى الصارخ فى اللجج والنار الساطعة الوهج

لانسأله ثمنَ المهج　　وكفى بالواجب من ثمن

* * *

ربِّ فكثِّرنا عددا　　وابذل لأبوتنا المددا
هيىء لهم ولنا رشدا　　ياربِّ وخذ بيد الوطن

نشيد الشباب

اليومَ نسود بأيدينا　　ونعيدُ محاسنَ ماضينا
ونشيد العزَّ بأيدينا　　وطنٌ نَفديه ويَفْدِينا

* * *

وطنٌ بالحق نؤيِّده　　وبعين الله نشَيِّدُه
ونحَسِّنه ونُزَيِّنُه　　بمآثرنا ومساعينا

* * *

سرٌّ التاريخ وعنصرهُ　　وسريرُ الدهر ومِنْبَره
وجِنان الخلد وكَوْثره　　وكفى الآباء رياحينا

* * *

نتخذ الشمس له تاجا　　وضحاها عَرْشا وهَّاجا
وسماء السُّؤدد أبراجا　　وكذلك كان أوالينا

* * *

العَصْرُ يراكم والأممُ　　والكرنكُ يلحَظُ والهرمُ
ابنى الأوطان ألا هِمَمٌ　　كبناء الأول يَبْنينا

* * *

سَعيًا أبدًا سعيا أبدا　　لأثيل المجد وللعَلْيا
ولنجعل مصر هى الدنيا　　ولنجعل مصر هى الدنيا

وظل شوقى يتغنى بالوطنية ويغرد للمواطنين والناطقين بالضاد جميعا ألحان الحرية ويسمعهم أسمى معانى الإنسانية حتى أدركته الوفاة سنة ١٩٣٢، وظل شعره بعد وفاته وسيظل على الدوام رمزًا للحكمة والحرية والخلود.

حافظ ابراهيم
شاعر النيل
١٨٧٢ - ١٩٣٢



هو صِنْو شوقى فى إحياء دولة الشعر، ولئن تميز شوقى بالزعامة كما أسلفنا فى الحديث عن شوقى، فإن حافظا يمتاز عنه بأن نشأته وحياته كانت شعبية، فى حين كانت نشأة شوقى وحياته أرستقراطية، فكان حافظ أقرب إلى رُوح الشعب ومشاعره، وأقدر على تصوير آلامه التى شاركه فيها، واكتوى بلهيبها، فكان لذلك أبلغ فى التعبير عنها، وكانت عباراته أسهل وأقرب إلى إدراك معانيها من عبارات شوقى، لأنه كان يحس إحساسًا قويا أنه يخاطب الشعب فى مجموع مثقفيه وقارئيه.

ولد حافظ إبراهيم سنة ١٨٧٢ من أب مصرى وأم من أسرة تركية، كان أبوه إبراهيم أفندى فهمى مهندسًا يشرف على قناطر ديروط حيث ولد حافظ، وتوفى وحافظ فى الرابعة من عمره، فكفله خاله محمد أفندى نيازى وعاش فى كنفه عيشة الطبقات المتوسطة التى كانت أقرب إلى الضيق منه إلى اليسار، فأحس حافظ منذ صباه بما تعانيه الطبقات الشعبية من جهد ورقة حال، ولما ظهرت مواهبه الشعرية كان الترجمان الصادق الأمين لهذه الطبقات.

تلقى التعليم الابتدائى وجزءًا من التعليم الثانوى، ولكنه لم يتمه، وانتقل مع خاله إلى طنطا وكان مهندس تنظيم بها وانقطع حافظ وقتًا ما عن متابعة التعليم، واتجهت نفسه إلى الأدب والشعر.

واشتغل وقتًا وجيزا بالمحاماة بطنطا، ولكنه لم يستمر فيها إذ لم يجد من نفسه ميلا إليها لما كانت تقتضيه من دأب على العمل المتواصل وهو لم يكن يميل إلى التقيد بمثل هذا الدأب، بل كان كالطير ينطلق مغردًا بين مختلف الأشجار والأغصان.

ولقد فكر فى أن يكون ضابطا بالجيش إذ كانت الحياة العسكرية مما يستثير فى نفسه روح

الشعر والخيال، أو لعله أراد أن يقلد البارودى فى نشأته العسكرية، فالتحق بالمدرسة الحربية بالقاهرة، وتخرج منها سنة ١٨٩١ ضابطا برتبة ملازم ثان، وكان إذ ذاك فى سن العشرين تقريبًا، وانتظم فى حملة السودان بقيادة اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى وقتئذ، ولما انتهت الحملة بانفراد الإنجليز بحكم السودان عافت نفسه البقاء فى ربوعه، فالتمس إحالته إلى المعاش وأجيب طلبه وعاد إلى مصر، وغشى مجالس الشعراء والأدباء والعلماء، وأفاض فيها من شعره وأدبه، فتألقت شاعريته، وعرف له معاصروه فضله ومكانته فى عالم الأدب والشعر، وإذ كان الشعر لا يدرّ عليه ما يحفظ مكانته من الوجهة المادية فقد عينه أحمد حشمت وزير المعارف فى سنة ١٩١١ رئيسًا للقسم الأدبى فى دار الكتب المصرية، وظل بها إلى فبراير سنة ١٩٣٢ إذ أحيل إلى المعاش لبلوغه السن القانونية، وتوفى يوم ٢١ يوليه سنة ١٩٣٢.

كان حافظ شاعرًا بطبعه، ظهرت مواهبه الشعرية وهو فى السادسة عشرة من عمره، لم يتلقها عن معلم أو أديب، ولا تعلمها فى المدارس التى انتظم بها، بل كانت وحى الإلهام والسليقة، فكان يقول الشعر وهو فى هذه السن المبكرة، ويأخذ نفسه بالمطالعات الشعرية ويحفظ قصائد فحول الشعراء المتقدمين، واشتدت به الرغبة إلى محاكاتهم فى جيد الشعر، فواتته سليقته الشعرية وساعدته على تحقيق رغبته، وبذّ مع الزمن أولئك الشعراء، وبلغ الذروة فى عالم الشعر والأدب.

وحافظ يمتاز فى شعره بقوة البلاغة وإشراق الديباجة وطلاوة الأسلوب والروح الخطابية، ولقد أنصفه شوقى إذ قال فى رثائه:

يا حافظ الفصحى وحارسَ مجدها	وإمامَ من نَجَلت من البُلغاء[1]
مازلت تهتف بالقديم وفضله	حتى حميت أمانةَ القُدماء
خلّفت فى الدنيا بيانا خالدا	وتركت أجيالا من الأبناء
وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل	للدهر إنصاف وحسنُ جزاء

أضفت الوطنية على شعر حافظ هالة من العظمة والمجد، فقد كان بلا مراء خير ترجمان للشعب فى أحاسيسه وآماله، وخير مواس له فى مآسيه وآلامه، وتغنى بمصر والنيل فى قصائده الغرّ، ولعلّ بقاءه فى السودان عدة سنين، ومشاهدته غدر الإنجليز هناك، وتدابيرهم فى تحقيق أغراضهم الاستعمارية، قد زاده سخطا على الاستعمار واستمساكا بوحدة وادى النيل، وتجلّت هذه المواهب فى شعره فى شتى المناسبات حتى سمى بحق «شاعر النيل»، وهو إلى جانب ذلك

---

(١) نجلت: أى ولدت.

شاعر الوطنية والاجتماع والأخلاق. كان لا يفتأ يدعو قومه إلى التسلح بالأخلاق فى جهادهم للحرية، إذ يرى الأخلاق قوام الجهاد الصحيح، وبلغت دعوته إلى الأخلاق حدّ التقريع فى مخاطبته لبنى وطنه ومجابهتهم بالحق الصريح.

وحافظ وإن كانت ثقافته شرقية إلّا أنه قد تعلّم الفرنسية على كبر، واقتبس من الآداب الفرنسية ما استطاع أن يقتبسه، وساعده ذكاؤه وألمعيته على محاكاة الشعر الغربى أحيانًا، وكان يميل إلى التجديد فى شعره، وفى ذلك يقول:

آن يا شعر أن تَفُكَّ قيودا　　قيّدتنا بها دعاة المحال

فارفعوا هذه الكمائم عنا　　ودعونا نشم ريح الشمال

ولقد نجح حافظ فى أن يرتفع بشعره فى كثير من المواطن إلى التجديد واقتباس المعانى والأفكار والأساليب الحديثة، فزاد شعره طلاوة ورنينًا موسيقيًا حبّباه إلى النفوس وجعلا بعض قصائده أشبه بالأغانى والتغاريد.

الوطنية فى شعر حافظ

تتجلى الروح الوطنية ويتألق نورها فى شعر حافظ، ولقد وجدت الحركة الوطنية فى قصائده البديعة قوة تستمد منها الحماسة والصمود فى الجهاد، والثورة على الاحتلال.

كان شعره معينًا لا ينضب من الكفاح الوطنى، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه، ويلهمه الذود عن حريته واستقلاله، ولقد عبّر عن هذه العاطفة الملتهبة بقوله من قصيدة له سنة ١٩٠٠:

مَتَى أرَى النِّيلَ لا تَحْلُو مَوارِدُه　　لغير مُرْتَهِبٍ للَّهِ مُرْتَقِبِ

فقد غَدَت مِصرُ فى حالٍ إذ ذُكِرَتْ　　جادَتْ جفونى لها باللُّؤْلُؤِ الرَّطب

كأنّنى عندَ ذكرى ما ألمَّ بها　　قَرْمٌ تَرَدَّدَ بين المَوْت والهَرَبِ[1]

إذا نَطَقْتُ فقاعُ السِّجْنِ متَّكأً　　وإنْ سَكَتُّ فإنَّ النَّفْسَ لَم تَطِبِ

أيَنْتَكى الفَقْرَ غادِينا ورَائِحُنا　　ونحن نَمْشِى على أرضٍ من الذَّهب؟!

وقوله فى قصيدة له سنة ١٩٠٩:

لعمرك ما أرقتُ لغير مصر　　ومالى دونها أمل يرام

---

(١) القرم: أى الرجل الشجاع.

ذكرتُ جلالَها أيام كانت — تصول بها الفراعنة العظام
وأيامَ الرجالُ بها رجالٌ — وأيامَ الزمانُ لها غلام

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٠:

كَمْ ذا يُكابِدُ عاشقٌ ويُلاقى — فى حُبِّ مصرَ كثيرَةِ العُشَّاقِ
إنِّى لأَحْمِلُ فى هوَاكِ صَبَابةً — يا مصرُ قد خَرجَتْ عن الأطواق[1]
لَهفى عليكِ مَتَى أراك طليقةً — يَحْمِى كريمَ حِماكِ شَعْبٌ رَاقى
كَلِفٌ بِمَحْمود الخِلال متَيَّمٌ — بالبَذْل بين يَدَيْك والإنْفاق

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٩ نظمها فى (ملجأ الحرية):

فتَعاهَدْنا على دَفْعِ الأذَى — برُكوبِ الحَزْم حتّى نَظْفَرا
وتَواصَيْنَا بصبرٍ بَيْنَنَا — فَغدَونَا قوَّةً لا تُزْدَرَى
أنْشَرَتْ فى مصرَ شَعْبًا صَالحًا — كان قَبْلَ اليَوْم مُنْفكَّ العُرا[2]
كم مُحِبٍّ هائِمٍ فى حُبِّها — ذادَ عَنْ أَجْفَانِه سَرْحَ الكَرَى[3]
وشَابٍ وكُهولٍ أقْسَموا — أنْ يَشِيدُوا مَجْدَها فوْقَ الذُّرَا[4]

حافظ ومصطفى كامل

عاصر حافظ مصطفى كامل. وكان صديقًا له معجبًا بجهاده. رغم صداقته وصلته بخصومه السياسيين. وكان مصطفى شديد الإعجاب بشعره وأدبه. وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠١ قرظه فى «اللواء»[5] تقريظًا يدل على عظم تقديره لشاعر النيل وأسهب فى الثناء عليه سنة ١٩٠٣ حين عرّب كتاب (البؤساء) لفيكتور هيجو.

قصيدة حافظ
فى حفلة مدرسة مصطفى كامل

ويبدو إعجاب حافظ بمصطفى وجهاده فى قصيدته التى ألقاها يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ فى احتفال مدرسة مصطفى كامل تعليقًا على خطبة مصطفى. قال فى مطلعها:

---

(١) الأطواق جمع طوق: أى الجهد والطاقة.
(٢) أنشرت: أحيت.
(٣) الكرى: النوم.
(٤) الذرا: جمع ذروة وهى المكان المرتفع.
(٥) عدد ٩ أكتوبر سنه ١٩٠١.

سمِعنا حديثًا[١] كقطْر الندى | فجدَّد فى النفس ما جددا
وأضحى لآمالنا منعِشًا | وأمسى لآلامنا مُرْقِدا

وقال يستثير فى النفوس روح الأمل والحياة وهى الدعوة المحببة إلى الفقيد:

فدنياكَ يا شرقُ لا تجزعنْ | إذا اليوم وَلَّى فراقبْ غدا
فكم محنةٍ أعقبتْ محنةً | وولَّت سِراعًا كرجعْ الصدى
فلا يُبْئِسَنَّكَ قِيلُ العداة | وإن كان قيلا كَحزِّ المُدى[٢]
أتودَع فيك كنوزُ العلوم | ويمشى لك الغرب مسترفدا[٣]
وتُبعثُ فى أرضك الأنبياءُ | ويأتى لك الغرب مسترشدا
وتقضى عليكَ قضاة الضلال | طِوالَ الليالى بأن تُرقدا؟
أتَشْقى بعهد سما بالعلوم | فأضحى للضعيف بها أيِّدا[٤]
إذا شاء بَزَّ للسُّها سِرَّه | وأدرك من جَرْيه المقصِدا[٥]
وإن شاء أدنى إليه النجوم | فناجى المَجَرَّةَ والفرقَدا[٦]
وإن شاء زعزع شُمّ الجبال | فخرت لأقدامه سُجَّدا
وإن شاء شاهد فى ذرَّةٍ | عوالم لم تُحْىَ فيها سدى
وما تُسَخَّر فيه الرياح | ويَغْدو الجماد به منشِدا[٧]
وتَعْنوا الطبيعةُ للعارفين | بمعنى الوجود وسِرِّ الهُدَى
إذا ما أهابوا أجابَ الحديدُ | وقام البخارُ له مُسْعِدا[٨]
وطارتْ إليهم من الكهرباء | بروقٌ عَلى السّلك تَطوِى المدَى

* * *

أيَجْمل من بعد هذا وذاك | بأن نَسْتكين وأن نَجْمُدا؟

---

(١) يقصد خطبة مصطفى كامل فى الحفلة.
(٢) المدى بالضم جمامدية: وهى السكين.
(٣) مسترفدا: أى يطلب الرفد وهو العطاء.
(٤) الأيد، بتشديد الياء: القوى، من الأيد بمعنى القوة.
(٥) بزه سلبه، والسها الكوكب المعروف، أى إذا ساء ذو العلم سلب من السهى سره وأظهره للناس.
(٦) المجرة والفرقد: نجوم فى السماء.
(٧) يشير إلى الطيران والفوتوغراف.
(٨) مسعدا: أى معينا.

وهـا أمـة (الصُّفـر) قـد مَهَّـدَت لنـا النهـجَ فـاستبقـوا المـوردا[1]

وقال فيها مخاطبا الشباب:

فيـا أيهـا النـاشئـون اعملوا علـى خير مصر وكـونـوا يـدا
ستُظهِر فيكم ذوات الغيـوب[2] رجـالاً تكـون لمصـر الفِـدا
فيـاليـت شعـرىَ مـن منـكُم إذا هى نـادت يلبّـى النـدا؟

وقال فى ختامها مخاطبا مصطفى كامل:

لَـكَ الله يـا (مصـطفى) من فتىً كـثـير الأيـادى كثـير العـدا
إذا مـا حمـدتُـكَ بـين الـرجـال فـأنـت الخليـقُ بـأن تُحْمـدا
سيحصِى عليـك سجـلُّ الـزمـان ثـنـاءً يُخـلِّـد مـا خُـلِّدا
ويهـتـف بـاسـمـك أبنـاؤنـا إذا آن لـلزرع أن يُحـصَـدا

والقصيدة من أبلغ شعر حافظ. وتأمل فى البيت الأخير منها تجد حافظا يقر لمصطفى بأنه الموجد للحركة الوطنية، وأنه الجدير بأن تعرف الأمة له هذا الفضل عندما تجنى ثمار هـذه الحركة. وقد ظل على هذا الرأى بعد وفاة الفقيد وبعد ظهور زعامة سعد زغلول للحركـة الوطنية سنة ١٩١٩. وجهر به فى رثائه للمرحوم محمد فريد فى ديسمبر سنة ١٩١٩، إذا قال مناجيا روح فريد:

قـلْ (لصبّ النيـل)[3] إن لاقيتَـه فى جـوار الـدائم الفـرد الصمَّـدْ
إن مِصـرًا لا تَنِى عن قصـدهـا رغمَ مـا تلقى وإن طـال الأمـدْ
جئتُ عنهـا أحمـل البشـرى إلى (أول البـانـين) فى هـذا البلدْ
فـاستـرحْ واهنـأ ونم فى غِبـطةٍ قـد بـذرت الحب والشعبُ حَصَـدْ

فحافظ يعترف هنا أيضًا لمصطفى بأنه أول البانين فى صرح الحركة الوطنية، وبأنه بذر الحب وأن الشعب حصد وجنى نمار ما بذر. ورأى حافظ سنة ١٩١٩ هو تأييد وتوكيد لرأيه سنة ١٩٠٦.

---

(١) أمة الصفر: أى اليابان.
(٢) ذوات الغيوب: أى الأقدار التى فى عالم الغيب.
(٣) يريد مصطفى كامل.

قصيدة حافظ فى حادثة دنشواى

لقيت حادثة دنشواى[1] صداها فى شعر حافظ، فنشر فى ٢ يوليه سنة ١٩٠٦ - أى بعد صدور الحكم فيها بخمسة أيام - قصيدته المشهورة عن الحادثة. ندد فيها بسياسة الاحتلال، وسبق بها شوقى بعام، إذ أن شوقى لم يقل قصيدته عن الحادثة إلا بعد عام من وقوعها.

قال حافظ فى مطلع قصيدته مخاطبا المحتلين:

أيها القائمون بالأمر فينا! هل نسيتم وَلاءنا والودادا؟!
خفِّضوا جيشكم وناموا هنيئا وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أَعْوَزَتْكُم ذاتُ طوْقٍ[2] بين تلك الرُّبا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواءٌ لم تُغادرْ أطواقُنا الأجيادا[3]
لا تظنّوا بنا العقوق ولكن أرشدونا إذا ضللنا الرَّشادا
لا تُقيدوا منْ أمَّةٍ بقتيلٍ صادت الشمسُ نفسَه حين صادا[4]

وقال يصف الحادثة وفظائع المحاكمة والتنفيذ:

جاء جُهّالنا بأمرٍ وجئتم ضِعْف ضعفيه قسوةً واشتدادا
أَحسِنوا القتل إن ضننتمْ بعفوٍ أقِصاصًا أردتم أم كيادا؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفوٍ أنفوسًا أصبْتم أم جمادا؟

* * *

ليت شعري أتلك (محكمة التفـ ـتيش)عادت أم عهْد(نيرون)عادا؟
كيف يحلو من القويِّ التَّشفِّى من ضعيفٍ ألقى إليه القيادا؟
إنها مُثْلةٌ تشفُّ عن الغيـ ـظ ولسنا لغيْظكم أندادا
أكْرِمونا بأرْضنا حيث كنْتم إنّما يُكرم الجوادُ الجوادا
إنّ عشرين حِجّةً بعد خمسٍ علمتنا السُّكون مهما تمادى

---

(١) راجع تفصيلها فى كتابنا (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية).

(٢) ذات طوق: أى الحمامة.

(٣) الأطواق هنا سلاسل الأسر والاستعباد والأجياد الأعناق، جمع جيد.

(٤) أى لا تأخذوا الأمة بقتيل ثبت أنه مات بضربة الشمس، وهو الكابتن بول.. وأقاد الحاكم القاتل بالقتيل أى قتله به قودا.

أمَّـةُ النيـل أكْبـرت أن تُعـادى　　مَنْ رمـاهـا وأشْفقت أن تُعـادَى
لـيس فـيـهـا إلاّ كـلامٌ وإلاّ　　حشْـرةٌ بعـد حسـرةٍ تتهـادى

وقال مخاطبا المدعى العمومى فى القضية:

أيّهـا المـدَّعى العمـومىُّ[١] مهـلاً　　بعضَ هـذا فقـد بلغـت المـرادا
قـد ضمنّـا لـك القضـاء بمصـرٍ　　وضـمنّـا لـنـجـلك الإسـعـادا
فـإذا مـا جلسْت للحكـم فـاذكـرْ　　عهـد (مصـر) فقـد شفيت الفؤادا
لا جرى النيلُ فى نـواحيكِ يـا (مصـرُ) ولا جـادكِ الحَيـا حيث جـادا[٢]
أنتِ أنبَتِّ ذلـك النَّبْتَ يـا (مصـر) فـأضْحى عليك شـوكًـا قَتـادا
أنـت أنبـتِّ نـاعِـقًـا قـام بـالأمـ　　ـس فـأدْمَـى القـلوبَ والأكْبـادا

* * *

إيـهِ يـامِـدْرَهَ القضـاء ويـا مَنْ　　سـاد فى غَفْلَة الـزَّمـان وشـادا
أنتَ جـلاّدُنـا فـلا تَنْس أنّـا　　قـد لبسنا عـلى يديـك الحـدادا

والقصيدة كما ترى من أروع ما قال حافظ، وفيها تصوير لتلك الحادثة الفظيعة التى أظهرت مبلغ الظلم البريطانى ومبلغ هوان المصرى فى نظر الاحتلال، ولقد حمل حافظ بأسلوبه اللاذع القوى على هذا الظلم حملات اهتزت لها أركانه، كما حمل على الضعف الذى كان من أسباب استفحال هذا الظلم. فكانت هذه الحملة دعوة صادقة إلى اطراح الضعف والأخذ بـأسباب النهوض والقوة فى محاربة الاحتلال.

قصيدته فى استقبال اللورد كرومر

بعد حادثة دنشواى

وعاد يصف فظائع الاحتلال فى حادثة دنشـواى فى قصيدة لـه قالهـا فى أكتوبـر سنة ١٩٠٦ لمناسبة عودة اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى أجازته وكان صاحب الحـول والطول وقتئـذ فى البلاد.

(قصـرَ الدُّبـارة)[٣]هل أتـاك حديثُنـا　　فـالشـرقُ رِيـعَ لـه وَضـجَّ المغـربُ

---

(١) إبراهيم الهلباوى.
(٢) الحيا: المطر.
(٣) يريد دار المعتمد البريطانى.

أهلاً بساكنك الكريم ومَرحبًا ... بعد التحية إننى أتعتَّب
نَقَلَتْ لنا الأسلاكُ عنك رسالةً ... باتَتْ لها أحشاؤنا تتهلّب

إلى أن قال:

إنْ ضاقَ صدر النيل عمّا هالَه ... يوم الحَمام فإن صدرك أرحب[١]
أو كلما باح الحزين بأنَةٍ ... أُمْسَت إلى معنى التعَصّب تُنسب[٢]
رفقًا عميدَ الدولتين بأمة ... ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
رِفقًا عميدَ الدولتين بأمة ... ليست بغير ولائها تتعذب
إن أرهقوا صيَّادكم فلعلهم ... للقوت لا للمسلمين تعصبوا
ولربما ضَنَّ الفقيرُ بقوته ... وسخا بمهجته على من يَغصِب
فى (دنشواى) وأنت عنا غائب ... لَعِب القضاءُ بنا وعزَّ المهرَب
حسِبوا النفوسَ من الحمام بديلةً ... فتسابقوا فى صيدهن وصوَّبوا
نُكبوا وأقفرت المنازل بعدَهم ... لو كنتَ حاضرَ أمرهم لم يُنكبوا!
خَلَّيتهم والقاسطون[٣] بمرصدٍ ... وسياطُهم وحبالُهم تتأهب
جُلدوا ولو منَّيتهم لتعلقوا ... بحبال من شنقوا ولم يتهيَّبوا
شُنِقوا ولو منحوا الخيار لأهلّوا ... بلظى سياط الجالدين ورحبَّوا[٤]
يتحاسدون على الممات وكأسُه ... بين الشفاهِ وطعمهُ لا يَعذُب
موتان: هذا عاجلٌ متنمرٌ ... يرنو وهذا آجلٌ يترقَّب
والمستشار[٥] مكاثِرٌ برجاله ... ومعاجزٌ ومناجزٌ ومحزِّب
يختال فى أنحائها متبسمًا ... والدمع حول ركابه يتصبب
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا ... هو خير ما يرجو العميد ويطْلب
حبٌّ يحاولُ غرسه فى أنفس ... يُجنىَ بغرسها الثناءُ الطيب

---

(١) يوم الحمام أى يوم صيد الحمام فى حادثة دنشواى.
(٢) يشير إلى ما زعم اللورد كرومر من أن التعصب الدينى هو سبب حادثة دنشواى.
(٣) القاسطون الظالمون.
(٤) أهلوا ورحبوا أى قالوا أهلا ومرحبا.
(٥) يريد الكبتن متشل مستشار وزارة الداخلية. وكان يشرف على تنفيذ الحكم ومعاجز من عاجزت الرجل إذا أتيت بما يجعله عاجزا. وحزب أى جمع أعوانه وأحزابه فبعضهم يتولى الشنق وبعضهم يتولى الجلد.

كن كيف شئتَ ولا تكلْ أرواحنا ... للمستشار فإن عدلك أخصب
وأفِضْ على (بُندٍ)[١] إذا ولى القضا ... رفقًا يهشّ له القضاء ويطرَب

قصيدته فى شكوى مصر من الاحتلال

قالها فى يناير سنة ١٩٠٧:

لقد كان فينا الظلمُ فوضى فهُذِّبَت ... حواشيه حتى بات ظلمًا منظما
تَمُنُّ[٢] علينا اليوم أن أخضب الثرى ... وأن أصبح المصرىُّ حُرًّا منعما
أعِدْ عهد (إسماعيل) جَلْدًا وسخرة ... فإنى رأيتُ المَنَّ أنكى وآلما
عملتم على عِزِّ الجماد وذُلِّنا ... فأغليتمُ طينًا وأرْخصْتُم دما
إذا أخصبتْ أرضٌ وأجدب أهلها ... فلا أطلَعتْ نبتًا ولا جادَها السَّما
نَهشُّ إلى الدينار حتى إذا مشى ... به ربه للسوق ألفاهُ درهما
فلا تحسبوا فى وَفرة المال – لم تُفدْ ... متاعًا ولم تعصم من الفقر – مَغنما
فإن كثير المال – والخفضُ وارفٌ ... قليلٌ إذا حلَّ الغلاءُ وخيَّما[٣]

قصيدته فى استقالة اللورد كرومر

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهُدى ... فلاتكذب التاريخ إن كنت منشدا
لقد حان توديعُ العميد وإنة ... حقيق بتشييع المحبّين والعِدا
فودّعْ لنا الطودَ الذى كان شامخا ... وشيِّع لنا البحرَ الذى كان مُزبِدا

إلى أن قال:

يناديكَ قد أزريت بالعلم والحجا ... ولم تُبقِ للتعليم يا (لورد) معهَدا
وأنك أخصبتَ البلاد تعمُّدا ... وأجدبت فى مصر العقول تعمدا
قضيتَ على أمّ اللغات وإنه ... قضاء علينا أو سبيلٌ إلى الردى[٤]

---

(١) المستر بوند وكيل محكمة الاستئناف وأحد قضاة المحكمة المخصوصة التى حاكمت المتهمين فى حادثه دنشواى وكان القاضى الموجه للأسئلة ونمت أسئلته على سوء نيته وميله إلى الانتقام والتشفى.

(٢) يخاطب المعتمد البريطانى.

(٣) الخفض سعة العيش. يريد أن كثرة المال مع غلاء الأسعار لاتغنى شيئا

(٤) أم اللغات أى اللغة العربية. يشير إلى محاربة الاحتلال للغة العربية وجعل دراسة العلوم فى أكثر المدارس باللغة الإنجليزية.

ووافَيتَ والقطران فى ظل رايةٍ — فمازلت (بالسودان) حتى تمردا
فطاح كما طاحت (مصوَّع) بعده — وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى
حَجَبتَ ضياء الصحف عن ظُلماته — ولم تستقل حتى حجَبتَ (المؤيدا)[١]
وأودعتَ تقرير الوداع مغامزًا — رأينا جفاء الطبع فيها مُجسدًا
غمرتَ بها دينَ النبى وإننا — لنغضب إن أغضبتَ فى القبر (أحمدا)

* * *

يناديك أين النابغون بعهدكم — وأى بناء شامخ قد تجددا؟
فما عهد إسماعيل والعيش ضّيقٌ — بأجدب من عهد لكم سال عَسْجدا
يناديك ولّيتَ الوزارة هيئةً — من الصمِّ لم تَسمعْ لأصواتنا صدى
فليس بها عند التشاور من فتىً — أبِّي إذا ما أصدر الأمر أوردا
بربك ماذا صدَّنا ولوى بنا — عن القصد إن كان السبيل ممهدا؟
أشرت برأيٍ فى كتابك لم يكن — سديدًا ولكن كان سهمًا مسددًا
وحاولت إعطاء الغريبِ مكانةً — تجر علينا الويلَ والذُّلَّ سرمدا
فياويل مصرٍ يوم تشقى بندوةٍ — يبيتُ بها ذاك الغريب مسوَّدا[٢]

* * *

ألم يكفنا أنا سُلبنا ضياعَنا — على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحَمَنَا فى العيش كل ممارسٍ — خبير وكنا جاهلين ورُقَّدا
وما الشركات السود فى كل بلدة — سوى شَركٍ يُلقى به من تَصَيّدا

قصيدته فى استقبال السير جورست

استقال اللورد كرومر أو أقيل من منصبه فى أبريل سنة ١٩٠٧ على أثر حادثة دنشواى، وخلفه فى منصبه السير إلدون جورست، فاستقبله حافظ بقصيدة عبر فيها عن شكوى مصر من الاحتلال وآثامه، قال فيها فى أسلوب التهكم والسخرية:

---

(١) حجبت المؤيد أى منعته من دخول السودان.

(٢) يشير إلى مشروع اللورد كرومر فى إنشاء مجلس تشريعى مختلط.

أذيقونا الرَّجاء فقد ظمِئْنا – بعهدِ المصلحين – إلى الورودِ
ومُنّوا بالوجود فقد جهلنا – بفضل وجودكم – معنى الوجود
إذا أعْلوْلَى الصياح فلا تلمنا فإنَّ الناس فى جُهْدٍ جهيد[١]
على قدْر الأذى والظلم يعلو صياح المشفقين من المزيد!
جِراحٌ فى النفوس نَغَرْنَ نَغْرًا وكُنَّ قد اندملن على صديد[٢]
إذا ما هاجهنَّ أسًى جديدٌ هتكْنَ سرائر القلب الجليد

إلى أن قال:

فما جئنا نطاولكم بجاهٍ يطولكم ولا رُكْنٍ شديد
ولكنّا نطالبكم بحقٍّ أضرَّ بأهله نقضُ العهود

وعاد إلى ذكر حادثة دنشواى وكيف كانت مبعث اليقظة والحياة للحركة الوطنية:

رمانا صاحب التّقرير ظلمًا بكفران العوارف والكنود[٣]
وأقسم لا يجيب لنا نداءً ولو جئننا قرآن مجيد
وبَشَّرَ أهل مصرٍ باحتلالٍ يدوم عليهم أبد الأبيد
وأنبت فى النفوس لكم جفاءً تعهّدَه بمنْهلّ الصدُّود
فأثمرَ وحشة بلغت مَداها وزكّاها بأربعةٍ شهود[٤]
قتيلُ الشمس أورثنا حياةً وأيقظ هاجعَ القوْم الرُّقود[٥]
فلَيت (كُرومَرًا) قد دام فينا يُطوِّق بالسلاسل كلَّ جيد
و يُتْحِف (مصر) آنًا بَعْدَ آنٍ بمجْلودٍ ومقتولٍ شهيد
لِيَنزع هذه الأكفان عنّا ونُبْعَث فى العوالم من جَديد

رثاؤه لمصطفى كامل

فى يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ حين شيعت مصر جنازة مصطفى كامل وقف حافظ على قبره وأنشد قصيدته الرائعة فى رثائه قال:

---

(١) اعلولى أى علا.

(٢) نغر الجرح سال دمه، واندمل التأم

(٣) صاحب التقرير هو اللورد كرومر.

(٤) يريد بالشهود الأربعة أعدموا فى قضية دنشواى وهم أربعة.

(٥) قتيل الشمس هو الكابتن بول الضابط الإنجليزى الذى مات فى حادثة دنشواى بضربة الشمس، يريد أن ما أصاب الناس من التنكيل بسبب هذا القتيل جعلهم يثورون للمطالبة بالحرية.

أيــا قــبرُ هــذا الضيف آمــالُ أمــة ... فكــبِّرْ وهلل والق ضيفــك جــاثيًــا
عــزيزٌ علينــا أن نرى فيــك مصـطفى ... شهيـدَ العُـلا فى زهـرة العمـر ذاويًــا
أيــا قــبر لــو أنــا فقــدنــاه وحــده ... لكان التأسى من جوى الحزن شافيًا[1]
ولكن فــقــدنــا كــل شىء بـفقــده ... وهيهـات ان يـأتى بـه الـدهـر ثـانيـا
فيــا سـائــلى أين المـروءة والــوفـا ... وأين الحِجَـا والرأى؟ ويحْـك هـاهيـا!
هنيئًـا لهم[2] فليـأمنـوا كـل صــائـح ... فقد أسكت الصوتُ الـذى كان عـاليا
ومـات الـذى أحيـا الشعـور وسـاقـه ... إلى المجـد فاستحيـا النفوس البـواليا

* * *

مـدحتـكَ لمـا كنت حيًّـا فلم أجِـدْ ... وإنى أجِيـدُ اليـوم فيـك المـراتيــا
عليك[3] وإلا مالـذا الحزن شـاملاً ... وفيـك وإلاَّ مـالـذا الشعبِ بـاكيـا
يمـوت المداوى للنفـوس ولا يُـرَى ... لمـا فيه من داء النفـوس مـداويـا
وكنـا نيامًـا حينما كنت سـاهـدًا[4] ... فـأسهدتنـا حُزنًـا وأمسيت غـافيًـا

* * *

شهيـد العـلا لا زال صــوتـك بيننــا ... يَـرِنُّ كـما قـد كـان بــالأمس داويـا
يُهـيبُ بـنــا: هــذا بـنــاء أقـمـتُـه ... فـلا تهـدموا بـالله مــا كنت بـانيــا
يصيــح بنـا: لاتشعــروا النـاس أننى ... قَضَيْتُ وأن الحىَّ قــد بـات خــاليــا
ينــاشــدنــا بــالله ألا تَـفَــرقــوا ... وكـونـوا رجـالاً لا تَسـرُّوا الأعـاديـا
فَــرُوحـى من هــذا المـقــام مــطلةٌ ... تُشــارفكم[5] عنى وإن كنت بــاليــا
فــلا تحـزنــوهــا بــالخــلاف فــإنى ... أخـاف عليكم فى الخـلاف الـدواهيـا

* * *

أجـل أيها الـداعى إلى الخير إننـا ... على العهد مـادمنا فنم أنت هـانيا
بنــاؤك محفـوظ وطيفــك مـائــلٌ ... وصـوتكَ مسمـوعٌ وإن كنت نائيـا

---

(١) التأسى بمعنى الصبر.
(٢) يريد الإنجليز.
(٣) عليك: أى عليك الحزن.
(٤) ساهدا: ساهرا.
(٥) تشارفكم أى تنظر إليكم من علو.

عَهِدناك لاتبكى و تُنكر أن يُرىَ | أخو البأس فى بعض المواطن باكيا
فَرخِّص لنا اليوم البكاء وفى غد | ترانا كما تهوى جبالا رواسيا
فيانيل إن لم تجْرِ بعد وفاته | دمًا أحمرًا لا كنت يانيل جاريا
ويا(مصر) إن لم تحفظى ذكر عهده | إلى الحشر لازال انحلالك باقيا
وياأهل(مصر) إن جهلتم مصابكم | ثِقوا أن نجم السعد قد غارَ هاويا

* * *

ثلاثون عامًا[١] بل ثلاثون درَّة | بجيد الليالى ساطعاتٍ زواهيا
ستشهد فى التاريخ أنك لم تكن | فتىً مفردًا بل كنتَ جيشًا مغازيا

قصيدته فى حفلة الأربعين

وله فى رثاء مصطفى قصيدة أخرى ألقاها فى حفلة الأربعين قال:

نَثَروا عليك نوادىَ الأزهار[٢] | وأتيت أنثر بينهم أشعارى
زيْنَ الشباب وزَيْنَ طلَّاب العُلا | هل أنتِ بالمهجِ الحزينة دارى؟
غادرتَنا والحادثاتُ بمرْصد | والعيشُ عيشُ مذلة وإسارِ
ما كان أحوجنا إليك إذا عَدا | عادٍ وصاح الصائحون: بدار
أين الخطيب وأين خَلَّابُ النُّهى؟ | طال انتظار السمع والأبصار
بالله مالك لا تجيب مناديا | ماذا أصابك يا أبا المغوار؟
قمْ وامحِ ماخَطّتْ يمين (كرومر) | جَهْلًا بدين الواحد القهار
قد كنتَ تغضب للكنانة كلما | هَمَّتْ وَهم رجاؤها بِعثار
غضب التَّقِّى لربِّه وكتابِه | أو غَضْبَة (الفاروق للمختار)[٣]
قد ضاق جسمك عن مداك فلم يُطِق | صبرًا عليك وأنْتَ شُعْلةُ نار
أودى به ذاك الجهادُ وهدَّه | عزمٌ يهدُّ جلائل الأخطار
لِعَبتْ يمينك باليراع فأعجزت | لعب الفوارس بالقنا الخطّار[٤]
وجريْتَ للعلياء تبغى شأوها | بدرتْ إليه غوائل الأقدار؟

* * *

(١) إشارة إلى عمر الفقيد وهو رقم تقريبى لأنه توفى فى الرابعة والثلاثين من عمره.
(٢) نوادى الأزهار: أى الرطبة المبللة بالندى.
(٣) الفاروق: عمر بن الخطاب، والمختار: النبى عليه الصلاة والسلام.
(٤) القنا: الرماح.

عــزَّ الـقــرارُ عــلىَّ ليلة نـعيــه ... وشهـدتُ مـوكبـه فقرَّ قــرارى[١]
وتســابقت فيـه النعــاةُ فــطائــرٌ ... بــالكهــربــاء وطــائــرٌ ببخــار
شـاهـدتُ يـوم الحشـر يـومَ وفـاتـه ... وعـلمت منــه مــراتبَ الأقــدار
ورأيت كيف تفى الشعـوب رجـالهـا ... حــقَّ الــولاء وواجـب الإكـبـار
تسعـون ألفًـا حـول نعشـك خُشَّعٌ ... يمشــون تحت (لــوائــك) السيَّــار
خـطوا بـأدمعهم عـلى وجـه الثـرى ... لــلحــزن أســطارًا عــلى أســطار
آنـًـا يُـوالــون الضجيــجَ كـأنهم ... ركـب الحجيــج بكعبــة الــزُّوار
وتخــالُهم آنـًـا لفــرط خشــوعهـم ... عنــد المُصــلَّى ينصتــون لقــارى
غلب الخشــوع عليهم فـدمــوعهم ... تجــرى بــلا كـلح[٢] ولااستـنـتــار
قــد كنت تحت دموعهم وزفيــرهم ... مــا بــين ســيــل دافـق وشَــرار
أسعى فيــأخــذنى اللهيب فـأنثنى ... فـيـصـدنى مـتـدفـق الـتـيــار
لــو لم ألُـذْ بــالنعش أو بـظلالـه ... لقضيتُ بــين مــراجِــلٍ وبـخــار

* * *

كم ذات خـدرٍ يوم طـاف بك الـردى ... هتكتْ عليــك حــرائــرَ الأستــار
سَـفــرتْ تــودع أمَّــةً محــمــولــة ... فى الـنعش لا خبــرًا من الأخـبــار
أمِنَتْ عيــون النــاظــرين فمــزَّقَتْ ... وجــهَ الخِمــار فلم تَـلُذْ بخـمــار[٣]
قــد قـام مــا بـين العيــون وبينهــا ... ســترٌ مــن الأحــزان والأكــدار

* * *

أدْرجتَ فى العَـلَم الـذى أصْفَيْتـه ... منــك الـوداد فكــان خـيرَ شعــار
عَلَمــان[٤]من فوق الـرؤس كـلاهمـا ... فى طــيِّــة سِــلر مــن الأســرار
نــاداهمـا داعى الفــراق فـأمْسيـا ... يتعــانـقــان عــلى شفــير هــارى
تــالله مــا جــزع المحب ولا بـكى ... لِــنَــوىً مــروَّعــةٍ وبعــد مــزار
جـزع (الهـلال) عليـك يـوم تـركتـه ... مــا بــين حَــرٍّ أسىً وحَــرٍّ أوار[٥]
مــتــلـفــتــا متـحيِّــرًا متـخيِّــرا ... رجــلا ينـاضــل عنه يــوم فخــار
إن الثـلاثـين التى بــك فـاخـرت ... بــاتتْ تُقـاس بــأطـول الأعمــار

(١) أى استقرت نفسه بعد أن شهد وفاء الأمة للفقيد فى موكب الجنازة.
(٢) الكلح العبوس أى تجرى الدموع بطبيعتها بلا عبوس.
(٣) الخمار: الحجاب.
(٤) يريد بالعلمين الفقيد فهو علم الوطنية والثانى علم الوطن.
(٥) الأسى: الحزن؛ والأوار: الظمأ والتعطش، أى التعطش إلى الفقيد.

ضمتْ إلى التاريخ بضعَ صحائف ... بيضاء مثل صحائف الأبرار
شَبَّهتهُنَّ بنقطة عِطرية ... وسعت محصل روضةٍ مِعطار[١]
خَلَّفتها كالمشْق يحذو حَذْوها ... راجى الوصول ومقتفى الآثار
ماذا على السارى وهُنَّ[٢] منائرٌ ... لو سار بين مجاهل وقفار

* * *

مازلت تختارُ المواقف وَعْرة ... حتى وقفت لذلك الجبَّار[٣]
وهدمت سورًا قد أجاد بناءه ... فرعون[٤] ذو الأوتاد والأنهار
ووصلت بين شكاتنا ومشايخ ... فى (البرلمان) أجلةً أخيار
كشفوا الغطاء عن العيون فأبصروا ... مافى الكنانة من أذى وضِرار
نبذوا كلام (اللورد) حين تبينوا ... حَنَقَ المغيظ ولهجة الشرثار
ورماهُم بمجلدين[٥] رَمَوْهُما ... فى رتبة الأصفار لا الأسفار

* * *

واهًا على تلك المواقف إنها ... كانت مواقف ليت غابٍ ضارى
لم يَلْوه عنها الوعيدُ ولا ثَنى ... من عزمه قولُ المريب: حذار
فاهنأ بمنزلك الجديد ونَمْ به ... فى غِبطةٍ وانعم بخير جوار
واستقبل الأجرَ الكبير جزاء ما ... ضَحَّيتَ للأوطان من أوطار
نِعْمَ الجزاء ونعم ما بلغته ... فى منزليك[٦]ونعم عقبى الدار

قصيدته فى الذكرى الأولى للفقيد

وله قصيدة ثالثة ألقاها عند قبره يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ فى الاحتفال بإحياء ذكراه الأولى، وهى من أبلغ روائع الشعر العربى، قال:

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا[٧] ... واقضوا هنالك ما تقضى به الذمم

---

(١) الروضة المعطار: هى الكثيرة الأزهار والرياحين.
(٢) هن إشارة إلى الثلاثين عاما: أى ماذا على السارى فى المجاهل والقفار إذا اهتدى بنور هذه الأعلام.
(٣) اللورد كرومر.
(٤) شبه كرومر بفرعون.
(٥) يريد بالمجلدين كتاب مصر الحديثة للورد كرومر.
(٦) أى الدنيا والآخرة.
(٧) استلم القبر: قبله أو لمسه بيده.

هنا جنانٌ تعالى الله بارئه ... ضاقت بآماله الاقدار والهمم
هنا فَمٌ وبنانٌ لاح بينهما ... فى الشرق فجرٌ تحييّ ضوءه الأمم
هنا فَمٌ وبنانٌ طالما نَترَا ... نثرًا تسير به الامثال والحِكَم
هنا الكمِى[1] الذى شادتْ عزائمهُ ... لطالب الحق رُكنًا ليس ينهدم
هنا الشهيدُ هنا ربُّ اللواء هنا ... حامى الذِّمار هنا الشهْم الذى علموا

* * *

يا أيها النائم الهانى بمضجعَه ... لَيهْنك النوم لاهَمٌّ ولا سقَم
باتت تسائلنا فى كل نازلة ... عنكَ المنابر والقرطاس والقلم
تركتَ فينا فراغًا ليس يَشغَله ... إلا أبىٌّ ذكىٌّ القلب مضطرم
منَّفر النوم[2] سَّباقٌ لغايته ... آثاره عَممٌ آماله أممُ

* * *

إنى أرى وفؤادى ليس يكذبنى ... روحًا يحفُّ بها الإكبارُ والعظَم
أرى جلالاً أرى نورًا أرى مَلَكًا ... أرى مُحيًّا يحيينا ويبتسم
الله أكبر هذا الوجهُ أعرفهُ ... هذا فتى النيل هذا المُفْرد العَلَم
غضُّوا العيون وحيُّوه تحيتَه ... من القلوب إذا لم تُسعد[3] الكلم
رأقسِموا أن تذودوا عن مبادئه ... فنحن فى موقف يحلو به القسم

* * *

لبيك نحن الأولى حركَت أنفسَهم ... لما سكنْتَ ولما غالك العَدَمُ
جئنا نؤدى حسابًا عن مواقفنا ... ونستمد ونستعْدى[4] ونحتكم
قيل اسكتوا فسكتنا ثم أنطقنا ... عفُ الجفاة[5] وأعلىَ صوتنا الألم
قد اتُّهِمْنا ولما نَطَّلبْ جللاً ... إن الضعيف على الحالين مُتهم
قالوا لقد ظَلموا بالحق أنفسهمْ ... والله يَعلمُ أن الظالمين هُمُ
إذا سكتْنا تَناجوْا: تلك عادَتهمْ ... إن نطقنا تَنادَوا: فتْنةٌ عَمَم

* * *

---

(١) الشجاع.
(٢) منفر النوم أى مسهد.
(٣) أسعده: أعانه.
(٤) نستمد: نطلب المدد ونستعدى: نستنصر.
(٥) يريد بالجفاة المحتلين الجناة.

قد مَرَّ عامٌ بِنا والأمرُ يحْزُبنا[١] آنًا وآونـةً نـنـتـابـنـا النِّـقـم
فالناس فى شدَّةٍ والدَّهر فى كلبٍ[٢] والعَيْشُ قد حارَ فيه الحاذِقُ الفهِم
ولـلـسيـاسـةِ فـيـنـا كـلُّ آونـةٍ لـوْنٌ جديـدٌ وعهد ليس يُحتَـرم
بينا نرى جَمـرهَا تخشى مَـلامسهُ إذا به عند لَمس المصطلَى فَحَمُ
تصغى لأصـواتنا طـورًا لتخدَعنـا وتـارةً يـزْدَهيهـا الكِـبَرُ والصمَّم
فمن مـلاينَـةٍ استـارُهـا خـدعٌ إلى مصـالبـةٍ استـارُهـا وهَم

* * *

ماذا يريدون[٣]؟ لا قرَت عيونهم إن الكنـانة لا يُـطوى لها عَلَم
كم امة رغبتْ فيها فما رسخت لها - على حولها[٤] - فى ارضها قدم
ما كانِ ربك ربُّ البيت تاركها وهى التى بحبـالٍ منـه تعتصم

* * چث

لبيك إنا عـلى ما كنت تعهـده حتى نسـود وحتى تشهـد الأمم
فيعلَم النيل أنا خيرُ من وَرَدوا ويستـطيـل اختيـالاً ذلـك الهـرم

إلى أن قال:

يا أيها النشء سيروا فى طريقته وثابروا: رضى الأعداءُ أو نقموا
فكلكم (مصطفى) لوسـار سيرتَـه وكلكم (كامل) لـوجازه[٥] السَّـأم
قد كان لاوانيًا يومًا ،ولا وَكِلاً[٦] يستقبـل الخـطب بَسَّـامًـا ويقتحم
وأنت يا قبر قد جئنـا على ظمأٍ فجد لنا بجوابٍ جادك الدِّيَمُ[٧]
أين الشباب الذى أُودعتَ نضرته أين الخلال - رعاك الله - والشيم؟
ومـا صنعت بآمـالٍ لنا طُـويت يا قبر فيكَ وعفَّى رسمها القِدم؟
ألا جوابٌ يروّى من جوانحنا؟ ما للقبور إذا ما نوديت تَجمُ[٨]؟

---

(١) حزبه الأمر: اشتد عليه.
(٢) الكلب الشدة.
(٣) يريد المحتلين.
(٤) الحول: القوة.
(٥) جازه: أى جاوزه.
(٦) الوكل: العاجز الذى يكل الأمر إلى غيره.
(٧) الديم جمع ديمة السحاب.
(٨) وجم يجم سكت عن الىم.

نَمْ أنت يكفيك ما عانيت من تعب   فنحن فى يقظة والشمل ملتئم
هذا (لواؤك) خفّاقٌ يظللنا   وذاك شخصك فى الأكباد مُرتسم

تحية العام الهجرى

أعد الشباب فى سنة ١٩٠٩ (١٣٢٧ هجرية) احتفالا كبيرًا بالعام الهجرى الجديد تولى الطلبة تنظيمه برعاية نادى المدارس العليا، وكان احتفالا رائعا أقيم بدار التمثيل العربى مساء الجمعة غاية ذى الحجة سنة ١٣٢٦ (٢٢ يناير سنة ١٩٠٩) برآسة أحمد بك لطفى، وألقى فيه حافظ قصيدته المشهورة فى تحية العام الجديد. قال فى مطلعها:

أطلَّ على الأكوان والخلق تنظرُ   هلالٌ رآه المسلمون فكبَّروا
تجلّى لهم فى صورةٍ زاد حسنها   على الدهر حُسناً أنها تتكرر
وبَشّرهم مِن وجهه وجبينه   وغُرته والناظرين مُبشّر
وأذكرهم يومًا[1] اغرَّ محجلا   به تُوِّج التاريخ والسعدُ مُسفر
وهاجر فيه خيرُ داع إلى الهدى   يَحُف به من قوة الله عسكر
يُماشيه جبريلٌ وتسعى وراءه   ملائكةٌ ترعى خُطاه وتخفر
بيُسراه برهان من الله ساطعٌ   هدى وبيُمناه الكتاب المطهر
فكان على أبواب (مكة) رَكْبهُ   وفى (يثرب)[2] أنواره تَتَفَجَّرُ
مضى العام ميمونَ الشهور مباركا   تعدَّد آثارٌ له وتسطرٌ
مضى غيرَ مذموم فإن يذكروا له   هناتٍ فطبع الدهر يصفو ويكدرُ
وإن قيل اوْدى بالألوف اجابهم   مجيب لقد أحيا الملايين فانظروا
إذا قيس إحسان امرئً باساءةٍ   فأربى عليها فالإساءة تغفر
ففيه اقام النائمون وقد اتت   عليهم كأهل الكهف فى النوم اعصرُ
وفى عالم الإسلام فى كلِّ بقعة   له أثر باقٍ وذكرٌ معطر

وبعد أن سرد الحوادث فى مختلف البلاد الإسلامية طوال العام المنصرم، عرج على الحركة الوطنية فى مصر فحياها أحسن تحية وكان ترجمان الشعر والأدب فى تمجيدها وتأييدها، قال:

---

(١) يريد يوم هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة.
(٢) المدينة المنورة.

وفيه سرَتْ فى مصر روحٌ جديدةٌ ... مباركة من غيرة تتشعر
خبَتْ زمنا حتى توهمتُ أنها ... تجافت عن الإيراء لولا (كرومر)[١]
تصدّى فأوراها وهيهات أن يرى ... سبيلا إلى إخمادها وهى تزفر
مضى زمن التّنويم يا نيل وانقضى ... ففى مصر إيقاظٌ على مصر تَسهر
وقد كان «مرفين» الدهاء مخدرًا ... فأصبح فى أعصابنا يتخدر
شعرنا بحاجات الحياة فإن وَنت ... عزائمنا عن نيلها كيف نُعذَر؟
شعرنا وأحسنا وباتت نفوسنا ... من العيش إلا فى ذرا العز تسحر
إذا الله أحيا أمَّة لن يردَّها ... إلى الموت قهَّار ولا متجبر

وحيا الشباب بقوله:

رجالَ الغد المأمول إنا بحاجة ... إلى قادةٍ تَبنى وشعبٍ يعمِّر
رجال الغد المأمول إنا بحاجة ... إلى مصلح يدعو وداعٍ يذكِّر
رجال الغد المأمول إنا بحاجة ... إلى عالم يدرى وعلمٍ يقرِّر
رجال الغد المأمول إنا بحاجة ... إلى حكمة تملى وكف تحرِّر
رجال الغد المأمول إنا بحاجة ... إليكم فسدوا النقصَ فينا وشمروا
رجال الغد المأمول لا تتركوا غدًا ... يمر مرور الأمس والعيش أغبرُ
رجال الغد المأمول إن بلادكم ... تناشدكم بالله أن تتذكروا
عليكم حقوقٌ للبلاد أجلُّها ... تعهدُ روضِ العلم فالروض مقفر
قصارى مُنى أوطانِكم أن ترى لكم ... يدًا تبتنى مجدًا ورأسًا يفكر
فكونوا رجالا عاملين أعزة ... وصونوا حمى أوطانِكم وتحرروا

وعرج على حركة المطالبة بالدستور، قال:

وياطلبى (الدستور) لاتسكنوا ولا ... تبيتوا على يأس ولا تتضجروا
أعدوا له صدر المكان فإننى ... أراه على أبوابكم يتخطَّرُ
ولاتنطقوا إلا صوابًا فإننى ... أخاف عليكم أن يقال تهوَّروا
فما ضاع حق لم ينم عنه أهله ... ولا ناله فى العالمين مقصِّرُ

---

(١) خبت. خمدت، وتجافت: تباعدت. وإيراء النار. إشعالها. وكرومر هو المعتمد البريطانى فى ذلك الحين والحاكم المطلق فى مصر وقتئذ، يريد أن فظائع كرومر قد اشعلت روح الكراهية للاحتلال.

لقد ظفر الأتراك عدلا بسؤلهم[١] ... ونحن على الآثار لا شك نظفَر
هم لهم العام القديم مقدَّرٌ ... ونحن لنا العام الجديد مقدر

وقد قوبلت القصيدة بالتصفيق والإعجاب والحماسة البالغة من الحاضرين، وكان إلقاؤه رائعا أخاذا، ولبث فى إلقائه ساعة من الزمان كاملة.

وفى ١٢ يناير سنة ١٩١٠ أقام الشباب أيضا احتفالا فخما بعيد رأس السنة الهجرية (١٣٢٨) بمسرح (البيلوت باسك) بشارع عماد الدين، والقى فيه حافظ قصيدة من أبلغ شعره، قال فى مطلعها يحيى هلال العام الجديد:

لى فيكَ حين بَدَا سناكَ وأشْرَقا ... أملٌ سألتُ اللّهَ أن يتحققا

ثم ذكر العام الذى مضى وما أصاب مصر فيه من كوارث، قال:

اشْرقْ علينا بالسّعود ولا تكنْ ... كأخيك مشئومَ المنازل اخرقا

إلى أن قال ينعى حرية الصحافة ويذكر ما أصابها من الضغط والاضطهاد:

ورمى على أرض الكنانة جِرمَه ... بالنّازلات السُّود حتى ارهقا
حَصَدتْ مناجلُه غِراسَ رجائنا ... ولو أنها أبقتْ عليه لأوْرقا
فتقيَّدت فيه (الصحافةُ) عنوةً ... ومشى الهوى بين الرعية مُطلقا
وأتى يساوم فى (القناة) خديعةً ... ولو أنها تمت لتمَّ بها الشقَّا[٢]
إن البلية أن تُباع وتُشترى ... مصرٌ وما فيها وأن لا تنطقا
كانت تواسينا على آلامنا ... صحفٌ إذا نزل البلاء وأطبقا
فإذا دعوتُ الدمع فاستعصى بَكتْ ... عنا اسىً حتى تغصَّ وتشرقا
كانت لنا يوم الشدائد اسهمًا ... نرْمى بها وسوابقا[٣] يوم اللقا
كانت صِماما للنفوس إذا غلتْ ... فيها الهُموم وأوشكت أن تزهقا
كم نفست عن صدر حرٍّ واجد[٤] ... لولا الصمامُ من الأسى لتمزقا

---

(١) يريد إعلان الدستور فى تركيا عام ١٩٠٨.
(٢) يشير إلى مشروع مد امتياز قناة السويس، وقد ظهر فى أواخر سنة ١٩٠٩ ورفضته الجمعية العمومية، فى أبريل سنة ١٩١٠.
(٣) السوابق من صفات الخيل، أى كانت لنا عدة فى الجهاد.
(٤) الواجد: الحزين.

مالى انوح على الصحافة جازعًا ... ماذا ألمَّ بها وماذا احدَقا
قصوا حواشيها وظنوا أنهم ... امِنوا صواعقها فكانت أصعقا
وأتوْا بحاذقهم[١] يكيد لها بما ... يَثنى عزائمها فكانت أحذقا

وقال يخاطب الشباب ويهيب بهم أن يعملوا ليردوا إلى مصر مجدها واستقلالها:

أهلا بنابتة البلاد ومرحبًا ... جدَّدْتمُ العهد الذى قد أخلقا
لا تيأسوا أن تستردوا مجدكم ... فلربَّ مغلوبٍ هوى ثم ارتقى
مدتْ له الآمال من أفلاكها ... خيطَ الرجاء إلى العلا فتسلقا
فتجشَّموا للمجد كل عظيمةٍ ... إنى رأيت المجد صَعب المرتقى
من رام وصل الشمس حاك خيوطَها ... سببًا إلى آماله وتعلقا

* * *

عارٌ على ابن النيل سباق الورى ... مهما تقلب دهره أن يُسبقا
أوَ كلما قالوا تجمع شملهم ... لعب الشقاق بجمعنا فتفرقا
فتدفقوا حُججًا وحوطوا نيلكم ... فلكم أفاض عليكم وتدفقا
حملوا علينا بالزمان وصرْفه ... فتأنقوا فى سلبنا وتأنقا[٢]
هزُّوا مغاربها فهابت بأسهم ... يا ويلكم إن لم تهزوا المشرقا[٣]
فتعلموا فالعلم مفتاح العلا ... لم يُبق بابا للسعادة مغلقا
ثم استمدوا منه كل قواكم ... إن القوىَّ بكل أرض يُتَّقى
وابنوا حوالىْ حوضكم من يقظةٍ ... سورًا وخطوا من حذارٍ خندقا
وزِنوا الكلام وسدِّدوه فإنهم ... خَبَأوا لكم فى كل حرفٍ مزلقا
وامشوا على حذرٍ فإن طريقكم ... وعرٌ أطاف به الهلاكُ وحلقا
نصبوا لكم فيه الفخاخ وأرصدوا ... للسالكين بكل فج موبقا[٤]
الموت فى غشيانه وطروقه ... والموت كل الموت ألا يطرقا[٥]

---

(١) يريد بطرس غالى رئيس الوزراء، ولكن الحق أن تبعة ذلك يتحملها الوزراء جميعا لا بطرس غالى وحده.
(٢) أى حاربنا المحتلون بأحداث الزمان ونوائبه. وتأنق فى الأمر: أى بالغ فيه.
(٣) يشير إلى الإنجليز، أى أنهم مدوا سلطانهم فى دول الغرب. ويدعو المصريين إلى أن يجعلوا لمصر هذه المكانة فى الشرق.
(٤) الفج: الطريق، الموبق: الهلاك.
(٥) أى إذا كان فى الإقدام موت فإن فى الاستسلام موتًا أكبر.

فتحينـوا فـرصَ الحيـاة كثيـرة ... وتعجلوهـا بـالعـزائم وآلـرق
أو فـاخلقـوهـا قـادرين فـإنمـا ... فـرص الحيـاة خليقـة أن تخلقـا

مسألة قناة السويس

فى أواخر سنة ١٩٠٩ وأوائل سنة ١٩١٠ شغلت الرأى العام مسألة كبرى تتصل بحياة البلاد الاقتصادية والسياسية، وهى مشروع مدّ الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس أربعين عاما أخرى، وقد أثار هذا المشروع سخط الأمة واحتجاجها وطالبت بوقفه وبعرضه على «الجمعية العمومية» قبل البت فيه.

حركت هذه المسألة الهامة روح الشعر فى نفس حافظ، فنظم فى نوفمبر سنة ١٩٠٩ قصيدة من بليغ شعره القومى، وصف فيها الحالة السيئة التى وصلت إليها البلاد، وأيد الحركة الوطنية فى مطالبها، وعبر أصدق تعبير عن آلامها وآمالها، قال فى مطلعها:

لقـد نصَـلَ الـدُّجى فمتى تَنـامُ ... أهـمٌّ ذادَ نـومَـكَ أم هُـيـام[1]

إلى أن قال:

أيجمـل بـالأديب أديب مصـر ... بكـاء الطفـل أرهقـه الفِطامُ
ويصـرفـه الهـوى عن ذكـر مصـر ... ومصـرٌ فى يـد البـاغـى تُضام
عـدمتُ يـراعتى إن كـان مـا بى ... هـوى بـين الضلوع لـه ضِـرام
ومـا أنـا والغـرامَ وشـابَ رأسى ... وغـال شـبـابى الخـطبُ الجسـام
وربَّـانى الـذى ربىَّ (لـبـيـدًا) ... فـعلمنى الـذى جهـل الأنـام[2]
لعمـرك مـا أرِقتُ لغـير مصـرٍ ... ومـالى دونها أمـل يـرام
ذكـرت جـلالهـا أيـام كـانـت ... تصـول بها الفـراعنـة العـظام
وأيـام الـرجـالُ بهـا رجـالٌ ... وأيـام الـزمـانُ لهـا غـلام
فـأقلق مضجعى مـا بـات فيهـا ... وبـاتت مصـر فيـه فهـل أُلام؟

وأهاب بالشعب أن يدع التواكل والتخاذل والانقسام قال:

---

(١) الدجى: ظلام الليل.
(٢) لبيد، هو الشاعر العربى صاحب المعلقة التى أولها:
عفت الديار محلها فرسومها

أرى شعبا بمدْرَجة العوادى ... تمخَّخ عظمَه داءٌ عُقام[١]
إذا ما مرّ بالبأساء عام ... أطل عليه بالبأساء عام
سرى داء التواكل فيه حتى ... تخطَّف رزقَه ذاك الزحام[٢]
قد استعصى على الحكماء منا ... كما استعصى على الطب الجُذام
هلاك الفرد منشؤه توانٍ ... وموت الشعب منشؤه انقسام
وإنا قد وَنَيْنا وانقسمنا ... فلا سعىٌ هناك ولا وئام
فساء مُقامُنا فى أرض مصر ... وطاب لغيرنا فيها المُقام
فلا عجبٌ إذا مُلكت علينا ... مذاهبنا وأكثرنا نيام

ونـاجى الأمير حسين كامل وكان رئيسًا لمجلس شورى القوانين أن يبث روح الحياة والتضامن فى نفوس أعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية، وناشدهم ألا يثقوا بوعود الاحتلال، قال:

(حسينُ. حسينُ) أنت لنا فنبِّه ... رجالا عن طِلاب الحق ناموا
وكن - بأبيك - لابن أخيك عَوْنًا ... فأنت بكفه نِعْمَ الحسام
أفِضْ فى قاعة الشورى وئاما ... فقد أودى بنا وبها الخصام
وعلِّمهم مصادمة الأعادى ... فمثلك لا يُروِّعه الصدام
ففى (حزب اليمين) لديك قومٌ ... وإن قلوا فإنهم كرام
وفى (حزب الشمال) لديك أُسْدٌ ... كُماةٌ لا يطيب لها انهزام
فكونوا للبلاد ولا يَفتكْم ... من النهزات والفرص اغتنام
فما سادوا بمعجزة علينا ... ولكنْ فى صفوفهم انضمام
فلا تثقوا بوعد القوم يوما ... فإن سحَاب ساستهم جَهام[٣]
وخافوهم إذا لانوا فإنى ... أرى السُّوَّاس ليس لهم ذِمام[٤]
فكم ضحك (العميد) على لحانا ... وغر سراتنا منه ابتسام

---

(١) المدرجة: الطريق. والعوادى: النوائب. وتمخخ العظم: إذا أخرج مخه.
(٢) أى مزاحمة الأجانب للمصريين.
(٣) السحاب الجهام: الذى لا ماء فيه.
(٤) الذمام: الذمة والعهد.

ونادى بالدستور وندد بمشروع مد امتياز القناة، قال:

ليس العِلمُ يُمسكنا وحيدًا ... إذا لم ينتصر العلَم اعتزام

وإن لم يدرك (الدستورُ) مصرًا ... فما لحياتها ابدا قِوام

حَمَوْنا وِردَ النيل عَذْبًا ... وقالوا: انه موت زؤام

وما الموت الزؤام إذا عقَلْنا ... سوى (الشركات) حلَّ لها الحرام

لقد سعدت بغفلتنا فراحت ... بشروتنا وأولها (الترام)

* * *

فياويلَ (القناة) إذل احتواها ... بنو (التاميز) وانحسر اللِّثام

لقد بقيت من الدنيا حُطامًا ... بأيدينا وقد عَزَّ الحطام

وقد كنا جعلناها زِماما ... فواهفى اذا قُطع الزمام!

* * *

فيا (قصر الدبارة) لست أدرى ... احربٌ فى جرابك أم سلام؟

أجِبْنا هل يُراد بنا وراءُ ... فنقْضِى أم يراد بنا أمام؟

ويا (حزب اليمين) اليك عنا ... لقد طاشت نبالك والسهام

ويا (حزب الشمال) عليك منا ... ومن ابناه نجدتك السلام

وقد اضطرت الوزارة تحت ضغط الرأى العام إلى عرض المشروع على الجمعية العمومية التى قررت رفضه، وبذلك حبط المشروع.

تنديده بالكولونل روزفلت

جاء الكولونل تيودور روزفلت الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة إلى مصر عن طريق السودان فى مارس سنة ١٩١٠، وألقى بالخرطوم خطبة سياسية مجد فيها الاحتلال البريطانى، ودعا إلى الخضوع لحكمه، ولما وصل إلى القاهرة ألقى بالجامعة المصرية خطبة أخرى أشد وطأة من خطبته، بالخرطوم، وقد أثارت خطبتاه احتجاج الرأى العام، وشارك حافظ الأمة فى سخطها على روزفلت، ونظم قصيدة عصماء لامه فيها على إطرائه الاحتلال، نشرها قبيل إلقاء خطبته الثانية بالقاهرة، قال.

أىْ خطيبَ الدنيا شَنِّفْ ... سَمْعَ مصر بقولك المأثور

إنما شوقها لقولك يا (روزْ ... فلت) شوق الأسير للتحرير

قِفْ غداً أيها الرئيس وعلِّم ... أهل مصر حرية التعبير

وأخبر الناس كيف سدتم على النا ... س وجئتم بمعجزات الدهور

وملكتم أعِنَّة الريح والما ... ء ودستهم على قارب العصور

قِف وعَدِّد مآثر العلم واذكر ... نعم الله ذكر عبد شكور

وإذا ما ذكرت أنعمه الكُبـ ... رى فلا تنس نعمة (الدستور)

* * *

يا نصير الضعيف مالك تطرى ... خطة القوم[1] بعد ذاك النكير

لم تطيقوا جوارهم بل اقمتم ... فى حماكم من دونهم ألف سور

أنت تطريهم وتثنى عليهم ... نائباً آمناً وراء البحور

ليت شعرى أكنت تدعو إليهم ... يوم كانوا على تخوم الثغور

يوم كانوا قذى بعين (نيويور ... ك) وداء مستحكماً فى الصدور

يوم نادى (واسنجتون) فلبَّا ... ه من الغيل كل ليث هصور[2]

يوم سجلتم على صفحات الدهـ ... ـر تاريخ مجدكم بالنور

ووثبتم إلى الحياة ثوبا ... ونفضتم عنكم غبار القبور

إنما النيلُ والمسيسبىُّ[3] صنوا ... ن هما حليتان للمعمور

وعجيبٌ أن يفوز هذا بإطلا ... ق وهذا فى ذِلة المأسور

يانصير الضعيف حُبب إليهم ... هجر مصر[4] تفز بأجر كبير

فعليهم أن يهجروا وعلى المصـ ... ـرىِّ ذكر المتيَّم المهجور

رثاؤه لمحمد فريد

نظم حافظ فى رثاء محمد فريد قصيدة من غرر شعره ألقاها بصوته الجهورى فى حفلة التأبين التى أقامها الحزب الوطنى يوم الأربعين لوفاته (١٩ ديسمبر سنة ١٩١٩)، فهزت مشاعر

---

(١) يقصد الإنجليز.

(٢) الغيل: موضع الأسد

(٣) هو النهر المشهور بأمريكا

(٤) أى الجلاء عنها.

السامعين والمواطنين لما حوته من المعانى الرائعة والتقدير البالغ للزعيم الراحل، قال:

مَنْ ليومٍ نحن فيه مَنْ لغدْ؟ مات ذو العزمة والرأى الأسدْ
حَلّ (بالجمعة) حزنٌ وأسى ومشى الوجد الى (يوم الأحد)[١]
وبدا شِعرى على قرطاسه لَوعةً سالت على دمع جَمدْ

* * *

أيها النيل لقد جَلّ الأسى كُنْ مِداداً لى إذا الدمع نفدْ
واذْبلى يازهرةَ الرَّوْض ولا تبسمى للطَّلِّ فالعيش نَكَدْ
والزم النَّوحْ أياطيرُ ولا تبتهج بالشَّدْوِ فالشدو حدد[٢]
فلقد ولَّى (فريدٌ) وانطوى ركن مصرٍ وفتاها والسَّنَد

* * *

خالدَ الآثار لا تخش البلىٰ ليس يَبْلَى من له ذِكر خَلَدْ
زرتَ (برلين) فنادى سَمْتُها نزلت شمس الضحى برج الأسد
واختفت سمسك فيها وكذا تختفى فى الغرب أقمار الأبد[٣]

* * *

يا غريبَ الدار والقبر ويا سلوة النيل إذا ما الخطبُ جَدّ
وحُسامًا فَلَّ حدَّيه الرَّدى وشهابا ضاء وَهْنا وخمد
قلْ (لصب النيل)[٤] إن لاقيتَه فى جوار الدائم الفرد الصمد
إن مصرًا لاتنى عن قصدها رغم ما تلقى وإن طال الأمد
جئت عنها أحمل البشرى إلى (أول البانين)[٤] فى هذا البلد
فاسْتَرِحْ وهنْأ ونَمْ فى غِبطةٍ قد بذَرت الحبَّ والشعب حُصد[٥]

* * *

(١) كنى بيومى الجمعة والأحد عن المسلمين والمسيحيين.
(٢) الحدد: الحرام الذى لا يحل أن يرتكب.
(٣) كانت وفاة الفقيد فى برلين يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩.
(٤) يريد مصطفى كامل.
(٥) يشير إلى قيام ثورة سنة ١٩١٩.

آثـر الـنيـل عـلى أمـوالـه — وقـواه وهـواهُ والـولـد
يـطلب الخـير لمصـرٍ وهـو فى — شِقْوَةٍ أحلى من العيش الرَّغَد
ضـاربٌ فى الأرض يبغى مـأربًـا — كـلما قـاربـه عنـه ابتـعـد
لم يَـعِـبـهُ أن تجـنّى دهـرُه — رب جِدٍ حاد عن مجـراه جَـدّ[1]
يستـحِمُ العـزَمَ حتى إن بـدت — فـرصـة شـدّ إليهـا وصمـد
فهـو لا يثْنى عنـانًـا عن منًى — وهـو هجيـراه (من جـد وجـد)
فـأيـاديـه إذا مـا أُنكـرت — إنمـا تنكـرهـا عـين الحسـد

* * *

فقـدت مصـر (فـريـدًا) وهى فى — مـوطن يُعْـوِزهـا فيـه المـدد
فقـدت مصـر (فـريـدًا) وهى فى — لهـوة الميـدان والمـوتُ رصـد
فقـدت منـه خبيـرًا حُـوَّلا[2] — وهـى والأيـام فى أخـذ وردّ
لم سكـد يُمتِعهـا الـدهـر بـه — فى ربـوع النيـل حيًّـا لم يكـد
ليتـه عـاش قـليـلا فتـرى — شعب مصـرٍ عينـه كيف اتحـد
وَيْح مصـرٍ بـل فـويحًـا للثرى — إنـه أبـلغ حـزنًـا وأشـد
كـم تمـنى وتمـنى أهـلـه — لـو يوارى فيـه ذيـاك الجسـد[3]

* * *

لهف نَفسى هـل (ببرلـين) امـرؤٌ — فـوق ذاك القبر صـلّى وسجـد؟
هـل بكت عـينٌ فـروَّت تُـرْبَـه — هـل عـلى أحجـاره خَطّ أحـد؟
هَـا هُنـا قـبرُ شهيـد فى هـوى — أمـةٍ أيـقـظهـا ثـم رقَـد!

ثورة سنة ١٩١٩

حيا حافظ ثورة ١٩١٩ فى قصيدة نظمها عن أول مظاهرة للسيدات قمن بها يوم ١٦ مارس ١٩١٩ احتجاجًا على عسف الإنجليز حيال المظاهرات السابقة وما ارتكبوه مع المتظاهرين من

(١) الجد (بالكسر) الاجتهاد، وبالفتح الحظ. والمعنى: رب اجتهاد أخطأه الحظ.

(٢) الحول: الحاذق البصير بتحويل الأمور.

(٣) يشير فى هذا البيت والبيت الذى سبقه إلى أن جتمان الفقيد ثوى فى برلين، وقد نقل إلى مصر فى يونية سنة ١٩٢٠.

فظائع القتل والتنكيل، وقد مجد حافظ شعور السيدات المتظاهرات وشجاعتهن، وحمل فى قصيدته حملة لاذعة على مسلك الجنود الإنجليز حيالهن، قال:

خَرَجَ الغواني يَحْتَجِجْن ورُحت أرْقُب جَمْعَهُنَّهْ

فإذا بهنَّ تَخِذْنَ مِنْ سُودِ الثياب شِعارَهُنَّهْ

فَطَلَعْنَ مِثْلَ كَواكِبٍ يَسْطَعْنَ فى وَسَطَ الدُّجنَّهْ[1]

وأخذن يجتزن الطريق ودار «سعد» قصدهُنَّهْ

يمشينَ فى كنف الوقار وقد أَبَنَّ شُعُورهُنَّهْ

وإذا بجيش مُقْبِلٍ والخيل مُطْلَقَة الأعِنَّهْ

وإذا الجنودُ سيوفها قد صُوبت لنحورهنَّهْ

وإذا المدافع والبنادق والصوارم والأسنَّهْ

والخيلُ والفرسانُ قد ضَرَبَتْ نطاقًا حولهنَّهْ

والورد والرَّيحان فى ذاك النهار سلاحهنَّهْ

فتطاحن الجيشان ساعاتٍ تشيب لها الأجنَّهْ

فتضعضع النسوان والنسوان ليس لهن مُنَّهْ[2]

ثم انهزمْنَ مشتَّتاتِ الشمل نحو قصورِهِنَّهْ

* * *

فليهنأ الجيش الفخور بنصره وبكسرِهنَّهْ!

فكأنما (الألمان) قد لَبسوا البراقع بينهنَّهْ

وأتوا (بِهِنْدنْبُرج[3]) مُخْتَفِيًا بمصر يقودُهُنَّهْ

فلذاك خافوا بأسَهُن وأشفقوا من كيدهنَّهْ!

وأنشأ قصيدة حيا بها جمعية المرأة الجديدة، وألم فيها إلى بطولة المرأة فى ثورة سنة ١٩١٩. قال:

---

(١) الدجنة: الظلام.

(٢) المنة: القوة.

(٣) المارشال هندنبرج، القائد الشهير فى الحرب العالمية الأولى.

إليكنَّ يهدى النيل ألف تَحيَّةٍ ... مُعَطَّرةٍ فى أسطرٍ عطرات
ويُثنى على أعْمالكن موكِّلى(١) ... بإطْراء أهْل البر والحسنات
أقَمْتُنّ بالأمس الأساس مباركًا ... وجئتُنّ يوم الفَتحِ مُغْتَبِطاتِ
صَنْعتُنّ مايُعْيى الرجال صَنيعُهُ ... فزِدْتُنّ فى الخيْرات والبَركات

* * *

يقولون: نصفُ الناس فى الشرق عاطِلٌ ... نِساء قَضَيْنَ العمرَ فى الحُجرات
وهذى بنات النيل يَعْمَلْن للنهى ... زيَغْرِسْنَ غَرْسًا دانى الثَّمرات
وفى السنة السَّوْداء كنتنّ قُدوةً ... لنا حين سالَ الموت بالمهجُات
وَقَفْتُنَّ فى وجْه الخَميس مُدَجَّجًا ... وكنْتنَّ بالإيمان معْتَصِمات
ومَا هَالكُنَّ الرُّمْح والسَّيْف مُصْلَتًا ... ولا المدْفَعُ الرَّشاشُ فى الطرُقات
تَعلَّمْ منكم الرجالُ فأصبحُوا ... على غَمرَات الموْت أهل ثَبَات

مصر تتحدث عن نفسها

قصيدة غراء قالها سنة ١٩٢١ على أثر قطع مفاوضات عدلى - كيرزون، حين سفرت نيات الإنجليز فى العدوان على مصر، وقد أشاد فيها بمجد مصر وعظمتها، تم أشار إليها وهى تستنجد ببنيها البررة على غدرات الأيام ويهيب بهم أن ينظروا من تليد مجدها إلى المثل الأعلى ليحتذوه، ويتعاونوا على التمسك بالحق كاملا حتى يبلغوه، وقد أجرى الخطاب فى القصيدة على لسان مصر لينصت الجميع لصوتها، إذ هى فوق الجميع، وكان عنوان القصيدة حين نشرت (مصر فوق الجميع) وهذه القصيدة أنشدتها سيدة الطرب أم كلثوم من روائع أغانيها:

وَقَفَ الخَلْقُ يَنْظُرون جميعًا ... كيف أبنْى قَواعَد المَجْد وحدى
وبناةُ الأهرام فى سالف الدَّهْـ ... ـر كفوْنى الكلام عند التَّحَدى
أنا تاجُ العَلاء فى مَفْرقِ(٢) الشَّرْ ... ق ودُرّاتُه فرائدُ عِقْدى
أىُّ شَىْءٍ فى الغَرْب قد بَهَرَ النّا ... سَ جَمالا ولم يَكُنْ منه عنْدى؟

---

(١) موكلى، أى أن النيل قد أنابه عنه فى إبلاغهن ثناءه عليهن.
(٢) المفرق: وسط الرأس.

فـتـرابى تَـبْرٌ ونهرى فُـراتٌ ... وسمـائى مَصقـولـةٌ كـالفِـرنْـدِ[١]
أينـما سِـرْتَ جَـوَلٌ عنـدكم كَـرْمٍ ... عنـد زَهْـرٍ مُـدَنَّـرٍ عنـد رَنْـدِ[٢]
ورِجـالى لـو أنصفُـوهُـمْ لَسـادُوا ... مِنْ كُهُـولٍ مِـلءِ العُيـونِ ومُـرْدِ[٣]
لـو أصـابـوا لهمْ مجـالاً لأبْـدَوْا ... مُعْجِـزات الـذَّكـاء فى كـلِّ قَصْـدِ
أنـا إن قـدرَّ الإلـهُ ممـاتى ... لا تَـرَى الشَّرق يَـرْفَعُ الـرأس بَعْدى

* * *

مـا رَمـانى رامٍ وراحَ سـليـما ... مِنْ قَـديم عـنـايـة الله جُـنْـدى
كـم بَـغَـتْ دَوْلـةٌ عـلىَّ وجـارَتْ ... ثـمَّ زالت وتـلك عُـقْـبَـى الـتَّـعَـدى
إنـنى حُـرةٌ كَـسَـرْتُ قُـيـودى ... رغم رُقْبى العِـدا وقـطَّعت قـدى[٤]

* * *

قُـل لمنْ أنْكروا مفـاخـر قَـوْمى ... مِثْـلَ مـا أنكـرُوا مـآثـر وُلْـدى
هَـلْ وَقَـفْتـمْ بـقـمّـة الهَـرَم الأكْـ ... ـبر يـومًـا فـريْتمُ بَعْضَ جُهْدى ؟[٥]
هَـلْ رَأيْـتُم تـلك النُـقُـوشَ اللَّواتى ... أعْجَـزت طَـوْقَ صَنْعَـةِ المُتَحَـدِّى ؟
حَـالَ لـونُ النَّهـارِمنْ قِـدَمِ العَهْـ ... ـد ومـا مَسَّ لـونها طُـولُ عـهـدِ
هَـلْ فَهمتمُ أسْـرَارمـا كـان عَنْـدى ... مـن عُـلوم ٍ مَخْـبـوءةٍ طَـىَّ بُـردى ؟
داك فَنُّ التـحـنـيط قـد غلب الـدَّهْـ ... ـر وأبْـلى الـبِـلَى وأعْـجَـز نِـدى

* * *

قـد عَقَدت العهـودَ مِنْ عَهد فْـرعو ... نَ ففى (مصـرَ) كـان أول عَقْـدِ
إنّ مَجْـدى فى الأولـيَـات عـريـقٌ ... مَن لـه مثـل أولـيـاتى ومَجْـدى ؟
أنـا أُمُّ (التشـريـع) قـد أخـذ الـرُّو ... مـانُ عنى الأصـولَ فى كـلِّ حَـدّ
ورَصَـدتُ النُّجـوم مُنْـذُ أضـاءتْ ... فى سماء الدُّجَى فـأحْكمت رَصْـدى

---

(١) الفرات. العذب. والفرند: السيف.
(٢) المدنر، أى مختلف الألوان، أو المشرق المتلألىء. والرند: شجر طيب الرائحة.
(٣) مرد: جمع أمرد، وهو الشاب.
(٤) القد: القيد، بقد منجلد.
(٥) فريتم، أى فرأيتم.

وَشَدَا (بنتئور[1]) فَوقَ ربُوعى　　　قَبْل عهد اليُونان أو عهد (نجدِ)

اترانى وقد طَويَت حياتى　　　فى مراسٍ لَمْ ابَلُغ اليوم رُشْدى؟

أىُّ شَعْب أحقُّ منى بعَيْشٍ　　　وارف الظِّلِّ أخضر اللَّون رَغْدِ؟

* * *

أمِنَ العَدل أنهم يَردُون الـ　　　ـماء صَفوًا وأن يُكَدَّرَ وِرِدِى؟

أمِنَ الحَقِّ أنَّهم يُطلقون الـ　　　ـأسدَ منهم وأن تُقيَّدَ أُسْدى؟

نصفُ قَرنٍ إلَّاقليلا أعانى　　　ما يُعانى هَوانَه كُلُّ عبد[2]

نَظَرَ الله لى فأرشَدَ أبنا　　　ئى فسدُّوا إلى العُلاَ أىَّ سَدِّ

إنما الحقُّ قُوةٌ من قُوَى الدَّ　　　يان أمضى مِن كُلِّ أبيضَ هِندى

وقال فى تمجيد التضحية والصمود والصبر أمام الشدائد:

قد وَعَدتُ العُلى بكل أبِىٍّ　　　من رجالى فأنجزوا اليوم وعدى

أمهرُوها بالرُّوح فهى عَروس　　　تشنَأُ المَهر من عُروُض ونَقدِ[3]

وَرِدُوا بى مناهل العزِّ حتى　　　يَخطُبَ النجمُ فى المَجرَّة وُدِّى

وارفعوا دولتى على العلم والأخـ　　　ـلاق فالعلم وَحدهَ ليس يُجدى

وتواصوا بالصَّبر فالصبر إن فا　　　رَقَ قومًا فما له مِن مَسَدِّ

خُلُقُ الصَّبْرِ وَحْده نَصرَ القو　　　مَ وأغنىَ عن اختراعٍ وعَدِّ

شهدوا حَوْمَة الوَغَى بنُفوسٍ　　　صابراتٍ وأوْجُهٍ غير رُبْدِ

فمحا الصَّبر آية العِلْم فى الحَرْبِ　　　وأنْحَى على القَوِىِّ الأشَدِّ

وقال يدعو إلى توحيد الكلمة ونبذ الشقاق وكانت البلاد وقتئذ فى غمرة من الانقسام:

إنَّ فى الغَرْب أعْيُنًا راصِداتٍ　　　كحَلَتْها الأطماعُ فيكم بسهْدِ

فَوقْها مُجْهَرٌ يُريها خفايا　　　كُمْ ويَطْوى شُعاعهُ كُلَّ بُعْدِ

فاتقُوها بجُنةٍ من وئامٍ　　　غيرِ رَثِّ العُرا وسَعْىٍ وكَدِّ

(١) بنتئور: أفدم شاعر عرفه التاريخ وهو مصرى، وقبل عهد اليونان الخ، أى قبل سعراء اليونان وشعراء العرب

(٢) يقصد عهد الاحتلال البريطانى.

(٣) تشنأ: تكره.

واصفَحوا عن هَناتِ مَن كان منكم ... رُبَّ هافٍ هَفَا على غير عَمْد
نَحْنُ نَجْتازُ مَوْقِفًا تعثرُ الآ ... راءُ فيه وعَثْرَةُ الرأى تُرْدِى
ونُعيرُ الأهْواءَ حَرْبًا عَوانًا ... من خِلافٍ والخُلْف كالسُّلِّ يُعْدِى
ونُثيرُ الفَوْضَى على جانِبَيْه ... فيُعيد الجهولُ فيها ويُبدِى
ويَظُنُّ الغَوِىُّ أنْ لا نظامٌ ... ويقول القوىُّ قد جَدَّ جِدِّى
فقِفُوا فيه وَقفة الحزم وارمُوا ... جانبَيْه بعَزمَة المستعِدِّ
إننا عند فجر لَيلٍ طويلٍ ... قد قطعناه بين سُهْدٍ وَوَجْد
غَمَرتنا سُودُ الأهاويل[1] فيه ... والأمانىُّ بين جَزْرٍ ومَدِّ
وتَجَلى ضياؤُه بعد لأْىٍ ... وهو رَمزٌ لعَهدِىَ المُسْتَرَدِّ
فاستبينوا قَصدَ السَّبيل وجِدُّوا ... فالمعالى مخطوبةٌ للمُجِدِّ

الاستقلال المقيد

قالها عندما أعلن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢:

أصبحتُ لا أدرى على خِبْرَةٍ ... أجَدَّتِ الأيامُ أم تَمْزَحُ؟
أمَوْقِفٌ للجِدِّ نجتازُه ... أمْ ذاك للاّهى بنا مَسْرَحُ؟
ألَمحُ لاستقلالنا لَمْعَةٌ ... فى حالك الشَّكِّ فأسْتَرْوِحُ
وتَطْمِسُ الظُّلْمَةُ آثارها ... فأنثنى أُنْكر ما ألْمَحُ
قد حارتِ الأفهام فى أمرهم ... إنْ لَمَّحُوا بالقَصْد أو صرَّحوا!
فقائلٌ لا تَعْجَلوا إنكم ... مكانَكم بالأمْس لم تَبْرَحُوا
وقائلٌ أوْسِعْ بها خُطْوةً ... وَرَاءَها الغايةُ والمَطْمَحُ
وقائلٌ أسْرَفَ فى قَوْله: ... هذا هُوَ استقْلالُكم فافرَحوا
إنْ تَسْألوا العقل يقُلْ عاهِدوا ... واستَوثِقوا فى عَهْدِكم تربَحوا
وأسِّسُوا دارًا لنُوَّابكُمْ ... للرَّأى فيها والحِجَا أفسِحُوا
ولْتَذْكُر الأمةُ ميثاقَها ... ألاَّ تَرَى عِزَّتَها تُجْرَحُ
وتَنتَخِبْ صَفْوَةَ أبنائها ... فمنهُمُ المُخْلِصُ والمُصْلِحُ

---

(١) الأهاويل جمع أهوال.

وليّتق الله أُولو أمرها ... أن يُسكِتوا الأصوات أو يُرفحوا[١]
أو تسألوا القلب يُقل حاذرُوا ... وصابرُوا أعداءَكم تُفلِحوا
إنى أرى قَيْدًا فلا تُسْلِمُوا ... أيديَكُم فالقيد لا يَسْجحُ[٢]
إن هيأوه من حريرٍ لَكُم ... فهو عل لينٍ به أفدَحُ
حَتَّامَ - والصبرُ له غايةٌ - ... لغيرنا من بِشْرنا نمْنَحُ؟
حتام - والأموالُ مَشفوهةٌ -[٣] ... نمنَحُ إلا (مِصرَ) ما نمنَحُ؟
حتام يُمضى أمرَنا غيرنا ... وذاك بالأحرار لا يَمْلُحُ؟

وعاد يدعو إلى الوحدة والوئام ويستنكر الفرقة والانقسام:

أساءَ بَعضُ الناس فى بعضهم ... ظنا وقد أمسَوْا وقد أصبَحُوا
فانتهزَتْ أعداؤنا نُهْزَةً ... فينا وما كانت لهم تَسْنَحُ
فالرأىُ كلُّ الرأى أن تُجْمِعوا ... فإنما إجماعُكم أرْجَحُ
وكلُّ من يطمعُ فى صَدْعِكم ... فإنه فى صخرةٍ يَنْطَحُ
أخْشَى إذا استمشَرْتُم بينكم ... من قادَةِ الآراء أن تُفْضَحوا
فلْتَقْصُدوا ما استطَعْتم فيهُمُ ... فإنما فى القلة المَنْجَح

يستحث المواطنين على التضحية والجهاد

نظم حافظ سنة ١٩٠٤ قصيدة رائعة عن (غادة اليابان) ضرب فيها الأمثال فى التضحية والجهاد، وجعلها على لسان غادة وطنية من اليابان وأشاد بشجاعتها فى الحرب التى شبت بين بلادها والروسيا عام ١٩٠٤، إذ ذهبت متطوعة إلى ميادين القتال تواسى الجرحى، وترعى حقهم قال:

لاتلم كيف إذا السيف نَبَا[٤] ... صَحَّ منى العزمُ والدهرُ أبى
ربَّ ساعٍ مُبصرٍ فى سعيه ... أخطأ التوفيق فيها طلبا
مرحبًا بالخطب يَبْلونى إذا ... كانت العلياء فيه السببا

---

(١) يريد تأين المواطنين من النفى إلى (رفح) وكانت منذ ثورة سنة ١٩١٩ منفى للأحرار.
(٢) يلين ويسهل.
(٣) أى مستنفدة مضيعة.
(٤) نبا السيف: كل وارتد.

إيه يادنيا اعبسى أو فابسمى   لا أرى برقَكَ إلا خُلَّبا[١]

إلى أن قال:

كنتُ أهوى فى زمانى غادةً   وَهبَ الله لها ما وهبا
حَمَلَتْ لى ذات يوم نبأ   لارعاك الله ياذاك النَّبا
وأنت تخطر والليل فتىً   وهلالُ الأفق فى الأفق حَبَا
ثم قالت لى بثغر باسم   نظَمَ الدرَّ به والحبَبَا
نَبأونى برحيل عاجلٍ   لا أرى لى بعده مُنْقلبا[٢]
ودعانى موطنى أن أغتدى[٣]   عَلِّنى أقضى له ما وهبا
نذبح الدُّبّ[٤] ونَفرى جلدَه   أيظنّ الدبُّ أن لا يغُلَبا؟

* * *

قلتُ والآلام تغرى مهجتى   وَيكِ! ماتصنعُ فى الحرب الظِّبا؟
ما عهدناها لظبيٍ مسرحا   يبتغى ملهى به أو ملعبا
ليست الحرب نفوسًا تشتَرَى   بالتمنى أو عقولا تُستَبَى
أحسبتِ القدَّ من عُدّتها   أم ظننت اللحظ فيها كالشَّبا[٥]
فدعيها للذى يعرفها   والزمى ياظبية البان الخِبا[٦]

* * *

فأجابتنى بصوتٍ راعنى   وأرتنى الظَّبْىَ ليثًا أغلبا
إن قومى استعذبوا وِرْدَ الرّدَى   كيف تدعونىَ ألا أشربَا؟
أنا يابانية لا أنثنى   عن مرادى أو أذوق العَطبا
أنا إن لم أحسن الرمىَ ولم   تستطع كَفَّاى تقليب الظُّبا
أخدم الجرحى وأقضى حقهم   وأُواسى فى الوغى من نُكِبا
هكذا (الميكادُ) قد عَلَّمنا   أن نرى الأوطانَ أُما وأبا

---

(١) البرق الخلب الذى ينتظر الناس مطره ويخلفهم.
(٢) المنقلب: العودة.
(٣) أغتدى، أى أبادر مبكرة للدفاع عنه.
(٤) الدب: رمز لروسيا.
(٥) الشبا: جمع شباة وهى حد السيف.
(٦) البان: شجر لين تألفه الظبا، والخبا: البيت.

مــلكٌ يــكــفــيــكَ مــنــه أنــه … أنهضَ الشــرق فهــزَّ المغــربــا
بــعــث الأمــة مــن مــرقــدهــا … ودعــا لــلعــلا أن تَــدْأبــا
فَــسَمَت للمــجــد تبغى شــأوه … وقضتْ مــن كــل شىء مــأربــا

يسْتَنهض الهمم، ويدعو إلى توحيد الكلمة

قال من قصيدة له سنة ١٩٢٣ يخاطب المواطنين:

ويـدُ الإله مـع الجماعـة فـاضـربـوا … بعصـا الجمـاعــة تَـظْفَــروا بنجـاح
كــونــوا رجــالا عــاملين وكــذِّبــوا … -والصبـحُ أبلجُ- حـامـل المصباح[1]
ودعـوا التخـاذل فى الأمــور فـإنمــا … شَبَــحُ التخــاذل أنكــرُ الأشبــاح
واللّهِ مــابلغ الشقــاء بـنــا المــدى … بســوى خـلافٍ بيننــا وتــلاحى[2]

* * *

قُم يـا ابنَ مصر فـأنت حرٌّ واستعِـد … مجـد الجــدود ولا تَعُــد لِمــراح[3]
شمِّــر وكـافــح فى الحيــاة فهــذه … دُنـيــاك دارُ تـنــاحــر وكــفــاح
وإذا ألــح عليــك خــطبٌ لا تَهُن … واضـرب عـلى الإلحـاح بـالإلحـاح
وخُض الحيـاة وإن تـلاطم مـوجهُـا … خـوضَ البحـار ريــاضـةُ السبــاح
فى البحــر لا تثنيـك نــارُ بـوارجٍ … فى الــبر لا يلويـك غــابُ رمــاح
وانـظر إلى الغـربىِّ كيف سَمَت بــه … بــين الشعــوب طبيعــة الكَــدَّاح

إلى أن قال:

وابنُ الكنـانة فى الكنـانـة راكـدٌ … يَـرنُــو بعـينٍ غـير ذات طمــاح
لايستغــل كــما علمتَ ذكــاءه … وذكــاؤه كــالخــاطف اللَّمــاح
فانهَض وَدَع شكوى الزمان ولاتُنح … فى فـادح البؤسَى مـع الأنـواح
واربـح لمصر بـرأس مالـك عِزَّةً … إن الـذكـاء حُبــالـة الأربــاح
واشـرب من الماء القُـراح مُنَعَّـمًا … فلكم وردتَ المـاء غـيرَ قَــرَاحِ

---

(١) الإشارة إلى الفليسوف ديوجنس الذى كان يحمل فى رابعة النهار مصباحا يبحث عن رجل.

(٢) التلاحى: التخاصم.

(٣) يريد بمراح: الأخذ بأسباب المرح واللهو.

يحذر سعدا من خداع الإنجليز

قال سنة ١٩٢٤ يخاطب سعد زغلول من قصيدة له فى تهنئته بنجاته من محاولة اغتياله وكان إذ ذاك معتزمًا السفر إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فى القضية الوطنية:

لا تقرب (التاميزَ) واحذرْ ماءه ... مهما بدا لك أنه معسولُ
الكيْدُ ممزوجٌ بأصفى مائه ... والخَتْل[1] فيه مُذَوَّبٌ مصقول
كم واردٍ يا (سعدُ) قبلك ماءه ... قد عاد منه وفى الفؤاد غليل[2]
القومٌ قد ملكوا عِنَانَ زمانهم ... ولهم روايات به وفصول
ولهم أحابيلٌ[3] إذا ألقَوْا بها ... قَنصوا النُّهَى أسيرُهم مخبول
ولكل لفظٍ فى المعاجم عندهم ... معنى يقال بأنه معقول
نَصَلَت[4] سياستهُم وحالَ صباغُها ... ولكل كاذبة الخضابِ نُصول
جمعوا عقاقير الدواء وركَّبوا ... ما ركبوه وعندك التحليل

حافظ والإنجليز وجها لوجه

فى سنة ١٩٣٢ ساهم الإنجليز مع العناصر الرجعية فى إلغاء الحياة الدستورية، وتظاهروا بأنهم على الحياد فى هذه المحنة، مع أنهم مدبروها، وقد هاجمهم حافظ بقصائد رائعة نعى فيها عليهم بغيهم وعدوانهم، وكشف فيها الستار عن حيادهم الكاذب، وطعن على سياسة الاستعمار عامة، وأعاد بحملاته عليهم ذكرى قصائده الوطنية الخالدة التى نظمها فى تمجيد الحركة الوطنية ومهاجمته الاحتلال فى عهد مصطفى كامل ومحمد فريد.

قال فى مارس سنة ١٩٣٢ مخاطبًا الإنجليز منددا بسياسة «الحياد» التى أعلنوها، ناعيا عليهم ظلمهم وإخلافهم وعودهم للأمة:

بَنَيْتُمْ على الأخلاق آساسَ مُلْكِكم ... فكان لكم بين الشعوب ذِمامُ[5]
فمالى أرى الأخلاق قد شاب قَرنُها[6] ... وحَلَّ بها ضعفٌ ودَبّ سقام

---

(١) الختل: الخداع والمكر.
(٢) الغليل: شدة العطش.
(٣) الأحابيل: المصايد.
(٤) نصلت: انكشفت وخرجت من لونها الكاذب إلى لونها الحقيقى. وحال: تحول.
(٥) الذمام هنا الحق والحرمة.
(٦) القرن: الذؤابة من الشعر.

أخــاف عليكم عثْــرَةً بـعــد نهضــة فــليس لمــلك الــظالمــين دَوام
أضَـعتُـم ودادًا لـو رعَيـتم عـهـوده لمــا قــام بـين الأمــنـين خـصــام
أبعــد «حيــادٍ» لا راعى الله عهــدَه وبعـد الجـروحِ النـاغـراتِ[1] وئـام؟
إذا كــان فى حسن التَّفـاهم مَــوتُنــا فـليس عــلى بــاغى الحـيــاة مَــلام

وقال فى هذا المعنى:

لاتَذْكروا الأخـلاقَ بعد «حيـادكم» فمصــابـكم ومـصــابنــا سيّــان
حــاربتمـو أخــلاقكم لِتحـاربـوا أخــلاقنــا فـتــألّم الـشعَّـبــانِ

وقال عن (الحيادِ الكاذب):

قَصـرَ الـذُّبــارة قـد نقضـ ـت العهـدَ نَقض الغـاصب
أخـفيـتَ مــا أضـمــرتَـه وأبــنـتَ ود الــصــاحـب
الحــربُ أروحُ لـلنـفــو س من «الحيــاد» الكـاذب

وقالَ مخاطبًا السير برسى لورين المندوب السامى البريطانى وقتئذ، منددًا بحياد الإنجليز المصطنع:

ألم تَـرَ فى الـطريق إلى «كيـاد»[2] تصيـد البَطَّ بؤس العــالمينــا؟
ألم تلمــح دمـوعَ النــاس تجرى من البلوى - ألم تسمــع أنينــا؟
ألم تخـبر بنى «التـاميــز» عنــا وقــد بعثــوك منــدوبًـا أمينــا؟
بــأنـا قــد لمسنـا الغـدر لَمَسًــا وأصبــح ظنـنــا فيـكم يـقينــا
كشفـنــا عن نـوايــاكـم فلستم وقــد بــرح الخفــاء محايــدينــا
سنْجمــع أمــرنــا فتــزون منــا لــدى الجلِّ[3] كـرامًــا صـابـرينا
ونــأخــذ حقنــا رغـم العــوادى تُـطيف ةنـا ورغم القـاسـطينــا[4]
ضــربتم حَـولَ قــادتنـا نــطاقـا من النيــران يُعيى الـدّارعـينــا

(١) الناغرات: الداميات.
(٢) بركة بمركز فاقوس بالشرقية كان المندوب السامى البريطانى يذهب إليها لصيد الطيور.
(٣) الجلى: النازلة الشديدة.
(٤) القاسطون: الظالمون.

علــى رغم المروءة قــد ظفــرتم ... ولـكن بــالأسـود مصفّـدينــا
فهــل يجديكم الأسـطول نفعــا ... إذا مــا نــازل الحقّ المبـينــا؟

وقال فى هذا المعنى (ابريل سنة ١٩٣٢):

(إلى المحايدين)

أمُحــايــدٌ أمْ حــائـدٌ ... عن منهـج الحق المبـينْ؟
نَــازلتَ شعبًــا أعــزلا ... بمـدرّعـين مـدججـين
وأمنتَ عقبى الـظالمين ... وبئْسَ عقبى الظالمـين!
مهــما تُصِبْ منــا فلسـ ... ــنا الجازعـين اليائسـين
إنّــا بـجبــار الســماء ... وبــالعقيـدة نَسْتعـين
إن الـعقـيــدة لا تــزلـ ... ـزلها حرَابُ الغـاصبين
فلئن مـلكتـم يـومكـم ... لغــدٌ لـرب العــالمـين
أأمنتــو صرفَ الــزمـ ... ـان وفتكَه بالغـاشمين؟

* * *

كـم مـن قـــوىٍّ هــدّه ... كَيْدُ الضعيف المستكين
أو لمْ تــروْا مــا ذاقــه ... بالأمس ذياك السجـين[1]؟
فى (سنت هـيلين) قـضى ... من دَوَّخَ الـدنيـا سنـينَ
من كــان فى غــاراتــه ... فى الكون منقطعَ القرين
أمسى ألانَتْــه الخطوب ... وكــان صلبًــا لا يلين
أوَ تـتقــون مـصيــره ... أم لستمــو بــالمتقـين؟

* * *

ضِقْنــا بكَيـد محــايديـ ... ـن لنـا وكيـد مبشـرين
ثــاروا عـلى دين الهـدى ... وتخــطفولِ منــا البنـين
داسوا العرين وقــد خلا ... من أسـده ذاك العـرين

(١) نابليون، وقد مات أسيرا سجينا فى جزيرة سنت هيلين.

خســر المبشر، إنَّ دين الحـق دين المسـلمـين
الله حـاميـه وكـافيـه شـرورَ المـعتـديـن

نحن والإنجليز وجها لوجه

وقال أيضًا:

قل للمحايد هل شهدت دماءنا تجرى وهل بعد الدماء سلام؟
سفكت مودتنا لكم وبدالنا أن الحياد على الخصام لثام
إن المراجل شرُّها لا يُتقى حتى ينفس كربَهنّ صمام
لم يبق فينا من يمنّى نفسه بودادكم فودادكم أحلام
أمن السياسة والمروءة أننا نَشقَى بكم فى أرضنا ونُضام؟
إنّا جمعنا للجهاد صفوفنا سنموت أو نحيى وَنحن كرام

وقال فى أبريل سنة ١٩٣٢ تحت عنوان (إلى الإنجليز)، وهى من أبلغ ما قيل فى تحدى القوة الغاشمة والصمود أمام الشدائد مهما عظمت:

حَوِّلوا النيلَ واحجبوا الضوءَ عنا واطمِسُوا النجمَ واحرمونا النسيما
واملأوا البحر إن أردتم سفينًا واملأوا الجو إنْ أردتم رُجوما
وأقيموا للعسف فى كل شِبرٍ (كونستبلا) بالسوط يَفرى الأديما[1]
إننا لن نحول عن عهد مصرٍ أو ترونا فى التراب عظمًا رميما

* * *

عاصفٌ صان مُلككم وحماكم وكفاكم بالأمس خطبًا جسيما
غال (أرمادةَ)[2] العدو ففزتم وبلغتم فى الشرق شأوا عظيما
فعدلتم هنيهةً، وبَغيتم وتركتم فى النيل عهدًا ذميما
فشهدنا ظلما يقال له العد لُ وودًا يسقى الحميم الحميما[3]
فاتّقوا غضبةَ العواصف إنى قد رأيت المصير أمسى وخيما!

---

(١) يفرى الأديم أن يشق الجلد.

(٢) الأرمادة هى الأسطول الأسبانى الذى تحطم فى القرن السادس عشر بعاصفة حالت بينه وبين مهاجمة الأسطول الإنجليزى الذى كان دونه قوة وعددا.

(٣) الحميم الأول الصديق، والحميم الثانى الشراب الشديد الحرارة.

وقال أيضًا (أبريل سنة ١٩٣٢):

لقد طال الحيادُ ولم تَكُفوا أما أرضاكُم ثمنُ الحياد؟
أخذتم كل ما تبغون منا فما هذا التحكّم فى العباد؟
بلونا شدّةً منكم وليناً فكان كلاهما ذرّ الرّماد
وسالْمتم وعاديتم زمانا فلم يُغن المُسالِم والمعادى
فليس وراءَكم غير التّجنىّ وليس أمامنا غير الجهاد

وعود الانجليز فى الجلاء

وقال فى سنة ١٩٣٢ يندد بكاتب فرنسى زعم أن جلاء الإنجليز سيكون فى أكتوبر من ذلك العام:

كم حددوا يوم الجلاءِ الذى أصبح فى الإبهام كالمحشر
وَسن قوم الطيش من جهلهم كذبة (إبريل لأكتوبر)

حافظ وصدقى باشا

وقال فى سنة ١٩٣٢ يندد بسياسة صدقى باشا رئيس الوزارة وقتئذ من قصيدة لم ينشر منها إلّا النزر اليسير:

قد مرَّ عامٌ يا سعادُ وعام وابنُ الكنانة فى حماه يضامُ
صَبُّوا البلاءَ على العباد فنصفهم يجبى البلاد ونصفهم حكام
أشكو إلى (قصر الدبارة) ماجنى (صدقى) الوزير وماجبى (علّام)[1]

ومنها فى مخاطبة صدقى باشا:

ودعا عليك اللّهَ فى محرابه الشيخُ والقسِّيس والحاخام
لا هُمَّ أحْيِ ضميرَه ليذوقَها غَصصًا وتنسف نفسَه الآلام

يكافح الاستعمار ويدعو إلى الفداء

قال فى حرب طرابلس (سنة ١٩١١ - ١٩١٢) حين اعتدت إيطاليا على العرب يستحث أمم الشرق أن تنهض وتكافح الاستعمار، ويمجد التضحية فى سبيل الحرية:

---

(١) محمد علام باشا، وكيل حزب اشعب الذى ألفه صدقى باشا. يشير إلى ما كانوا يجبونه من الأموال إعانة لحزب الشعب.

طَمَـعٌ أَلْقَى عن الغَـرْب اللِّثـامـا ... فـاستَفِقْ ياشَـرْقُ واحـذَرْ أنْ تنـامـا !
واحمـلِي أيـتهـا الـشمس إلى ... كـلِّ من يسْكن فى الشَّـرق السَّـلامـا
واشهَـدى يـومَ التَّـنـادى[1] أنّنـا ... فى سبيـل الحقِّ قـد مِتْنـا كِـرامـا
مـادَتِ الأرض بنـا حـين انْتَشتْ ... مـن دم القَـتْـلى حـلالاً وحـرامـا
عجـز الطِّلْيـانُ عن أبْـطالنـا ... فَـأعَلُّوا[2] منْ دَرارينـا الحُسـامـا
كـبَّلوهـم، قـتـلوهـم، مـثَّلوا ... بـذَوات الخِـدْر، طـاحـوا بـاليتـامى
ذَبَحُـوا الأشْيـاخَ والـزَّمْنى[3]، ولم ... يـرحمـوا طفْـلًا، ولم يُبقُـوا غُـلامـا
أحـرقوا الـدُّورَ، استحلُّوا كـلّ مـا ... حَـرَّمَت (لاهاىُ) فى العَهْـد احتـرامـا
بـارَكَ المـطرانُ فى أعـمـالهـمْ ... فـسلوه : بـارك الـقـوم عـلامـا ؟
أبهـذا جـاءهـم إنْجـيـلهـم ... آمـرًا يُلْقِى عـلى الأرض سـلامـا ؟
كشفـوا عن نِيِّـة الـغَـرْب لنـا ... وجَلَوْا عن أُفُق الشَّـرق الـظلَّامـا
فـقـرأنـاهـا سـطورًا مـن دمٍ ... أقسمَتْ تَلْتَهم الـشَّـرق التـهـامـا

وختم قصيدته بقوله :

فـاطئـنى أُمـم الـشَّـرق ولا ... تَقْنَـطى اليوم فـإنَّ الجَـدّ قـامـا
إنَّ فى أضْـلاعـنـا أفئـدةً ... تعشقُ المجـدَ، وتـأْبى أن تُـضـامـا

تمجيده للشورى

قال فى عمريته المشهورة التى أنشأها فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب :

يـا رافعًـا رايـةَ الشُّـورى وحـارسهـا ... جـزاك ربُّـك خيـرًا عن مُحِـبِّيهـا
لم يُلْهِـك النَّزْعُ عن تـأييـد دولتهـا[4] ... ولـلمَـنِـيَّـةِ آلامٌ تُـعـانـيـهـا
لم أنْسَ أمـرك لـلمِـقـداد يحـمـلُه ... إلى الجـمـاعـة إنْـذارا وتنْـبيـهـا
إنْ ظـلَّ بعـد ثـلاثٍ[5] رأْيُهـا شُعَبًـا ... فجـرِّد السيف واضـربْ فى هَـوادِيهـا
فـاعجَبْ لقـوَّة نفسٍ ليس يصـرفهـا ... طَعمُ المـنيَّـة مُـرًّا عـن مـراميهـا

(١) يوم القيامة.
(٢) أعلوا أى سقوا.
(٣) الزمنى : ذوو العاهات.
(٤) دولتها، أى دولة الشورى.
(٥) بعد ثلاث، أى بعد ثلاث ليال. والهوادى : الأعناق.

دَرَى عَمِيدُ بَنِى الشُّورَى بموضعها ... فعاش ما عاشَ يَبْنيها ويُعْليها
وما استَبدّ برأيٍ فى حكومته ... إنَّ الحكومة تُغْرى مستَبدّيها
رأى الجماعة لا تَشْقَى البلادُ به ... رغْم الخلاف ورأْىُ الفرد يُشْقيها

الاستمرار فى الكفاح

قال سنة ١٩٢٤ يدعو إلى الاستمرار فى الكفاح:

إنا سنعْمل للخلاص ولا نَنِى ... والله يَقْضِى بيننا ويُدِيل(١)
كم دولةٍ شَهِد الصباحُ جلالها ... وأتى عليها الليل وهى فُلُولُ
وقصورِ قومٍ زاهراتٍ فى الدُّجَى ... طَلَعَتْ عليها الشمس وهى طُلُولُ

* * *

يأيها النَّشءُ الكِرام تحيَّةً ... كالرَّوض قد خطرت عليه قَبول(٢)
يا زَهْرَ مصرَ وزَينَها وحُماتها ... مَدْحى لكم بعد الرئيس(٣) فُضُولُ
جُدْتُمْ لها بالنفس فى وَردِ الصِّبا ... والورد لم يُنظَرْ إليه ذُبولُ
كم من سجينٍ دُونَها ومجاهدٍ ... دَمُه على عَرَصاتها مَطْلولُ
سيروا على سَنَنِ الرئيس وحقِّقوا ... أمل البلاد فكلُّكُم مأمولُ
أنتُم رجال غدٍ وقد أوفَى غَدٌ ... فاستقبِلوه وحَجِّلوه وطُولوا(٤)

تقريعه للمواطنين

وبلغ حثه المواطنين على النهوض حد التقريع أحيانًا. وله سنة ١٩٠٤ قصيدة ينعى فيها على مواطنيه بعض عيوبهم الاجتماعية، وقد نظمها لمناسبة قضية شخصية ثار لها الرأى العام بغير موجب، إذ تزوج صاحب المؤيد المرحوم الشيخ على يوسف بكريمة السيد عبد الخالق السادات، فرفع هذا دعوى أمام المحكمة الشرعية طالبًا فسخ عقد الزواج بحجة عدم الكفاءة فى النسب، وانحاز الرأى العام إلى جانب المدعى، وأخذ القضاء بوجهة نظره رغم علو مكانة الشيخ على يوسف فى الهيئة الاجتماعية، قال حافظ:

---

(١) يديل، أى يجعل الدولة لنا عليهم.
(٢) القبول: ريح الصبا.
(٣) يقصد هنا سعد زغلول.
(٤) حجلوة، أى اجعلوه يوما ابيض، وطولوا أى افخروا واعتزوا.

حَطَمتُ اليراعَ فلا تَعْجَبى ... وعِفْتُ البيان فلا تَعْتبى
فما أنتِ يا مصر دار الأديب ... ولا أنت بالبلد الطَّيِّبِ
وكم فيك يا مصر من كاتبٍ ... أقالَ اليراع ولم يكتُبِ
فلا تعذلينى لهذا السُّكوت ... فقد ضاق منك ما ضاق بى
أيعجُبنى منكِ يومَ (الوفاق)[1] ... سكوت الجماد ولِعبُ الصَّبى؟
وكم غضب الناسُ من قبلنا ... لسَلْبِ الحقوق ولم تَغْضَبِ

* * *

أنابتةَ العصر إنّ الغريب ... مُجِدٌّ بمصر فلا تَلْعَبى
يقولون: فى النَّشءِ خيرٌ لنا ... ولَلنَّشءُ شَرٌّ من الأجنبى
أفى (الأزبكيَّة) مَثوىً البنين ... وبين المساجد مَثوَى الأب؟
(وكم ذا بمصر من المُضحكات) ... كما قال فيها (أبو الطَّيِّب)[2]
أُمورٌ تَمرُّ وعَيْشٌ يمُرُّ[3] ... ونحن من اللَّهو فى مَلْعَب
وشعبٌ يفرُّ من الصالحات ... فِرارَ السَّليم من الأجرب
وصُحفٌ تَطِنُّ طنينَ الذُّباب ... وأُخرَى تَشُنُّ على الأقرَب
وهذا يلوذ بقصر الأمير ... ويدعو إلى ظِلِّه الأرحب
وهذا يلوذ بقَصر السَّفير ... ويُطْنِبُ فى ورده الأعذب
وهذا يَصيح مع الصَّائحين ... على غير قصدٍ ولا مأرب

* * *

وقالوا: (المؤيَّدُ) فى غمرةٍ ... رماه بها الطَّمع الأشْعبى
دعاهُ الغرام بسنِّ الكهول ... فجنَّ جُنونًا بِبِنْتِ النَّبى!
فضجَّ لها العرش والحامِلُوه ... وضج لها القَبْرُ فى (يَثْرِب)[4]
ونادى رجالٌ بِإسقاطه ... وقالوا: تَلَوَّن فى المشرب

---

(١) يقصد الانفاق الذى عقد بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٠٤ وبمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال البريطانى لمصر.

(٢) يشير إلى قول أبي الطيب المتنبى: (وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا).

(٣) عيش يمر، أى يصير مرًا.

(٤) اسم قديم للمدينة المنورة.

وعَدُّوا عليه من السَّيِّئات ... ألوفًا تدور مع الأَحْقُبِ
وقالوا لَصِيقٌ ببيْت الرسول ... أغار على النَّسَب الأَنْجَبِ
وزَكَّى (أبو خَطْوَةٍ) قولهم ... بحُكْمٍ أحَدَّ من المضْرَب
فما للتّهانى على داره ... تَساقطُ كالمَطَر الصَّيِّب؟
وما للوفود على بابه ... تَزُفُّ البشائرَ فى موكِب؟
وما للخليفة أسْدَى إليه ... وسامًا يليق بصدْر الأبى؟

* * *

فيا أمةً ضاق عن وصْفها ... جَنانُ المُفوَّه والأخْطَب
تضيع الحقيقة ما بيننا ... ويَصْلَى البرىءُ مع المذنب؟
ويُهْضَم فينا الإمام الحكيمْ ... ويُكْرَمُ فينا الجهول الغبى.

* * *

على الشرق منِّى سَلامُ الوَدود ... وإنْ طأطأ الشرق للمغْرب
لقد كان خِصبًا بجدْب الزّمان ... فأُجدَب فى الزمن المُخْصِب

شعره الاجتماعى

يزخر شعر حافظ بالاجتماعيات، فهو من هذه الناحية أغزر مادة وأعمق غورا من شوقى، ولا غرو فقد كان أكثر اتصالا بالطبقات الشعبية، وعانى ما تعانيه من الألم والحرمان، فصار أدق تصويرا لأحوالها وآلامها، وفى ذلك يقول بحق عن نفسه فى قصيدته التى أنشدها بدار الأوبرا سنة ١٩١١ فى حفلة جمعية رعاية الأطفال:

لم أقف مَوْقفى لأُنشِدَ شعرًا ... صُبَّ فى قالبٍ بديع النِّظام
إنّما قمتُ فيه والنَّفس نَشْوَى ... من كؤوس الهموم والقلب دامى
فلهذا وقفتُ أسْتَعطِف النَّا ... سَ على البائسين فى كلِّ عام
ذُقْتُ طعم الأَسَى وكابدت عيْنًا ... دُونَ شُربِى قَذَاهُ شربُ الحِمام[1]
فتقلّبْتُ فى الشَّقاء زمانا ... وتنقَّلتُ فى الخطوب الجِسام
ومشى الهمُّ ثاقِبًا فى فُؤادى ... ومشى الحزن ناخِرًا فى عِظامى

(١) الحمام الموت.

عطفه على منكوبى حريق ميت غمر

فى سنة ١٩٠٢ شب حريق مروع فى مدينة ميت غمر، وبقيت النار مشتعلة فيها عدة أيام، فدمرت كثيرًا من دورها ومات فى الحريق كثيرون؛ ولعظم النكبة تسابق أهل الخير فى إعانة المنكوبين وإسعافهم، وفاضت أعمدة الصحف بأنباء ما أصابهم، وفى ذلك أنشأ حافظ قصيدته المشهورة فى وصف هذه الكارثة والعطف على ضحاياها. قال:

سائلوا اللَّيل عنهمُ والنَّهارا ... كيف باتت نساؤهم والعَذارَى؟

كيف أمْسَى رضيعهم فَقَدَ الأُ ... مَّ وكيف اصطلى مع القوم نارًا؟

كيف طاح العجوز تحت جِدار ... يتداعَى وأسْقُفٍ تَتَجارَى؟

رَبِّ إنَّ القضاء أنحى عليهم ... فاكشف الكَربَ واحجُب الأقْدَارا

ومُرِ النَّارَ أنْ تَكُفَّ أذاها ... ومر الغيث أن يسيل انهمارا

أين طوفان صاحب الفُلْك يُروِى ... هذه النَّار فهى تشكو الأُوارا[1]

أشعلتْ فَحْمَةَ الدَّياجى فباتت ... تملأُ الأرض والسَّماء شَرارا

غَشِيَتْهم والنَّحْسُ يَجْرِى يمينًا ... ورَمَتْهم والبُؤْسُ يَجْرِى يَسارا

فأَغارتْ وأوْجُهُ القوم بيضٌ ... ثمّ غَارَتْ وقد كَسَتْهُنَّ قارا

أكلت دورهمْ فلمّا استقَلَّت ... لم تُغادرْ صغارَهُمْ والكِبارا

أخْرَجَتْهُمْ من الديار عُراةً ... حَذَرَ المَوت يطلبون الفِرارا

يَلْبَسُونَ الظلام حتّى إذا ما ... أقْبَل الصبح يلْبسونَ النَّهارا

حُلَّة لا تَقيهُمُ البَرْدَ والحَـ ... ـرَّ ولا عَنْهُمُ تَرُدُّ الغُبارا

أيّها الرَّافلون فى حُلَلِ الوَشْـ ... ـى[2] يَجُرَّنَ للذُّيول افْتِخارا

إنّ فَوْق العراءِ قومًا جِياعًا ... يَتَوَارَوْنَ ذِلَّةً وانكِسارا

أيُّهذا السَّجينُ[3] لا يمنع السِّجْـ ... ـن كريمًا منْ يُقيل العثارا

مُرْ بِألْفٍ لهم وإنْ شئْتَ زِدْهَا ... وأجِرْهُمْ كما أجَرْتَ النَّصارى

* * *

---

(١) الأوار: شدة الحرارة والعطش.

(٢) حلل الوشى الثياب المزركشة.

(٣) يقصد أحمد المنشاوى باشا المحسن وصاحب المبرات المعروفة.

قد شَهِدْنا بالأمْس فى مِصْرَ عُرْسًا[١] ... ملأ العَيْنَ والفُؤادَ ابتهارا
سالَ فيه للنُّضارُ حتّى حسِبْنا ... أن ذاك الفِناءَ يَجْرى نُضارا
باتَ فيه المُنَعَّمُون بلَيْلٍ ... أخْجَلَ الصُّبْحَ حُسْنُه فتَوارَى
يَكْتَسُون السرورَ طَوْرًا وطورا ... فى يَدِ الكأسِ يَخْلَعون الوَقارا
وسَمِعْنا فى (ميت غَمْرٍ) صياحًا ... ملأ البَرَّ ضَجَّةً والبِحارا

* * *

جَلَّ من قَسَّم الحظوظ، فهذا ... يَتَغَنَّى وذاك يبكى الدِّيارا
رُبَّ لَيْلٍ فى الدهر قد ضَمَّ نَحْسًا ... وسُعودًا وعُسْرَةً ويَسارا!

الجامعة فى سبيل الكفاح

وقال من قصيدة له فى سنة ١٩٠٨ يدعو إلى معاضدة مشروع الجامعة المصرية.

حياكم اللَّهُ أحْيوا العِلْمَ والأدبا ... إنْ تَنْشُروا العلم يَنْشُرْ فيكُم العَرَبَا[٢]
ولا حياة لكُمْ إلَّا بجامعةٍ ... تكونُ أُمًّا لطُلّاب العُلاَ وأبَا
تَبْنِى الرجالَ وتبنى كل شاهقَةٍ ... من المعالى وتبنى العِزَّ والغَلَبا
ضَعُوا القلوب أساسًا. لا أقول لكم ... ضعوا النُّضار فإنى أصْغِرُ الذَّهبا
وابنوا بأكْبادكُم سورًا لها ودَعُوا ... قيلَ العدوِّ فإنى أَعْرِف السَّببا[٣]
لا تقنَطوا إنْ قرأتُمْ ما يزُوِّقه ... ذاك العميدُ ويرْميكم به غَضَبًا[٤]
وراقبوا يومَ لا تُغْنى حصائِدهُ ... فكلُّ حَيٍّ سيُجْزَى بالذى اكتسبا[٥]
بنَى على الإفْك أبراجًا مُشَيَّدَةً ... فابْنوا على الحقِّ بُرْجًا يَنْطَح الشُّهُبا
وجاوبوه بفعْلٍ لا يُقَوِّضُهُ ... قوْل المفنِّد أنَّى قال أو خَطَبا
لا تهجَعوا إنهم لن يهجعوا أبدًا ... وطالبوهمْ ولكنْ أجْملوا الطَّلَبا

وختمها بقوله:

إنْ تُقْرضوا الله فى أوطانكمْ فلكمْ ... أجْر المجاهد طوبى للّذى اكتَتَبا

---

(١) يقصد عرس زواج (لأمير) حيدر فاضل من كريمة على فهمى (باشا) سنة ١٩٠٢ وكان من أعظم المهرجانات.

(٢) أى يبعث فيكم مجد العرب.

(٤،٣) يشير إلى ما كان يقيمه المعتمد البريطانى من العقبات فى سبيل إنشاء الجامعة.

(٥) حصائد أى حصائد الصيد أى ما يقوله ليثنى به العزائم عن مشروع الجامعة.

رعاية الأطفال

وألقى فى إبريل سنة ١٩١٠ القصيدة الآتية فى احتفال أقامته جمعية رعاية الأطفال يصف بؤس أم فقيرة حامل وكيف لقيت الرعاية والإسعاف فى مستشفى الجمعية:

شَبَحًا أرى أم ذاك طَيْفُ خَيال؟ ... لا، بل فتاةٌ بالعَرَاء حيالى
أمستْ بِمَدْرَجَة الخُطوب فما لها ... راعٍ هناك وما لها مَنْ والى
حَسْرى تكاد تُعِيد فَحْمَةَ لَيْلها ... نارا بأنّات ذَكَيْنَ[1] طِوال
ما خَطْبُها عَجَبا، وما خطبى بها؟ ... مالى أشاطرها الوجيعة مالى؟
ذانيتُها ولصوتها فى مسْمعى ... وَقع النِّبال عَطَفْنَ إثْرَ نبال
وسألتها: من أنتِ؟ وهى كأنها ... رَسْمٌ على طَلَلٍ من الأطلال
فَتَمَلْمَلَتْ جَزَعًا وقالت: حامِلٌ ... لم تذْر طعم الغَمض منذ ليالى
قد مات والدُها وماتَتْ أمُّها ... ومَضَى الحِمامُ بِعَمِّها والخال

* * *

وإلى هنا حبس الحياء لسانها ... وجَرَى البُكاء بدَمْعها الهطَّال
فَعلمتْ ماتُخْفى الفتَاةُ وإنّما ... يَحنُو على أمثالها أمثالى
ووقَفتُ أنْظُرُها كأنّى عابدٌ ... فى هيْكلٍ يَرنو إلى تمثال
ورأيتُ آياتِ الجمال تكفَّلَتْ ... بزوالهنَّ فوادحُ الأثقال
لاشىء أفْعَلُ فى النفوس كقامَةٍ ... هَيفاء رَوَّعها الأسَى بُهزال
أوغادة كانت تُريكَ إذا بَدَت ... شمس النَّهار فأصْبحت كالآلِ[2]

* * *

قلتُ: انهضَى قالت: أيَنْهَضُ مَيِّتٌ ... من قبره ويَسيرُ شَنٌّ بالى[3]
فحملتُ هيْكل عظمها وكأنّنى ... حُمِّلْتُ حين حَمَلْتُ عُودَ خَلال

---

(١) ذكين، أى توقدن واشتعلن.
(٢) الآلو السراب.
(٣) الشن. القربة الخلق البالية.

وطفِقْت أَنْتَهِب الخطا متيمًّا ... بالّليل (دار رعاية الأطفال)
أَمْشى وأَحْمِلُ بائسيْن: فطارقٌ ... باب الحياة ومؤْذنٌ بزوال[١]
أَبْكيهما وكأنما أنا ثالثٌ ... لهما من الإِشْفاق والإِعْوال[٢]

* * *

وطرقْتُ باب الدار لا مُتَهَيِّبا ... أحدًا ولامترقِّبًا لسؤال
طَرْقَ المُسافرِ آب من أسفاره ... أوطَرْقَ رب الدار غير مُبالى
وإذا بأصوات تصيح: ألاافتحوا ... دقاتُ مَرْضَى مُدْلجين عجال
وإذا بأيد طّاهرات عوَّدَتْ ... صنعَ الجميل تطوَّعَتْ فى الحال
جاءت تُسابِقُ فى المَبَرةِ بَعْضُها ... بعضًا لوَجه الله لاللمال
فتناولتْ بالرِّفق ماأنا حاملٌ ... كالأم تَكْلأ طِفْلها وتُوالى
وإذا الطبيب مُشَمرٌ وإذا بها ... فوقَ الوسائد فى مكان عالى
جاءوا بأنواع الدَّواء وطوفوا ... بسَرير ضَيْفَتهم كبعْض الآل
وجثا الطبيب يجسُّ نبضًا خافتًا ... ويَرُودُ مكمنْ دائها القتال
لم يَدْر حين دَنَا ليَبلو[٣]قلبها ... دقَّاتَ قَلْبٍ أم دبيب نِمالَ؟

* * *

ودعْتها وترَكْتُها فى أهلها ... وخرجتُ مُنْشَرِحًا رضىَّ البال
وعجزْتُ عن شكر الذين تجرَّدوا ... للباقيات وصالح الأعمال
لم يُخْجلوها بالسؤال عن اسمها ... تلك المروءة والشعور العالى
خيرُ الصنائع فى الأنام صنيعةٌ ... تَنْبُو بحاملها عن الإذلال
وإذا النَّوَال أتى ولم يُهْرَقْ له ... ماء الوجوه فذاك خير نوال
من جاد من بْعد السؤال فإنه ... -وهو الجوادُ- يُعدّ فى البُخَّال

* * *

لله دَرُّهُمُ فكم من بائسٍ ... جَمِّ الوجَيعة سيِّء الأحوال

---

(١) طارق باب الحياة: الجنين. ويريد بالمؤذن بالزوال: أمه.
(٢) الإعوال. البكاء.
(٣) يبلو: أى يختبر.

ترمى به الدُّنيا فمن جوعٍ إلى عُرْىٍ إلى سُقْمٍ إلى إقْلال
عينٌ مُسْهَّدَةٌ وقلبٌ واجفٌ نَفْسٌ مُرَوَّعةٌ وجيْبٌ خالى
لم يدْرِ ناظره أعُرْيانا يَرَى أم كاسيًا فى تلْكم الأسمال
فكأنَّ ناحِلَ جسمه فى ثَوْبه خلْفَ الخروق يُطِل من غرْبال
يابَرْدُ فاحملْ قد ظَفِرْتَ بأعزلٍ يا حَرُّ تلك فريسةُ المغْتال
يا عَينُ سُحِّى يا قلوب تَفطَّرى يانَفْسُ رقِّى يا مروءةُ والى
لولاهُمُ لقَضى عليه شقاؤُه وخَلا المجالُ لخاطف الآجال
لولاهم كان الرَّدى وقفًا على نفس الفقير ثقيلة الأحمال

* * *

لله دَرُّ الساهرين على الألى سهروا من الأوجاع والأوجال[1]
القائمين بخير ما جاءت به مدنيَّة الأديان والأجيال
أهْلِ اليتيم وكهفه وحُماته وربيع أهل البُؤس والإمحَال[2]

* * *

لاتُهْملوا فى الصالحات فإنَّكم لا تجهلون عواقب الإهمال
إنى أرى فقراءكم فى حاجةٍ -لا تعلمون- لقائلٍ فَعَّال
فتَسابقوا الخيرات فهى أمامكم ميدان سَبقٍ للجواد النَّال[3]
والمحسنون لهم على إحسانهم يوم الإثابة عَشْرَةُ الأمثْال
وجزاء رب المحسنين يجلُّ عن عَدٍّ وعن وَزْنٍ وعن مكيال

وقال فى سنة ١٩١١ يدعو إلى العطف على البؤساء:

دعوَةُ البائس المعذَّبِ سُورٌ يدفع الشَّرَّ عن حياض الكرام
وهى حرْبٌ على البخيل وذى البَغْـ ـى وَسَيْفٌ على رقاب اللِّئام
إنَّ هذا الكريم قد صان عِرْضى وحَمانى من عاديات السقام

---

(١) الأوجال. المخاوف.
(٢) الإمحال. الجدب.
(٣) الجواد. الكريم. والنال. الكثير النائل وهو العطاء.

عـال طفـلى وعـالنى و حَبـانى ... بـكـسـاءٍ وبـدرةٍ وطـعـام
وهـو من مَعشرٍ أغـاثـوا ذوى البؤْ ... س وقـامـوًا فى الله خـير القيام
وأقـامـوا لـلبرِّ دارًا فـكـانـت ... خـير وِرْدٍ يَـؤُمُّـه كـلُّ ظـامى
مُلِئَتْ رَحـمـةً وفـاضـت حَنَـانًـا ... فهى لـلبـائسـات دارُ الـسـلام

إلى أن قال فى الإحسان والزكاة:

قـد نَجَـا المنعم الجـواد من المـوْ ... ت بفَضْـل الـزَّكـاة والإنْـعـام
فـأطَفْنـا بهـا وقـد مـلأ الأنْـ ... ـفس منَّـا جـلالُ ذاك المقـام
وشهـدْنـا ثَغْـر الـوفـاء تجـلىّ ... إذ تجـلى فى ثَـغْـرهـا البسـام
ورأيـنْـا شـخص المـروُءة والبـ ... ـر تَبَـدَّى فى شخص ذاك الهمام
وعَلِمْنـا أن الـزكـاة سبيـل اللـه قبـل الـصَّـلاة، قبـل الـصيِّـام
خَصَّهـا الله فى الكتـاب بـذكـرٍ ... فهى ركـن الأركـان فى الإسـلام
بـدأتْ مبـدأ الـيـقـين وظلَّتْ ... لحيـاة الشعـوب خـير قـوام
لـو وَفى بـالـزَّكـاة مَن جَمَع الـدُّنـ ... ـيـا وأهـوَى على اقتناء الحُطام
مـا شكـا الجـوعَ مُعْـدِمٌ أو تَصَدَّى ... لـركـوب الـشـرور والآثـام
راكبًـا رأسـه طـريـدًا شـريـدًا ... لايـبـالى بِـشْـرعـةٍ أوذِمـام
سـائـلا عـن وصيـة الله فيـه ... آخـذًا قـوتَـه بـحـدِّ الحُسـام

ملجأ الحرية

ومن قصيدة له سنة ١٩١٩ فى تحية ملجأ الحرية، وفيها يهيب بالأثرياء أن يبروا الأيتام والفقراء، ويشير إلى يقظة الأمة سنة ١٩١٩ وما أحدثته الثورة فى النفوس من التطلع إلى المثل العليا.

أيهـا الـطفـل لـك البشرى فقـد ... قَـدَّر الله لـنـا أنْ نُـنْـشَـرا[١]
قَـدَّر الله حـيـاةً حُـرَّةً ... وأبَى سـبـحـانـه أنْ تُـقْـبَـرا
لاتخفْ جـوعًـا ولا عـرُيًـا ولا ... تَبْـك عيناكَ إذا خَـطْبٌ عَـرا[٢]

---

(١) نشر: أى نحيا ونبعث.

(٢) عرا: ألم ونزل.

لــك عـــنـــد الــبِرِّ فى مَــلْجئــه ... حيث تـأوى خـاطِـرٌ لن يُكْسَـرَا
حيث تلقى فيــه حَـدْبًـا وتــرى ... بــين أتْــرَابــك عيْشًــا أنضــرَا

* * *

لاتــسىءْ ظَــنَّــا بِمُشَــرينـــا فقــد ... تــاب عـن آثــامــه واستَـغْفــرا
كــان بــالأمسْ وأقــصْــى همِّــه ... -إنْ أتى عــارِفــةً[1]- أن يـظْهـرا
فغــدا اليــوم يُــواسى شعبَــهُ ... وهـــو لايــرغــبُ فى أن يُشْــكَــرا
نــبَّـهــتْ عــاطفــةَ الــبِرِّ بــه ... محِنْــةٌ عـمت ومـقــدارٌ جَــرَى
جَمَعَـتـنـــا فى صعـــيـــد واحـــدٍ ... وأرَادَتــنـــا عـــلى أن نُــقْـــهَـــرا
فتعـــاهـــدْنـــا عـــلى دَفــع الأذى ... بــركـوب الحَــزْم حتَّى نَــظْفَــرا
وتـــواصَـينـــا بـصــبرٍ بـيــنـنـا ... فَــغَــدَوْنـــا قُــوَّةً لاتُــزْدَرَى
أنْشَــرتْ[2] فى مصر شَعْبًــا صــالحًــا ... كـــان قبـل اليـــوم مُنْفَـكَّ العُــرا
كم محبٍّ هــائـــمٍ فى حــبِّـــهـــا ... ذاد عن أجفـانـه سـرح الكـرَى
وشبـــابٍ وكـهـــولٍ أقــســمــوا ... أن يشيـدوا مجدهـا فـوق الـذُّرَا

* * *

يــارجـــالَ الجِـدِّ هــذا وقـتـه ... آن أن يُـعْمَــلَ كُــلُّ مــا يَــرَى
مـلجــأً أومصــرِفًــا أومـصـنـعًــا ... أو نـقـسـابــاتٍ لــزُرَّاع الـقُــرَى
أنـــا لاأعـــذر مـــنـكـــم مـن وَنَى ... وهـــو ذو مَــقْــدرةٍ أو قَــصَّـــرا
فــابـدءوا بــالملْجأ الحُــرِّ الذى ... جئت لــلأيــدى لــه مُستَمــطِرا
واكفلوا الأيتــام فيــه واعـلمُــوا ... أنَّ كـلَّ الصيَّد فى جَــوْف الفَـرا
أيهـــا المُــثْــرى! ألاَ تَكْـفُـــل مَن ... بـــات محـرومًـــا يتيــا معُسِــرا؟
أنت مـــا يُــدريــك لــو أنبتَّــه ... ربمـــا أطْــلَعـــتَ بــدرًا نَــيِّـــرا
ربمـــا أطْلَعــت (سعــدًا) آخــرًا ... يُحكِمُ الـقـــول ويَـــرقى المنْبـــرا
ربمـــا أطـلعـت مـنـــه (عَـبْــدَه) ... مَن حَمَى الــدِّين وزان (الأزهــرا)
ربمـــا أطـلعـت مـنـــه شـــاعـــرًا ... مثـل (شوقى) نـابهًــا بـين الـوَرَى
ربمـــا أطــلعـت مـــنــه فــارسًـــا ... يدخل الغِيـل على أسْـد الشَّرَى[3]

---

(١) العارفة: العطية والمعروف.
(٢) أنشرت، أى أحيت.
(٣) الغيل: الشجر الكثير الملتف تأوى إليه الأسود، والشرى: مأسدة جانب الفرات بضرب بأسادها المثل.

كم طوى البؤس نفوسًا لو رعَت — منبتًا خصبًا لكانت جَوهرًا
كم قَضى العُدم على موهبة — فتوارت تحت أطباق الثَّرى

* * *

كلُّ من أحيا يتيمًا ضائعًا — حَسبه من ربِّه أن يؤْجَرا
إنما تُحْمَد عُقْبَى أمره — مَن لأخراه بدُنياهُ اشترى

جمعية إعانة العُميان

وقال فى سنة ١٩١٦ فى احتفال أقامته جمعية إعانة العميان:

إن حق الضَّرير عند ذوى الأبـ — ـصار حقٌّ مستوجب التَّقْديس
لم يَضِرْه فقْدانُه نُور عينيـ — ـه إذا اعتاض عنهما بأنيس
آنسوا نفسه إذا أَظْلم العيْـ — ـش بعلم فالعلم أنس النفوس
وَجِّهوه إلى الفلاح يُفِدكم — فوق ما يستفيده من دروس
أكملوا نَقْصَه يكن عبقريًّا — مثْل (طه) مُبرِّزًا فى الطُّروس
كم رأينا من أكْمهٍ لايُجارى — وضريرٍ يرجى ليوم عبوس
لم تقف آفة العيون حجازًا — بين وثباته وبين الشموس
عَدِمَ الحِسّ قائدًا فحداه — هَدىُ وجدانه إلى المحسوس
مثل هذا إذا تعلم أغنْى — عن كثيرٍ وجاءنا بالنفيس
ذاك أنّ الذكاء والحفْظ حَلَّا — فى جوار النُّهى بتلك الرءوس
فعلى كلِّ أكمةٍ وبصير — شكر أعضائكم وشكر الرئيس

المال والعلم والأخلاق

قال سنة ١٩٢١ باسم مصر، قصيدته - مصر تتحدث عن نفسها -:

وارفعوا دولتى على العلم والأخلا — ق فالعلم وحده ليس يجدى

وقال سنة ١٩١٠ من قصيدة له (ص ١٢٦) فى الحث على إعانة مدرسة للبنات ببورسعيد:

كَمْ ذا يُكابدُ عاشقٌ ويلاقى — فى حُبِّ مصْر كثيرةِ العُشّاق
إنِّى لأَحمِلُ فى هَوَاك صبَابَةً — يامِصْرُ قد خَرَجَتْ عن الأطْواق

لَهْفي عليك متى أراك طليقةً | يَحْمى كريم حِماك شَعْبٌ راقى
كَلِفٌ بِمحْمود الخِلال مُتَيَّمٌ | بالبذل بين يَدَيْك والإنْفاق
إنِّى لتطربُنى الخِلالُ كريمةً | طَرَبَ الغريب بأَوْبةٍ وتلاقى
وتَهُزُّنى ذكرى المروءة والنَّدى | بين الشَّمائل هِزَّةَ المشتاق

* * *

فإذا رزقْت خِليقةً محمودةً | فقد اصطفاك مُقَسِّمُ الأرزاق
فالناس هذا حَظُّه مالٌ وذا | علْمٌ وذاك مكارم الأخلاق
والمال إنْ لم تدخره مُحصَّنًا | بالعلم كان نهايةَ الإمْلاق[1]
والعلم إن لم تكتنفه شمائلٌ | تُعْليه كان مطيَّة الإخفْاق
لاتحسبنَّ العلم ينفع وحدهُ | ما لم يُتَوَّجْ ربُّه بخلاق[2]

فضل المرأة على المجتمع

وقال فى هذه القصيدة ينوه بفضل المرأة فى المجتمع:

من لى بتربية النِّساء؟ فإنها | فى الشَّرق علّةُ ذلك الإخفاق
الأمُّ مدْرسةٌ إذا أعددتها | أعددتَ شَعبًا طيب الأعْراق[3]
الأمُّ رَوضٌ إن تعهده الحيا[4] | بالرىِّ أورَق أيما إيراق
الأمُّ أستاذُ الأَساتذة الألى | شغلت مآثرُهم مدى الآفاق

* * *

أنا لاأقول دعوا النساء سوافرًا | بين الرجال يَجُلْن فى الأسواق
يَدرُجن حيث أردن لا من وازع | يحذرن رقْبتَه ولا من واقى
يفعلن أفْعال الرِّجال لواهيا | عن واجبات نواعس الأحداق
فى دورهن شئونُهُنَّ كثيرةٌ | كشئون ربِّ السيف المزراق[5]

---

(١) الإملاق: الفقر.
(٢) الخلاق: النصيب من الخير والصلاح.
(٣) الأعراق: الأصول، الواحد عرق.
(٤) الحيا: المطر.
(٥) المزراق: الرمح.

كــلَّا ولاأدعــوكم أن تُســرفــوا في الحجْب والتَّضييق والإرْهــاق
ليْست نســاؤكم حــليً وجــواهـرًا خـوف الضيَّاع تصـان في الأحقاق
ليسـت نســاؤكـم أثــاثًــا يُقتنَى في الــدور بـين مخَــادعٍ وطبــاق
تــتشكَّــل الأزمــان في أدوارهـــا دُوَلًا وهنَّ عــلى الجمــود بــواقى
فَتـوسَّـطوا في الحـالتـين وأنصفـوا فــالشَّــرُّ في التّقييــد والإطــلاق
ربُّــوا البنـات عــلى الفضيلة إنها في المــوقـفــين لهنّ خــيرُ وَثــاق
وعـليكـم أنْ تسـتبــين بـنــاتكـم نـور الهُـدى وعـلى الحيـاءِ البـاقى

المناصب والفضائل

من قوله في رثائه لمحمود سامى البارودى:

إنّ المنــاصب في عـزل وتــوليــة غــير المـواهب في ذكــر وتخليــد

ومات حافظ سنة ١٩٣٢ بعد أن خلف لمصر والشرق ذخيرة من الوطنية وكنوزا من الشعر والحكمة والأخلاق لا تفنى ولا تنفد على مر الزمان.

خليل مطران
شاعر الحرية
١٨٧٢ - ١٩٤٩

شاعر الحرية والعروبة، حمل لواء التجديد فى الشعر، نيفا ونصف قرن من الزمان، وبلغ الذروة فى عالم الشعر والفن والبلاغة والخيال.

ولد سنة ١٨٧٢ فى بعلبك إحدى المدن الشهيرة بلبنان، ونشأ نزاعا إلى الحرية سمح النفس، كريم الخلق، صفى السريرة، محبًا للخير، وديعًا فى شمم وإباء، معتزًا بكرامته، عيوقا عن الصغائر.

ضاق صدرا منذ صباه بجوّ يضغط على حرية الرأى والفكر، فارتحل إلى باريس يتمم فيها دراسته وعلومه، وهناك ارتوى من مناهل الآداب الغربية، وإذ كانت شاعريته وليدة فطرته وسليقته، فقد اتجهت نفسه بتأثير الأدب الفرنسى إلى التجديد فى شعره، فجمع بين البلاغة العربية والأساليب والمعانى الأوروبية.

ثم هاجر إلى مصر، واتخذها موطنه الثانى، بل موطنه المختار.

أخلص لها، وغرّد فى أكنافها، وتعشق نيلها وأرضها وسماءها، وهو ثالث الثلاثة الذين عاشوا معا وانتهت إليهم زعامة الشعر فى العصر الحديث: شوقى وحافظ ومطران.

ألهمه حب الحرية نظم القصائد الرائعة فى تمجيدها والذود عنها، والجهاد فى سبيلها، فكان من أعلامها الخالدين.

كان إنسانا فى شخصه وفى أخلاقه وفى شعره وأدبه.

كان فى شعره ينشد الكمال، ويحلّق فى أجواء الحرية والوطنية.

كان يستلهم شعره من المثل العليا، وفى ذلك يقول عن نفسه فى الاحتفال بيوبيله الذهبى سنة ١٩٤٨.

كان فى الشعر لى مرامٌ خطير فعَدَا طوقِىَ المَرامُ الخطيرُ
هائم فى الوجود أسأله الوحـ ـى كما يسأل الغنىَّ الفقيرُ
أكبرونى ولست أكبر نفسى أنا فى الفن مستفيد صغير
لا يَضِقْ صدرُ شاعر بأخيه يكره الفضلُ أن تضيق الصدور
والسماوات لو تأملتَ فيها ليس تُحصَى شموسُها والبدورُ
كل جرم يعلو ويصبح نجما فله حيِّزٌ وفيه بدور
والنجوم التى تلوح وتخْفَى رَبَوَاتٌ وما يضيق الأثير

وبهذه الروح العالية، والنفس الصافية، والود الخالص، والإيثار والأريحية، عاش محبوبًا من معاصريه: يحبهم ويحبونه، وينشد لهم الخير والكمال.

وقد أرخ فى شعره الوطنى العذب مراحل النهضة المصرية والشرقية، وسجل حوادثها ووقائعها، وترجم لرجالها وأشخاصها، وغذى بقصائده الروح الوطنية جيلا بعد جيل.

يمتاز شعره بسعة الخيال وجمال التصوير وبلاغة التعبير، هذا إلى اقتباسه من آداب اللغة الفرنسية التى درسها وتمكن منها تمكنه من آداب اللغ العربية، فجمع بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية، وهو زعيم مدرسة التجديد فى الشعر العربى، وسار على نهجه تلاميذه ومريدوه.

وقد عبر أبلغ تعبير وأرقَّه عن منهج التجديد فى شعره، بقوله فى مقدمة الطبعة الثانية لديوانه سنة ١٩٤٨ قال:

«هذا شعرى، وفيه كل شعورى، هو شعر الحياة والحقيقة والخيال، نظمته فى مختلف الآونة التى تخليت فيها عن العمل لرزقى، نظمته مصبحًا وممسيًا، منفردًا ومتحدثًا مع عشرائى، وقيدت فيه زفراتى وأحلامى، وسجلت بقوافيه أحداث زمانى وبيئتى فى دقة واستيفاء.

«أتابع السابقين فى الاحتفاظ بأصول اللغة، وعدمم لتفريط فيها، واستيحاء الفطرة الصحيحة، وأتوسع فى مذاهب البيان مجاراة لما اقتضاه العصر، كما فعل العرب من قبلى، أما الأمنية الكبرى التى كانت تجيش بى، فهى أن أدخل كل جديد فى شعرنا العربى بحيث لا ينكره، وأن أستطيع إقناع الجامدين بأن لغتنا أم اللغات إذا حفظت وخدمت حق خدمتها، ففيها ضروب الكفاية لتجارى كل لغة قديمة وحديثة فى التعبير عن الدقائق والجلائل من أغراض الفنون، وإنى لأرجو أن يرى المطلعون على هذا الجزء الثانى وما يليه من أجزاء (ديوان الخليل) مصداقًا لدعواى».

وقال عنه صنوه وصديقه حافظ يشيد بنزعته فى التجديد:

«هو فى طليعة أولئك الذين خرجوا من أفق التقليد وصدعوا قيود التقييد، وأوسعوا صدر الشعر العربى للخيال الأعجمى، وأفسحوا فيه للقصص وتصوير الحوادث، وطوَّفوا بسرد وقائع التاريخ، ففتح بذلك فتحا جديدًا شنَّ فيه الغارة على أهل الحفاظ والتمسيك».

وكان من أركان المسرح العربى بما كتب لهذا المسرح وعرَّب، فقد ترجم ليالى الفريد دى موسيه، ورواية هرنانى لفكتور هيجو، كما ترجم لكورنيل مسرحيات (السيد) وسينا وبوليكت، وترجم روايات شكسبير: هاملت، ومكبث، وعطيل، وتاجر البندقية.

النهضة العربية

قال سنة ١٩٠٨ يحيى نهضة الشعوب العربية:

داعٍ إلى العهد الجديد دعاكِ ... فاستأنفى فى الخافقين عُلاكِ
يا أمَّةَ العرب التى هى أُمُّنا ... أىُّ الفَخارِ نَمَيْتِه ونماك؟
يمْضى الزمان وتنقضى أحداثه ... وهواك منًّا فى القلوب هواك
إنَّا نقاضى الدهر فى أحسابنا ... بالرأى لا بالصَّارم الفتَّاك
ومِلاكُ شيمتنا الوفا فإنَّه ... لسعادة الأقوام خير مِلاك
آمالنا آلامنا أرْواحنا ... أَشْباحنا يوْمَ الفدَاء فداك
بالعلم ننْشُرُ ما انطوى من مجدنا ... وبه نزكِّى فى الوَرى ذكراك

مطران ومصطفى كامل

كان بينه وبين الزعيم مصطفى كامل صداقة وود داما طول العمر، كان مؤيدا لدعوته نصيرًا لرسالته، دافع عنها فى حياة مصطفى، وظل وفيا لها بعد وفاته، ويبدو مبلغ إعجابه به وتقديره لعبقريته فى قصيدته التى أنشدها سنة ١٩٠٨ فى حفلة الأربعين لوفاته، وقد نشرها فى ديوانه وصدرها فى طبعته الأولى بهذه الكلمة التى تعد فى ذاتها قصيدة من النثر المنظوم، قال: «مصاب الشرق فى رجله المفرد، وبطله الأوحد، مصطفى باشا كامل، أيتها الروح العزيزة! إن فى هذا الديوان الذى اختتمه برثائك، نفحات من نفحاتك، ودعوات من دعائك، فإلى هيكلك المدفون بالتكريم تحية الأخ المخلص للأخ الحميم، ووداع المجاهد المتطوِّع للقائد العظيم».

وجعل عنوان القصيدة (حق الوطن وحق الإخاء) قال:

أعلى مكانتك الإلهُ وشرَّفا — فانعم بطيب جواره يا(مصطفى)
اليوم فُزت بأجر ما أسلفتهُ — خيرًا، وكلٌّ واجدٌ ما أسلفا
وجزُيت من فانى الوجود بخالد — ومن الأسى الماضى بمقتبل الصفًا

* * *

أعظمْ بيومك فى الزمان ومن له — بك واصفًا ذاك الجلال فيوصَفا
حيث الوفود من الملائك أقبلوا — حافّين حولك فى السرير وعُكَّفا
وتحمَّلوك على الأشعَّة وارتقوا — سربًا يجوز بك الدرارى موجفا
فوردت وِرْدك فى الخلود منعَّما — والأرضُ مائدةٌ عليك تأسّفا
لم تُلْف قبلك أمَّةً فى مشهد — يذرْو الرجالُ به المدامع ذُرَّفا
يمشون من حول الجنازة ضائقًا — بهم الرحيبُ من المسالك مصرفا
متثاقلين من الوقار وإنما — ساروا بطيفٍ ناحلٍ أو أنحفا
بحرٌ من الأحياء نعشُك فوقه — فُلْكٌ يظِّلله اللواء مرفوفا
يبكون فى آثاره العَلَم الذى — آثارُهُ من رفعةٍ لا تُقْتفى

* * *

سَعَت الخوادِرُ حاسراتٍ والأسى — مُلْقٍ على الأبصار سِتْرا أغدفا
ولئن سفرن ولم يخَلْنَ فإنه — خطبٌ ألانَ بروْعه صُمَّ الصفا
فزِع الشبابُ إلى الشيوخ بثأرهم — من دمعهم إن خانهم متكفكفا
ومن الغضاضة أن دعا داعى العلا — بعد الفقيد فتىً بهم فتوقفا
جزع النصارى واليهود لمسلم — هو خير من والى وأوفى من وفى
بكَوا المرجَّى فى خلافٍ عارضٍ — ليزيل ذاك العارض المتكشِّفا
واشتد رُزْءُ المسلمين وحزنهم — لما مضيتَ ولست فيهم مُخْلِفا

* * *

مَن بَعْدَ كاتبهم وبَعدَ خطيبهم — يُعلى لهم صوتًا وينشرُ مصحفا ؟
من يبرىء الإسلامَ من تُهم العِدى — ويردّ نقد الناقدين مزيَّفا ؟
يُبدى لأعين جاهِليه فضلَهُ — ويزيلُ ما يلدُ التناكرُ من جفا

ويثـير من غضب الغضاب لمجدِه   همًّا تعيد له المقام الأشرفا

لكنَّ من أقلام جندِك حوله   سُمرًا تهزُّ لكل خطبٍ معطفا

ولعل حُرًّا لا يدين به انبرى   ليذودَ عنه خصمهُ المتعسفا

قِفْ أيها الناعى عليه جمودَهُ   فلقد تجاوزت الهدى متفلسفا

إن يَعترِ الشمس الكسُوفُ هنيهةً   أيكون منقصةً لها أن تُكسفا ؟

وهل الكسوف سوى تَعرض حائل   يثنى أشعتها إلى أن يُكْشَفَا

لم تنزل الأديان إلا هاديا   للعالمين ورادعًا ومثقِّفا

بشعارِ حيَّ على الفلاح وما بها   أن قصر الأقوامُ عنه فأخلفا

وبكل أمر موجبٍ إصلاحهم   أن خالفوه فما استحال ولا انتفى

قد كان للإسلام عهدٌ باهرٌ   نلنا به هذا الرّقىّ مُسَلّفا

ملأ البلاد إنارةً وحضارةً   ومُنَى السماحةِ عودُهُ مستأنفا

فالخيرُ كلُّ الخير فيه مقبلًا   والشرُّ كل الشر أن يتخلفا

يدعو البقاءُ إلى التكافؤ بالقوى   بين العناصر أو يهينَ ويضفعا

والخلق جسمٌ إن ألمَّ ببعضه   سَقمٌ ولم يُتلَافَ عَمَّ وأتلفا

بشرى البريةِ بعد مُزْمِن دائها   بسلامة الإسلام وهى لها شِفَا

إن أغضبت تلك السلامة جائرًا   أرضت خبيرًا بالحياة ومنصفا

يا من نهضتَ بنصرِهِ وأَبنتَه   حقَّ الإبانة هل تبالى مرجفا ؟

مازلتَ فى مصر تقيم منارَه   حتى أنارَ الكونَ منها مُشْرِفا

* * *

مصر العزيزة قد ذكرتُ لكَ اسمها   وأرى ترابَكَ من حنين قد هَفَا

وكأننى بالقبر أصبح مِنبرًا   وكأننى بك مُوشِكٌ أن تهتفا

مصرُ التى لم تحظ من نجبائها   بأعزَّ منك ولم تعزَّ بأحصفا

مصرُ التى لم تبغ إلا نفعَها   فى الحالتين ملاينًا ومعنِّفا

مصرُ التى غسلت يداك جِراحَها   بصبيب دمعك جاريًا مستنزفا

مصرُ التى كافحتَ لدَّ عُداتها   متصدرًا لرماتها مستهدفا

مصرُ التى سُقتَ الجيوش مناقبا   ومُنًى لتكفيها المُغير المجحفا

مصـرُ التى أحببتهـا الحبَّ الـذى ... بلغ الـفـداء نـزاهـةً وتـعـفـفـا
حتى مضيتَ كما ابتغيتَ مؤلِّفا ... من شملها ما لم يكن ليؤلَّفا
أمنيةٌ أعييتَ خلالك دونها ... لو لم يضافرُها رداك فيُسعِفا
وهى التى لو قُسِّمت لَنَا بها ... شعبٌ يعزّ بنفسه مستنصفا

* * *

من كان أجرأً منك يوم كريهةٍ ... بالحق لاشكسًا ولامتصلفا
من كان أقدرَ منك تصريفًا لما ... يُعيى الحكِيمَ مدبِّرًا ومصرِّفا
من كان أطهرَ منك خُلْقًا جامعا ... فيه مهيب الطبع والمستظرَفا
من كان أزهد منك إلا فى الذى ... يُجدِي البلادَ فتبتغيه مُلْحفا
من كان أسمعَ منك منّاعًا لما ... تهوى ومعطاءً لغيرك مُسرفا
من كان أصدق منكَ لامتنصلاً ... مما تقولُ ولا تعاهدُ مُخِلفا

* * *

لهفى على فخر الصِبى هادى النهى ... عالى اللواء حمى المروءة والوفا
يا من نعى تلك الفضائلَ والعلى ... أغدت معالمهنّ قاعًا صفصفا
لالا وحقك يا شهيدَ وفائه ... ورجائه كذبَ النعيُّ وأرجفا
ما أنتَ بالرجل الذى يمسى وقد ... ملىء الوجودُ به ويصبح قد عَفَا
إنى أراك ولا تزال كعهدنا ... بك فى جهادك أو أشد وأشعفا
ثابرْ على تلك العزائم ذائدًا ... عن مصر تضربُ فى البلاد مطوّفا
أصدر صحائفك التى تحيى بها ... بضْوَ الطريق وتدفع المتخلفا
تجرى بها الأنهارُ وهى دوافقٌ ... همًا وتوشك أن تَطمَّ فتجرفا
وتكاد أسطُرها تهبُّ نواطقًا ... ويكاد يعزِفُ كلُّ حرف مَعْزفا
فإذا حنوتَ على الحمى متحببًا ... فهو النسيم وقد ذكا وتلطفا
وكأنما الألفاظ مما خَفَّفتُ ... نَقشَ المدادُ رسومَها وتخففا
تُستام من أثوابها أرواحهُا ... وتعاف تحلية لئلَّا تكشفا
قمْ للخطابة فى المجامع وامتلك ... تلك النفوس مروّعا ومشنفا
أعد القديم من الممالك والقرى ... ذكرى وعرِّفنا الحياة لنعرفا

شدِّدْ عزائمنا وقاتلْ ضعفنا ... حتى نَبيتَ ولا نرى متخوِّفا
ما هذه الآياتُ يَرْمى لفظُها ... شررًا وتهوى الشهبُ فيها أحرفا
ما ذلك الترصيعُ ليس مرصَّعًا ... ما ذلك التفويفُ ليس مفوَّفا
وحىٌ بأهجيةٍ إذ ما أطْلَقتْ ... هبطت رواسبَ عنه والمغزى طَفا
تُحيى حرارتُها ويَهْدِى نورُها ... متماهِلَ الإشراق أو متخطِّفا
تالله ما أنت الخطيبُ وإنما ... وقَفَ القضاءُ من المنصَّة موقِفا
عَن نطقهِ تقعُ الصروف مواعظًا ... وكأمره أمرُ الزمان مصرَّفا

* * *

يا حبذا لو كلُّ ذلك لم يَزَلْ ... لكنه حُلمٌ مضى مستطرَفا
والآن نحن لدى ثراك نحجّه ... متلهبين تشوقا وتشوفا
نُثنى وهل يوفَى تناؤُك حقَّه ... وبأى ألفاظ المحامد يُكتَفى
ماذا يُعيضك من شبابك نظْمُنا ... فيكَ الرثاءَ منسَّقا ومصففا
ويُعيض منك وكنت جوهرة الحمى ... صوغُ الكلام مرصَّعًا ومزخرفا

* * *

يا أخلص الخلصاء أبكى بُعدَه ... كبكاء مصر تحرّقا وتلهفا
هذا مثالُك لاحَ يرعانا وقد ... كشف الجوى عنه الحجاب فأشرفا
جاد الهلال برسمه تاجًا له ... وكستهُ ناسجةُ الطهارة مُطرَفا
يا من رماه عُداتُه بتطرف ... حققت آمال الهُدى متطرفا
كهواك للأوطان فليكن الهوى ... لامفترى فيه ولا متكلِّفا

يجرى على قَدر المطالب تاميا ... ويَجلُّ فى مجراهُ عن أن يَصْدِفا
أنشأتَ من مصرَ الشتاتِ بفضله ... مصرَ الفتاةَ حِمى يُعز ومألفا
أحدثت فيها أمةً أندى يدًا ... للصالحات وبالعظائم أكلفا
عرَّفتَ أهليها حقيقةَ قدرِهم ... وكفاهُم من قدرهم أن يُعرَفا
نفحاتُ روحك خامرت أرواحَهم ... فهم مرامُك ساءَ دهرٌ أو صفا
حِصْنٌ أشمُّ تساندت أجزاؤه ... عِلمًا وأمَّنه النُّهى أن يُنسفَا

فارقُدْ رقادَك إن ربك قد محا ... بك ذنْبَ مصر كما رجوتَ وقدْ عفا

وله فى سنة ١٩٣٣ قصيدة عصماء ألقاها لمناسبة مرور عام على وفاة حافظ إبراهيم، ضمنها وصفًا رائعًا للنهضة القومية التى كونت حافظا، وجعلته الشاعر المطبوع المترجم عن آمالها وآلامها، وكيف أن هذه النهضة هى غرس مصطفى كامل، وكيف تعهدها بجهاده إلى أن مات، وبموته كانت الآية التى تم بها استقرارها، قال فيها:

طرأتْ حالةٌ تيقَّظ فيها ... لدعاة الهدى ضمير السواد[1]

فإذا (حافظ) وقد بثَّ ما فى ... نفسه من تجهّم واربداد

وبدا للمنى الجلائل فيها ... أفقٌ واسع المدى لارتياد

ما تَجَلى نبوغُه كتجلّيه ... وقد هبَّ (مصطفى) للجهاد

يوم نادى الفتى العظيم فلبَّى ... من نَبا[2] قبلَه بصوت المنادى

وَوَرىَ[3] ذلك الشعور الذى كا ... ن كمينًا كالنار تحت الرماد

فتأتَّى بعد القنوط الدَّجُوجـ ... ـىّ[4] رجاءٌ للشاعر المجواد

مس منه السوادَ فانبجست نا ... ر ونور من طيِّ ذاك السواد

أكبر الدهرُ وثبةً وثبتها ... مصرُ مفتكّة من الأصفاد

وثُغاءٌ[5] غدا هزيمًا[6] فألقى ... رُعبه فى مرابض الآساد

ما الذى أخرج الشجاعة من حيـ ... ـث طوتها قرونُ الاستبداد

وجَلا غُرة الصلاح فلاحت ... تزدهى من غياهب الإفساد

فإذا أمةٌ أبيةُ ضيم ... مالها غير حقها من عَتاد

نهضت فجأة تنافح فى آ ... نٍ عدوّين أسرفا فى اللداد

أجنبيًا ألقى المراسىَ حتى ... تقلع الراسياتُ فى الأطواد

وهوانًا كأنما طبع الشعـ ... ـبَ عليه تقادمُ الإخلاد

حلبة يُعذرُ المقصِّر فيها ... والخواتيم رَهن تلك المبادى

ليس تغييرُ ما بقوم يسيرًا ... كيف ما عُودوه من آماد؟

غير أن الإيمان كان حليفًا ... لقلوب الطليعة الأنجاد

---

(١) يريد الجمهور.

(٢) نبا: جافى وتباعد.

(٣) ورى الزند: خرجت ناره.

(٤) المظلم.

(٥) الثغاء: صوت الشاة والمعز.

(٦) الهزيم: صوت الرعد.

فاستعانوا به على ما ابتغوه غير باغين من بعيد المراد

إلى أن قال:

بعد وثْبٍ فى إثر وثْبٍ عنيف وارتدادٍ فى الشوط غِبّ ارتداد
ساور الأمة الترددُ والتا ث[1] عليها فى السير وجهُ الرشاد
لا تسل يومذاك عن جلد القا دة فى مُلتقى الخطوب الشداد
كلما ازدادت الصعاب أبْوا إ لّا كفاحا وعزمُهم فى ازدياد
يبذلون القوى وفوق القوى غير مبالين أنها لنفاد
و (الزعيمُ الأبرُّ) أطيبهم نفساً عن النفس صراع العوادى
هل ينجى شعبًا من اليأس إلا حَدَث من خوارق المعتاد
مصطفى مصطفى بحسبك إن يذ كرْ فداءٌ أن كنتَ أول فاد
مصطفى مصطفى ليهنئك أن أحيـ ـيت قومًا بذاك الاستشهاد
دب فيهم روحٌ جديد له ما بعدَه فى القلوب والأخلاد[2]
تنقضى الحادثات بعدك والرُّو ح مقيمٌ فيهم على الآباد
كادَ يومٌ شيعتَ فيه يريهم لمحةً من جلال يوم المعاد
صدروا عنه بالتعارف فيما بينهم وهو قوة الأعداد
واستشفوا لبأسهم فيه سرا كم تحامى أن يدركوه الأعادى
هذه مصر الفتية هبّتْ فى صفوفٍ فتيَّةٍ للذياد
رجل مات مُخلفًا منه جيلًا رابط الجأش غير سهل المقاد
عهد نور من الحفاظ ونار بعد طول الخمود والإخماد
تخذت عبقرية الشعر فيه سلّمًا للعروج والإصعاد
أبلغت (حافظًا) من الحظ أوجًا زاد منه العَلياء كل مراد

إزاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل

وله فى سنة ١٩٤٠ قصيدة عن مصطفى كامل نظمها لمناسبة إزاحة الستار عن تمثاله بعد ظل حبيسا فى «مدرسة مصطفى كامل» من سنة ١٩١٤. قال:

(١) التاث عليه الأمر: اختلط والتبس.
(٢) الأخلاد: العقول.

أمنوا بموتك صولة الرئبال ... ماذا خشوا من فتنة التمثال؟
حبسوه عن مقل إليه مشوقة ... فاضت أسى ودموعهن غوال
حتى أرادت مصر غير مرادهم ... وجلاء من أوفى بنيها جال
أَتُهَيِّىء استقلالَ قومك جاهدًا ... وتُذادَ عنهم يوم الاستقلال؟
أنصفت بعض الشيء بل هى توبة ... فى بدئها ولكل بدء تال
فلقد تئوب وجد غيرك عاثر ... فيها ادعى صلفا وجدك عال
يا حسن عودك والكنانة حرة ... تلقاك بالإكرام والإجلال
أيروعك الحشد الذى بك يحتفى ... من غُرٍّ فتيانٍ وصيد رجال
ماذا بثثت من الحياة جديدة ... فى هذه الآساد والأشبال
بعث لموطنك العزيز رجوتَه ... وسواك يحسبه رجاء محال
خاطرت فيه بالشباب وبذله ... سرف لمطلوب بعيد نوال

* * *

أى مصطفى! ولت سنونٌ وما اشتفى ... شوقى إليك فهن جد طوال
عجب بقائى بعد أكرم رفقة ... زالوا ولم يشأ القضاء زوالى
هم صفوة الدنيا وكانوا صفوها ... فأحق حيٍّ بالأسى أمثالى
حزن بعيد الغور فى قلبى فإن ... وجب الرثاء فإنما يُرثى لى
ماذا أقول وهذه أسماؤهم ... وشخوصهم ملء الزمان حيالى
تعتادنى فى مسمعى أو ناظرى ... وإلى يمينى تارة وشمالى
إنى لأحفظ عهدهم وأصونه ... فى كل حادثة ولست بآل
وكأن حسى حسهم فرحا بما ... يقضى الحمى من حقهم ويوالى
كم فى مغارسهم جنى ألفيته ... متجددا بتعاقب الأحوال
سلوى أتاحتها مآثرهم وقد ... يغدو الفراق بها شبيه وصال
وكذاك مجد العبقرية والفدى ... لا ينقضى بتحول الأحوال

* * *

أى مصطفى ما كنت إلّا كاملا ... لو كان يتصف امرؤ بكمال
ماذا لقيت من الصبى ونعيمه ... غير المكاره فيه والأهوال
إنى شهدت شهادة العينين ما ... عانيت فى الغدوات والآصال
متطوعا تسخو بما يفنى القوى ... من جهد أيام وسهد ليالى

إذ قمت بالأمر الجسام ولم يكن　　فيمن أهبت بهم مجيب سؤال
حال التورع دون إغراء المنى　　زمنا نما من مسعد وموال
والقوم فى ظمأ ووعدك مطمع　　لكن يرونٍ له رفيف الآل
تسعى ويعترض السبيل قنوطهم　　فى كل حِلّ منك أو ترحال
فتظل تضرب فى جوانبه وما　　تلقى إلى نظر الحبوط ببال
لك دون ما تبغى مضاء مصمم　　لا ينثنى وبلاء غير مبال
حتى إذا وضح اليقين وصدقت　　دعواك آية ربك المتعالى
فثويت أظهر ما تكون على عدى　　مصر بعقبى دائك المغتال

* * *

هزت منيتك البلاد ولم تكن　　بأشد منها هزة الزلزال
فالقومُ من جزع عليك كأنهم　　آل وقد رزئوا عزيز الآل
كشف الأسي لهم الحجاب فأيقنوا　　أن الحياة مطالب ومعال
وتبينوا أن الخنوع مهانة　　لا يستطال بها مدى الآجال
لله حسن بلائهم لما أبوا　　متضافرين دوام تلك الحال
وتوثبوا بعزيمة مصدوقة　　برئت من الأحقاد والأوجال
يردون حوضا والمنايا دونه　　مستبسلين ضروب الاستبسال
حتى أتيح الفتح يجلو حسنه　　فى يومه إحسان يوم خال
فتح بدا اسمك وهو فى عنوانه　　متخضبا بدم الشباب الغالى
إيها شديد الحب للبلد الذى　　لا أنت ساليه ولا هو سال
أبهج بأوبتك السنية طالعا　　فى أفقه كالكوكب المتلالى
للذكر آفاق سحيقات المدى　　ولزهرها المتألقات مجال
فإذا دنت منا فتلك عوالم　　وإذا نأت عنا فتلك لآلى
تطوى من الأدهار مالا ينقضى　　وتجول فى الأفكار كل مجال
أنوار وجهك طالعتنا اليوم من　　برج حللت به لغير زيال
قد أثبتتها مصر بين عيونها　　فالحال متصل بالاستقبال
نعم الثواب لذى مآثر فى الفدى　　فرضت محبته على الأجيال

* * *

فتيان مصر وعهدها غير الذى　　عانته فى الأصفاد والأغلال

حيوا مديل حياتها من يأسها — ومــذلــل الآلام لــلآمــال
حيوا زعيم اليقظة الأولى بها — وخطيب ثورتهـا فى الاستهلال
هـذى مواكبهـا وتلك وفودهـا — فى ملتقى ذى روعـة وجمـال
حفلت بـرمز نهوضهـا ومثالـه — مـالا تـدانى صنعـة المثـال
لكنهـا مهـج بنتـه ولم تكن — إلّا ذرائعهـا فضـول المـال
وكفاه فخرا أن ذاك المال لم — يك مكس جاب أو تطول وال
رسم يلوح وفيـه معنى أصله — فيـروع بـين حقيقـة وخيـال
لان الحديد لـه فصاغ لعينـه — أثـرًا على الأيـام ليس يبـال
كم فى بليغ سكوته من عبرة — أوفى وأكفى من فصيح مقال
هو خالد ويظل مـدره قومـه — فى كـل نازلـة وكـل نضـال

تحيته للمجاهدين فى المؤتمر الوطنى ببروكسل سنة ١٩١٠

ونظم فى سنة ١٩١٠ قصيدة ناجى فيها الوطنيين الأحرار الذين اغتربوا عن مصر لحضور المؤتمر الوطنى الذى عقد برآسة المرحوم محمد فريد بمدينة بروكسل فى سبتمبر سنة ١٩١٠. قال:

أتـراه فـوق منـاكب الأدهـار — شفقٌ تخلَّفَ عن بديع نهار[١]
حقبٌ دَجَت منها السُّفوح ولم يزل — فوق الذرى منها بريق نضار[٢]
يا مغرب الماضى أما من آية — فتعود فى سَحَر من الأسحار؟
هـذا صباحٌ مقبـل من غيبـه — فتبيَّنـوه يـا أولى الأبصـار
تجد العُيون على نواصى أفقه — ضـواءًا تألَّق من وراء ستـار
سَحَر الرجاء بدا لكم وإزاءَهُ — شفق البقية من عُلًا وفخار[٣]
شقان من حَلى أغرَّ تصوغـه — تـاجًا لمصـر أنامـلُ المقـدار[٤]

---

(١) يشير إلى ذكرى المجد القديم وأنها باقية على الدهر ويعبر عنها بالشفق، أى النور المتخلف عن الشمس بعد غروبها.
(٢) الحقب السنون. ودجا أظلم. الذرى؛ جمع ذروة، أعلى الشىء. والنضار الذهب. أى أن عهود التأخر قد تركت ظلامًا مخيما على البلاد. ومع ذلك لا يزال فوق الذرى نور الشمس التى غربت.
(٣) أى يتجلى فجر الأمل وأمامه الذكرى الساطعة للمجد القديم.
(٤) الحلى وجمعه حلى ما يصنع من مصوغ المعدنيات، أو الحجارة الكريمة والمقدار هو القدر، يريد أن مجد الماضى والمجد المأمول للمستقبل يتقابلان كشقى تاج لمصر.

تـاجٌ ستلبسه الفتـاة مخلَّفـا عن أمها فى سالف الأعصـار
ويكـون من آيـاتـه وشُعـاعـه آيـات مجـد رجـالهـا الأخيـار

* * *

نجبـاءَ مصر الـواترين لِعـزها وجـلالهـا من ذلـة وصغـار[١]
خوضوا غمار الضيم دون رجائكم لا فوز إلاَّ بعد خوض غمار
ما شاء سعْدُ الدار أن تشقَوْا له فاشقَوْا له ما شاء سعد الدار
إن شَقَّ ترحالٌ فهذى هجرةٌ لا شُقـةٌ[٢] فى مثلهـا فبـدار
سيروا تتموا فى الحياة فطالما كـان التقـاعس مؤذنـا ببـوار
ما اللُّجُّ وادَعَ أو تشاكسَ حارِنًا إلا ذلـول الراكب الكـرار[٣]
ما البَرُّ أنجد أو أغار بجائب إلا سليب خطًى ونَهْبُ قطار[٤]

* * *

ركبَ النجاة استطلعوا لبلادكم فى الغرب كل مطالع الأنوار
هُـزوا منابِـرَه بعـالى صـوتكم حتى يـرنّ صداه فى الأقـطار
أنتم جنود السِّلْم رُسُل جهاده أنتم أشعَّة مصر فى الأمصـار
أنتم أشعَّـة حـزمهـا شَفَّـافـةً عن حـزنها والنورُ بَثُّ النـار
ترجون أن تحيوا وتحيا مصركم حق الحياة وما بها من عار
لا تسـأمُون تغـربا فى مبتغى أسمى الهنات وأشرف الأوطار

* * *

الحكم شورى لا تفرُّد صالحٌ فى غير حكم الواحد القهار
لا تسترقُّ عشيرةٌ وديـارُها لعشيـرة غـلّابـةٍ وديـار

---

(١) يخاطب ركب المؤتمر وأعضاءه. ويصفهم بأنهم ذاهبون ليثأروا لمصر مما أصابها من ذلة وضيم.
(٢) الشقة: السفر البعيد.
(٣) لج البحر أمواجه. أى ليس البحر إن سهل أو صعب إلا كالركوبة الذلول للفارس الذى يروضها.
(٤) الجائب المسافر.

العدل إن يُقصَد فليس بكائن ... فى نُكْر معرفة وغصب جوار
الرأى تكمَد شمسُه فى موطنٍ ... متناقض الإعلان والإسرار
الخير تُفقد سُبله فى مجمع ... متعارض الإقبال والإدبارِ

* * *

ماذا عليكم أن تكون شعاركم ... هذى المطالبُ وهى خير شعار
لستم بسفاكى دم، لستم إلى ... غير الحقيقة طامحى الأنظار
لستم غلاة، والأقل مرامكم ... بين الشعوب السُّبَّق الأحرار
لستم غلاة، خال ذلك منكم ... من لم يخلكم من ذوى الأخطار[1]
ليس الذى تبغونه من مطلب ... إلا أحقَّ مطالب الأحرار
من لم يخل فى مصر عبدًا شاكيًا ... فى فترة التفكير والإضمار
أجزِعْ بسارٍ آمنٍ فى معهد ... وثبتْ عليه فجاءةُ التزآر[2]

* * *

إنى ليعجبنى كبيرُ مرامكم ... وهو الحقيق بغاية الإكبار
وأقول للمزرى بسنِّ صغاركم ... ليس العظيمُ نفوسُهم بصغار
أمهاجرى أرض الكنانة إنكم ... وجميعُ من فيها من الأنصار[3]
إمضوا دعاةً للهدى واستنصفوا ... بالحق للبلد العزيز الجار
كونوا الشهود له على أعدائه ... برجوع شمسِ نهاره المتوارى

الثبات فى الكفاح

وقال لما زاد اضطهاد الحكومة للأحرار وسلطت قانون المطبوعات على الصحف:

شَرِّدُوا أَخْيارَها بَحْرًا وبَرًّا ... واقْتُلوا أَحْرارها حُرًّا فَحُرًّا

---

(١) أى لستم غلاة كما توهم ذلك من ظن أنكم لستم من ذوى الكفايات والأقدار.

(٢) أجزع: أى ما أشد جزع. والفجاءه مصدر فجأة. والتزآر زئير الأسد. يريد أن الإنجليز فوجئوا بالحركة الوطنية فى ذلك العهد، كما يفاجأ السارى بزئير الأسد.

(٣) يسمى أعضاء المؤتمر المهاجرين. وسكان مصر الأنصار، تشبيها لهم بالمهاجرين والأنصار فى صدر الإسلام.

إنَّما الصَّالحُ يَبْقَىَ صالحًا ... آخِرَ الدَّهرْ ويبقي الشَّر شَرَّا
كسِّروا الأقلام هَلْ تكسيرُها ... يَمْنَعُ الأيْدِىَ أنْ تَنْقُشَ صَخْرا
قَطِّعوا الأيدىَ هل تقطيعُها ... يمنع الأقدامِ أن تركب بحرا
حَطِّموا الأقدام هل تحطيمها ... يمنع الأعْيُنَ أن تنظر شَزْرا
أطْفِئوا الأعْيُنَ هل إطْفاؤُها ... يمنع الأنفاسَ أنْ تَصْعَدَ زَفْرًا ؟
أخْمِدوا الأنْفاس، هذا جُهْدُكم ... وبهِ مَنْجاتُنا مِنْكُمْ... فَشُكْرًا !

وقال فى هذا المعنى حين توعدته الحكومة بالنفى من مصر على أثره نشره الأبيات السابقة:

أنا لا أخافُ ولا أرَجِّى ... فَرَسى مُؤَهَّبةٌ وسَرْجى
فإذا نَبَا بِىَ مَتْنُ بَرٍّ ... فالمَطِيةُ بَطْنُ لُجِّ
لا قول غير الحقِّ لى ... قَوْلٌ وهذا النَهْجُ نَهْجى
ألوعدُ والإبعادُ ما كانا ... لدَىَّ طريق فُلْج[1]

يحيى رأس السنة الهجرية

ونظم سنة ١٩١١ قصيدة عصماء حيًّا بها العام الهجرى (١٣٢٩)، خاطب فيها شباب مصر ودعاهم إلى الاعتبار بما فى هجرة الرسول الكريم من المعانى الجليلة، والأغراض السامية. وأهاب بهم أن يضاعفوا جهودهم لبعث الحياة فى مصر والشرق. قال:

هَلَّ الهلال فَحَيُّوا طالعَ العيد ... حَيُّوا البشير بتحقيق المواعيدِ
يا أيها الرَّمز تَستَجْلِي العقول به ... لحكمة الله معنًى غيرَ مَحْدود
كأنَّ حُسنك هذا وهو رائعنا ... حُسْنٌ لِبكرٍ من الأقمار مولود
لله فى الخَلْقِ آياتٌ وأعجبُها ... تجديدُ رَوْعتها فى كل تجديد

* * *

فِتيانَ مصر وما أدعو بدعوتكُمْ ... سوى مجيبين أحرارًا مناجيد[2]
سوى الأهلَّة من علمٍ ومن أدبٍ ... مؤَمِّلين لفضلٍ غير مجحود

(١) الفلج: الظفر.
(٢) المناجيد: الشجعان السباقون إلى النجدة.

المستَبِــرُّ شعــار المقتــديـن بــه ... العَــاملين بمغــزًى منــه مقصــود[١]
مــا زال من مبـدإ الـدُّنيـا يُنبِّئنـا ... أنَّ التمَّــام بمسعـاةٍ ومجهــود
فـإنْ تسيروا إلى الغـايات سيرتـه ... إلى الكمــال فقـد فُــزْتم بمنشـود

* * *

يـاعيدُ جئتَ عـلى وعدٍ تُعيدُ لنـا ... أوْلَى حــوادثـك الأُولى بتــأْييــد
بل كنتَ «عيدين» فى التقريب بينهما ... مَعنًى لــطيفٌ ينــافى كــل تَبْعيــد
رُدِدْتَ يـومًـا يُسَـرُّ المؤمنـون بـه ... ولم تكن بـادئًـا يـومًـا لتعْييــد

* * *

رســالـــةُ الله لا تُنْهَى بــلا نَصَبٍ ... يُشقِى الأمــينَ وتغــريبٍ وتنْكيــد
رسـالة الله لـو حلَّتْ عـلى جبـلٍ ... لانْـدَكَّ منها وأضحى بَـطْنَ أُخـدود
ولــو تحمَّلهـا بحْــرٌ لَشبَّ لــظًى ... وجَفَّ وانهال فيــه كــلُّ جُلْمــود
فليس بِـدْعًـا إذا نـاء الصَّفِىُّ بهـا ... وبــات فى ألمٍ منهــا وتسـهـيــد
يَنْوِى التَّرَحُّل عن أهلٍ وعن وطنٍ ... وفى جــوانحــه أحــزان مكبــود
يكــاد يمكثُ لــوْلا أنْ تـداركـه ... أمــر الإلـه لأمــرٍ منه مــوْعـود

* * *

فـإذْ غلا القـوم فى إيـذائـه خَـطَلًا ... وشــرَّدوا تـابعيــه كـلَّ تَشــريـد
دعـا المـوالـين إزْمـاعًـا لهجـرتـه ... فلم يجْبـهُ سوى الـرَّهط الصناديـد
مضى هـو البَدْءُ، والصِّـدِّيقُ يصحبه ... يُغـامِرُ الحَـزَن فى تَيْهاءَ صَيْخُـود[٢]
مُـولِّيًا وَجْهـه شَـطْر (المـدينـة) فى ... لَيْـلٍ أغـرَّ عـلى الأدهـار مشهـود
حتى إذا اتخـذ الغـار الأمــين حِمًى ... ونــام بـين صَفَــاهُ نــوم مُجْهــود
حمـاهُ وَشْىٌ ببـاب الغــار منسـدلٌ ... من الألَى هَــدَّدوه شـرَّ تهــديـد[٣]
يــا للعقيـدة والصِّــدِّيقُ فى سَهَـرٍ ... تؤذيـه أفْعى ويبكى غـير مَنْجُــود

---

(١) المستنسر: المستتر، أى القمر الذى لم يبد فى مطلعه إلا أقله.

(٢) التيهاء: أرض يتيه فيها السالك. وصيخود شديدة الحر.

(٣) إشارة إلى ما نسج العنكبوت ببابه فضلل المتعقبين للرسول.

إن العقيـدة إن صحت وزلـزلهـ ... مُفْنى القُرى فهى حصْنٌ غير مهدود

أمَّا الصِّحاب الذين استأخروا تَلَوْا ... سارين فى كل مَسْرًى غير مرصود

ماجند قَيْصر أو كسرَى إذا افتخروا ... كـهـؤُلاء الأعـزَّاء المـطَاريـد[1]

كأنهم فى الدُّجى، والنَّجم شاهِدهم، ... فـرسان رُؤْيـا لشـأنٍ غـير معهـود

كـأنهم وضيـاءُ الصُّبـح كـاشِفُهُم ... مـال خير سـرت فى مهجـة البيـد

فى حَيْـطَةِ الله مـا شعَّت أسنَّتهـم ... فـوق الظِّلال عـلى المهْرِيَّـة القُـود

* * *

عـانى «محمَّد» مـا عـانى بهجـرتـه ... لمـأْرَبٍ فى سبـيـل الله محـمـود

وكم غــزاةٍ وكم حَـرْبٍ تجَشَّمهـا ... حتى يعـود بـتمكـين وتـأييـد

كـذا الحيـاة جهـادٌ، والجهـاد عـلى ... قدْر الحياة، ومن فـادَى بها فُـودِى

أدْنى الكفاحِ كِفاحُ المـرء عن سَفهٍ ... لـلاحتفـاظ بعمـرٍ رهْنِ تحـديـد

ليغنم العيْش طَلْقًـا كـل مقتحـم ... وليبغ فى الأرض شقًّا كـلَّ رِعديـد

ومن عـدا الأجَلَ المحتـوم مـطلبُـه ... عَـدَا الفنـاءَ بـذكـرٍ غـير ملحـود

* * *

لقـد علمتم، ومـا مثـلى يُنبئكم ... لكنَّ صـوتى فيكم صـوتُ تَـرْديـد

مـا أثمـرَت هجْـرةُ الهـادى لأمتـه ... من صـالحـاتٍ أعَـدَّتهـا لتخليـد

وسـوَّدتهـا عـلى الـدنيـا بـأجمعهـا ... طِـوال ما خَلُقتْ[2] فيهـا بتسويـد

بَـدَا وللشِّـرْك أشيـاعٌ تُـوَطِّـده ... فى كـلِّ مسْـرَح بـادٍ كـلَّ تـوطيـد

والجـاهليون لا يـرضـوْن خـالقَهمْ ... إلا كعبْـدٍ لهم فى شكـل معبـود

مؤَلِّهـون عليهم مِـن صنـاعـتهـم ... بعضَ المعادن أو بعض الجَلاميـد[3]

مستكبـرون أُباةُ الضَّيم غُـرٌّ حِجى ... ثقـال بطشٍ لِـدانٌ كـالأمـاليـد[4]

لاينـزل الـرأى منهم فى تفـرُّقهم ... إلا منـازلَ تَشتيـتٍ وتـبـديـد

ولا يـضـمُّ دُعـاءُ مـن أوابـدِهـم ... إلا كـما صِيـحَ فى عُفـرٍ عبـاديـد

---

(١) المطاريد. فرسان الطراد فى الحرب

(٢) خلقت: استحقت.

(٣) الجلاميد: الصخور.

(٤) لدان، جمع لدن، وهو اللبن.

ولا يطيقون حكْما غير ما عقدوا ... لذى لواءٍ على الأهواء معقود

* * *

بأىِّ حلمٍ مبيد الجهل عن ثقةٍ ... وأىِّ عزمٍ مُذلِّ القادة الصيِّد
أعاد ذاك الفتى الأمِّىُّ أمته ... شملًا جميعًا من الغُرِّ الأماجيد
لتِلْكَ تاليةُ الفرقان فى عجبٍ ... بل آيةُ الحقِّ إذ يُبغَى بتأكيد
صَعبان راضهما: توْحيد معشرهم ... وأخذُهم بعد إشراكٍ بتوحيد
وزاد فى الأرض تمهيدًا لدعوته ... بعهده للمسيحيين والهود
وبدئه الحكمَ بالشُّورى يتمُّ به ... ما شاءه الله عن عدْلٍ وعن جود
هذا هو الحقُّ والإجماع أيَّده ... فمن يُفنِّدُه أولى بتفنيد

* * *

أىْ مسلمى(مصر)إن الجِدَّ دينكم ... وبئس ما قيل: شعبٌ غير مَجْدود
طال التّقاعس والأعوام عاجِلةٌ ... والعام ليس إذا وَلَّى بمرْدود
هُبوا إلى عمل يُجْدِى البلاد فما ... يفيدها قائلٌ: يا أمَّتى سودى
سَعيًا وحزمًا، فودُّ العدل ودُّكم ... وإن رأى العدلَ قوْمٌ غير مودود
تعلَّموا كلَّ علمٍ وانبُغوا وخذوا ... بكلِّ خُلْقٍ نبيهٍ أخذَ تشديد
فكُّوا العقول من التَّصْفيد[1]تنطلقوا ... وما تبالون أقْدامًا بتصفيد

* * *

(مصر)الفؤاد فان تُدْرِكْ سلامتَها ... فالشَّرق ليس وقد صحَّت بمفؤود[2]
الشرْق نصْفٌ من الدنيا بلا عملٍ ... سوى المتاع بما يُضْنى وما يودى
والغرب يرْقى وما بالشرق من همٍ ... سوى التفاتٍ إلى الماضى وتعْديد
تشكو الحضارةُ من جسمٍ أشلَّ به ... شَطرٌ يُعَدُّ وشطرٌ غير معدود

* * *

أبناء(مصر)عليْكم واجِبٌ جَلَلٌ ... لبعث مجدٍ قديم العهد مفقود

---

(١) التصفيد: التقييد.
(٢) المفؤود: المصاب فؤاده.

فلْيَرْجِع الشرق مرفوع المقام بكم ... وَلتُزْهَ(مصر)بكم مرفوعة الجيد

ما أجمل الدهرَ إذ يأتى وأربُعُنا ... حقيقة الفعل والذِّكرى بتمجيد

والشرْق والغرب مِعوانانِ قد خلصا ... من حاسدٍ كائد كيْدًا لمحسود

صنوان بَرَّان فى علمٍ وفى عملٍ ... حُرَّان من كلِّ تقييدٍ وتعبْيد

لافِعلَ يُخْطِئُ فيه الخيرَ بَعضُها ... إلا تداركه الثَّانى بتسديد

ولا خصومة إلَّا فى اسْتباقها ... لما يَعُمُّ بنفع كلِّ موجود

هذى الثِّمار التى يرجو الأنام لها ... من رَوْضكم كلِّ نامٍ ناضر العود

لمصر والشرْقِ بل للخافقْين معًا ... دَعْ زعم كلِّ عدوِّ الحقِّ مرِّيد[1]

* * *

جُوزوا على بركات الله عامَكم ... فقد تبدَّل منحوسٌ بمسعود

رجاؤكم أبدًا ملءُ النفوس، فما ... يُنْفى بحسنَى ولا يُوهىَ بتهديد

بدا الفلاحُ، وفى هذا الهلال لكمْ ... بُشْرى التمَّام لوقتٍ غير ممدود

غدًا نرى البدر فى طِرْسِ السماء مَحَا ... بخاتَمِ النُّورزلَّاتِ الدَّجى السود

يحيى بعثة الأطباء إلى حرب طرابلس

وقال سنة ١٩١١ يحيى بعثة الأطباء المصريين الذين ارتحلوا إلى ليبيا لمعاونة المجاهدين العرب الذين قاوموا العدوان الإيطالى:

سيروا على بركات الله واغْتنموا ... أجر الجهاد وأجر البِرِّ بالناس

لِيَشْفِ مِبضعُكم والرفقُ يُعملُهُ ... صدع الرَّصاص وجرح الصَّارمِ القاسى

لَهْفى على شُوس[2] أبطالٍ تَلوكهم ... غولُ الرَّدى بين أنيابٍ وأضراس

كانوا وقد ركِبوا للحرب أبهج ما ... ترى العيونُ غياضًا فوق أفرَاس

واليوم قد عَثَروا تَنْدَى نضارتُهم ... نَدَى الجفاف وتخْبو شعلةُ البَاس

كونوا لهم إن شكوا إخوان تأسيةٍ ... وإن هم استوحشوا إخوان إيناس

رُدُّوا على الوطن الباكى أعِزَّته ... ودافعوا الموت عنْهم دَفْعَ أكياس[3]

---

(١) مريد: الخبيث.

(٢) شوس جمع أشوس وهو الشجاع الجرىء.

(٣) أكياس جمع كيس وهو الفطن الذى يحسن الفهم.

فـإن أسـقـامـهـم فى كـل جـارحـةٍ ... مـنّـا وآلامـهـم فى كـلّ إحـسـاس
لـلّهِ مسعـاتكـم والحـق يـشـكـرهـا ... والخَلْق يـذكـرهـا تـرديـد أنفـاس
مـبَـرَّةٌ طَـهُـرَتْ أرواحُـكـم وسَـمَـتْ ... بهـا مـراتب فـوق الضَّيمْ والـيـاس
خـوضـوا المصـاعب لا يُلْمِمْ بـأنفسكم ... مـا قـد تُـلاقـون من من ضُرٍّ ومن بـاس
هـذا الهـلال لـكم رَأْدَ الـنهـار هُـدَى ... وفى اعتكـار الـدَّيـاجى خـير نبـراس
وإن فى ظـلّه الـنّـادى بـرحـمـتـه ... لَـبَـلْسـمًا لجـراح الـقـلب والـرَّاس
أىْ عصبـةَ الخـير داووا أبـريـاء هَـوَوْا ... صـرعـى مـطامـعَ قُـوَّادٍ وسُـوَّاس
لـو صـوَّر الله فى جسم امـرِئٍ مَلَكًـا ... لَـصـوَّر المـلَكَ الإنـسـىَّ فى آسِ [١]

عتب وطنى

وقال سنة ١٩٢٠ يعتب على أحرار مصر فى موقف تردد:

إن تكـونـوا حُمـاتهـا وبنيهـا ... مـا لتلك الذّئـابِ تَعَسُّ فيها ؟[٢]
أفتـرضـوْن أن تهـونَ عتيـدًا ... بعـد ذاك الإبـاء فى مـاضيهـا ؟
تـلك أوطـانكم تُبـاع عـليكـم ... صَفْقَـةً بَخْسَـةً فمن مشتـريهـا ؟

رثاؤه لمحمد فريد

ونظم قصيدة رائعة فى رثاء الزعيم الشهيد محمد فريد سنة ١٩١٩؛ قال:

أفـريـدُ لا تبعـد عـلى الأدهـار ... أنت الشهيـد الخـالـد التـذكـار
بالأهل بـالدم بـالرفـاهة بـالغنى ... فَـدَّيت مصـر وفُـديت من دار
حـررت نفسك دائب المسعى إلى ... تحـريـرهـا لتعزَّ بعـد صغـار
مسترسـلا والـدهـر فى إقبـالـه ... مستبسـلا والـدهـر فى الإدبـار
ثَبْتًـا إذا ما الـراسخـون تقلقلوا ... متـوافق الإعـلان والإسـرار
فبـررت بالعهـد الذى عـاهدتـه ... ووفيت فى الإيسـار والإعسـار
مـا كـان ذاك العمـر إلا قُـربـة ... مـوصـولـة الآصـال بـالأسحـار
ومن المنى مـا ليس يـوفى حقـه ... حتى يكـون الجـود بـالأعمـار

---

(١) آس أى مداو للجروح

(٢) تعتس تطرق ليلا.

فريد ومصطفى :

إنى لأذكر مصطفى ورفيقهَ — فى مستهلهما وفى الإبدار
متوخيًا إعتاق مصر كلاهما — وكلاهما لأخيه خير مبار
وكلاهما يسعى الغداة مذللا — سبل النجاح لمقتفى الآثار
وكأن مصر حيال كل مخاطر — إذ ذاك فى شغل عن الأخطار
فى قلبها حب الحياة طليقة — لكنها تخشى أذى الإظهار
وضميرها آنًا فآنًا يُجتلى — فيُرى كما اقتدح الزناد الوارى
عرفا حقيقتها وبثا بثها — ثقة وما كانا من الأيسار
لم يلبثا متآزرين بنية — مصدوقة فى خفية وجهار
حتى إذا ما أيقظا إيمانها — فذكا ذكاء النور قبل النار
أبدت أساها يوم فارق مصطفى — هذا الجوار ورام خير جوار

فريد رئيسًا للحزب الوطنى :

ذهب الرئيس فنيط عبء مقامه — بالأنزه الأوفى من الأنصار
أفريد هذا الشأو قد أدركتَه — وسبقت من جاراك فى المضمار
فتقاض أضعافَ الذى قدمته — واستسق صوب العارض المدرار
إن تلتمس جاها أصِبْ ما تشتهى — أو رفعةً فاظفر بالاستيزار
والشرق يقبل قد عملت من الأولى — يتحملون غرائب الأعذار
الشعب شبه البحر لا تأمن له — ما أمن مقتعد متون بحار
فغدًا ويا حذرا لمثلك من غد — قد تستفيق ولات حين حذار
يسلو الأولى عبدوك أمس وربما — كوفئت من عرف بالاستنكار
فتبيت صفر يد وكنت مليئها — وتذوق كل مرارة الإقتار
لكن أبيْتَ العرض إلا سالما — وإن ابتليت بشقوة وضرار
لم تعتقد إلا الولاء وقد أبى — لك أن تلبى داعى الإخفار
وسموت عن أن يستميلك خادع — بالمنصب المزجَى أو الدينار
فظللت مبدؤك القويم كعهده — عند الوفاء وفوق الاستئثار

تـزداد صدق عـزيمة بمراسه ... ورسوخ إيمان بالاستمرار
ما إن تبالى ساهرًا مترصدًا ... يرنو إليك بمقلة الغدار
يجنى عليك لغير ذنب باغيا ... والبغى جنَّاء على الأطهار
من كان جار السوء يوما جاره ... عدت فضائله من الأوزار

فريد فى السجن:

قل للرئيس إذا مررت بسجنه ... إن السجون معاهد الأحرار
وافيته طوعا ورأيك ثابت ... أن اعتقالك مطلق الأفكار
إن يحجبوك فإن فكرك رافع ... نورًا تضاء به سبيل السارى
كم تحجب الظلمات طودًا شامخًا ... فيلوح فوق ذراه ضوء منار
إنا لنسمع من سكوتك حكمة ... ونرى هدى فى وجهك المتوارى
وإذا النفوس تجردت لمرامها ... غَنِيتْ عن الأسماع والأبصار
حاشاك أن تأسى وهل تأسى على ... علم بأن التمٌ بعد سِرار
الأنبياء انتابهم زمن به ... لزموا التفرد عن رضًا وخيار
لجأوا إلى الخلوات واحتبسوا بها ... شظفى المعايش لا بسى الأطمار
مستجمعين مروضين قلوبهم ... لقيام دعوتهم على الأخطار
ومن الغيابات التى أمسوا بها ... بعثوا الهدى كالشمس فى الإزهار
سل موحشًا فى طور سينا سامعًا ... كلم المهيمن فى اصطعاق النار
سل طيف جلجلة يكاد من الطوى ... يسمو به راقٍ من الأنوار
سل خاليا بحرًا يلبى ربه ... فى الغار عن صرعاته فى الغار
بالعزلة اكتملوا ورب مروض ... للنفس حررها بالاستئسار
لا شىء أبلغ بالدعاة إلى المنى ... من أن تمحصهم يد المقدار

فريد فى طريق المنفى:

لم يكفه ما كان حتى جاءه ... ما فوق غَلِّ الجيد والإحصار
النفى بعد السجن: تلك عقوبة ... أعلى وأغلى صفقة للشارى
يسموا بها السجن القريب جداره ... شرفا إلى سجن بغير جدار
لا يترك الجارى عليه حكمه ... إلا ليدركه القضاء الجارى

أى السفائن تستقل كأنها ... إحدى المدائن سيرت ببخار
ينأى بها عن أهله ورفاقه ... دامى الفؤاد وشيك الاستعبار
ينبو ذرا البلد الأمين بمثله ... والزاحفات أمينةُ الأحجار
متلفتًا حين الوداع وفى الحشى ... ما فيه من غصص ومن أكدار
متشبعًا مترويًا مما يرى ... لشفاء مسغبة به وأوار
يرنو إلى صُفر الشواطىء مُنطقت ... أعطافها بالأزرق الزخار
ويذوب قبل البين من شوق إلى ... أنس الحمى وجماله السحار
يستاف ما تأتى الصبا بفضوله ... من طيب تلك الجنة المعطار
ويسمعه لحن المواطن جامعا ... لغة الأنيس إلى لغى الأطيار
لهفى عليه مشردًا قبل الردى ... سيهيم فى الدنيا بغير قرار
من أجل مصر يؤم كل ميمم ... فى قومه ويزور كل مزار
لا يوم يسكن فيه من وثب، ومَن ... بسكينة للكوكب السيار؟
فى غربة موصولة آلامها ... أنْضته فى الرحلات والأسفار
تنتابه الصدمات لا يشكو لها ... إلا شكاة المحرب الكرار
ثقة بأن الفوز ليس لجازع ... فى العالمين، الفوز للصبار
وتعضه الفاقات لا يلوح بها ... عزا ويسترها بستر وقار
حرصا على المتطولين بفضلهم ... أن يجنحوا وَجَلًا إلى الإقصار

فريد فى مرضه:

ما كان هذا الحد حد عذابه ... تردى الأسود ضرورة الأخدار
صال الشقاء على فريد صولة ... بين الجوانح أنذرت ببوار
قصرت لياليه على مجهوده ... واليوم عدن عليه غير قصار
ما بال ذاك الوجه بعد تورّد ... خلع النضارة واكتسى ببهار؟
ما بال ذك الوجه بات من الضنى ... كالرسم فى جرف به منهار؟
ما بال ذاك العزم بعد مضائه ... عثرت به العلات كل عثار؟
ما بال ذاك القلب بعد خفوقه ... تنتابه هدآت الاستقرار؟
أمسى يعالج سكرة فى نزعه ... من لم يذق فى العمر طقم عقار

ولو استطاع لما أضاع دقيقة يمضى الزمان بها مضى خسار
وفّى بما أعطاه حق بلاده والموهبات ترد ردّ عوارى
أمكانه هذا أتلك حليه والبيت خال والمقلد عارى؟
أكذاك يختم فى الشقاء حياته من كان جم الجاه والإيسار
ماذا تفى من حقه بعد الذى عاناه كل قلائد الأشعار
إن الذى يبلوه شارى قومه غير الذى نتلوه فى الأسطار

عظة وفاته:

مات الرئيس فراع مصر وأهلها ذاك النعىُّ وذاع فى الأمصار
مات العصامى العظامى الذى ما كان بالعاتى ولا الجبار

تحية الختام:

أفريد هذا ما يهيئه الفدى لعشيرة فديتها وديار
نم إن مصرا عنك راضية وفز من شكرها بمثوبة الأخيار
أوشكت أجزع فانتهيت بأننى آنست فيك مشيئة للبارى

تحية الشهداء

قال فى حفلة أقيمت سنة ١٩٢٤ لتحية أرواح شهداء الحركة الوطنية:

إلى أرواح الشهداء

تحيَّةً أيها القَتلَى وتسليما بلغتم الشَّأْوَ تخليدًا وتعظيما
لا يعبُد المرءُ ربًّا لا ولا وطنًا بمثْل إغْلائه القُربان تقديما
قلتم وصدّق ما قلتم تحمُّلكم أذى يَرُدُّ فِرِنْدَ الصبر مثلومًا[1]
ما الموت إن كان إنقاذ البلاد به من غاصبٍ وانتصافُ الشّعب مظلوما
يُحطِّم العظمُ منكم دون بُغيتكم فتصبرون ويأبى العزم تحطيما
بِرًّا (بمصر) وخوفًا أن يُسلِّمَها إلى العِدَى واهِنو الإيمان تسليما
ليس الشهادة إلا من يموت على حقٍّ ومن لا يبالى فيه ما سيما

(١) القرند: حد السيف.

إمضـوا رفاقًـا كرامًـا، حسبكم عِـوضًـا … مجـدٌ عـزيـز عـلى الخُـطَّاب إنْ رِيـمـا
لـلمـشـتـرى بـصـبـاهُ عِـزٌّ أمـتـه … ذكـرٌ يُـديمُ اسمـه بـالتِّـبر مـرقـومـا
وللتى استبـدلت بـالقـبر مـرتعهـا … قِسْطٌ من الفخـر فـوق العمـر تقـويمـا
لا تحسبـوا مصـر تنسـاكم فكُلُّكمـو … يَبقَى عـلى الدهـر مرْؤُومًـا ومـرحـومـا
وفى المـرابـع مـن أرواحـكـمْ نَـسَـمٌ … تـظلُّ تَـأْتى بهـا لأرواحُ تـنـسـيـمـا

تحية للذين أطلقوا من الاعتقال

وقال فى هذه القصيدة مخاطبا من أفرج عنهم من الاعتقال:

يـا خـارجـين كـرامًـا من محـابسهم … ومبْهجى كـلِّ قلبٍ كـان مغمـومـا
كم كُبِّـلَ الحقُّ بـالأصفـاد من قِـدَمٍ … ثم انـطوَيْنَ وبـاء الْبُـطْلُ مهـزومـا
يـا سـوء دهـرٍ قَضتْـه قبـل نهضتهـا … (مِصْـرٌ) يخيِّم فيهـا الـذُّلُّ تخيـيـمـا
تَهِى قـوَى اللَّيثُ من عَيْثِ الذِّئـاب بها … ويلْتـوى الأمـرُ تحليـلاً وتَحْـريـمـا
فـاليـومَ عـاد إلى رأىٍ يُشـرِّفهـا … من ظنَّ إقـليمـهـا للخـفض إقليـمـا
دَلَّتْ عـلى قـوةٍ فيهـا صـلابُتكم … تـذود عنهـا الأشِـدَّاءَ المقـاحيـمـا
هـل يُجْزِىءُ الشكـر من ضَيم تحمَّلَه … بـالأمس من كان منكمـو فى رأيه ضيـمـا
قـد أثَّمـوكم وكم من مُثلَةٍ نـزلَـتْ … بـالأبـريـاء وبـالأبـرار تـأثيـمـا
وبعض مـا عـاقبُـوكم فيـه جَعْلُكمـو … صِـدْقَ الهـوى لِلحِمَى دِينًـا وتعْلِيـمـا
لا حـاكـمًا دون مـا أوحتْ ضمـائـرُكم … تُـرَاقبـون ولا تَـرْعَـوْنَ محكـومـا

* * *

لقـد ظفـرتم بمـا أدنى القَصِىَّ لـكم … من المـرام فليس الفـوْزُ مـزعـومـا
هـل استقـام زمـانٌ لا يُـقَـوِّمـه … بنـوه بـالصـبر والإقـدام تقـويمـا؟
أو نـال حُـرِّيـةً قـومٌ بهـا جَـدُرُوا … وهم يبـالـون تَقْتيـلاً وتكـليـمـا[1]

* * *

يـا سـادةً كـالنجـوم الغُـرِّ منـزلـةً … وسيـداتٍ كعِـقْـد الـدُّرِّ منـظومـا

---

(١) التكليم: التجريح.

حمـدًا لإقبـالكم هـذا وحفـلتكم ... تُهنئُـون الصَّـنـاديـد المقـاديـا
من الأُولى مـاونَـوْا عن واجبٍ فَبَنـوْا ... لعزِّ «مِصْـر» طـرافًـا[1] كـان مهـدومـا
أولئكـم إن بَـدَا مـن فضـلهـم أثـرٌ ... فكم لهـم من جميـلٍ ظـلَّ مكتـومـا
فـلْتَحْيَ «مِصْـرُ» وأبـرَارُ نُبجلُّهمـو ... ونـحـتـفـى بهـم حُبـا وتـكـريـا

رثاؤه لأمين الرافعى

ومن قصيدة له فى رثاء المرحوم أمين الرافعى الذى انتقل إلى جوار ربه فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٧. وقد ألقيت هذه القصيدة فى حفلة تأبينه:

بـاعـوا المخَلَّدَ بـالحـطام الفـانى ... وَشَـرَيْتَ بـالأغـلَى من الأثمـان
تـلك الحيـاة أمـانـةٌ أدّيـتـهـا ... بـتـمـامـهـا لله والأوطـان
بـالصبر والإيمـان أُخْلِصَ بَدْؤُهـا ... وختـامهـا بـالـصـبر والإيمـان
أُعْـرضت عن لـذاتهـا منـذ الصِّبى ... والـرَّوْضُ تُغـرِى والقـطوف دوانى
متـوخِّيًـا مـن دونها أُمنيَّـةً ... لم يـوهِ وَحـدتهـا شتيتُ أمـانى
تَهـوى البلادَ ولا هَـوَى لك غيرهـا ... أو تُـفْـتـدى مـن ذلَّـةٍ وهـوان
ظلت تنـازعـك الصُّـرُوف بمـا بهـا ... مـن مُنَّـةٍ، وظلت ثَبْتَ جَنـان
مستنـزفًـا دمـك الـزَّكِىَّ ولم يُـرَقْ ... بِشَبَـاةِ قِـرْضـابٍ ولا بسنـان
فى صـولـة للدهـر تعقُب صـولـةً ... مـنْـتـابـةً فى الآن بـعـد الآن
حتى قَضَيْتَ شهيـدَ رأيـك وانقضى ... مـا كـنت تـلقَّـى دونـه وتـعـانى
ويـحَ الأبىِّ تـسـوءه أيـامـه ... وتَسُـرُّ كـلَّ ممـاذقٍ[2] مـذْعـان
ممن يقـدَّم فى الـرجـال ومـا بـه ... إلا الـطِّلاءُ بـكـاذب الألـوان
ماذا دهى «الفسطاط» حين تجاوبت ... أصـداؤهـا لنـواك بـالإرنـان؟[3]
وجـلا عن القـدَر المخبَّـأ ليلُهـا ... وبـدا الصباحَ مقـرَّحَ الأجفـان

* * *

(١) الطراف: البيت.
(٢) مماذق: أى غير مخلص.
(٣) الإرنان: رفع الصوت.

خـطبٌ أرانـا فى مجـالات الفِـدَى والصـدقِ كيف مصـارعُ الشجعـان
فـالشرق فى شَـرَقٍ من الدمـع الذى أجـرى العيـون وفـاض بـالغُـدران

* * *

أى «مصـطفى» يبكيك قـومـك كلما عـادتْهـمـو ذكـرى فتى الفتْيـان
يـوم الـوفـاءُ دعـا فكنتَ لـواءَه وطـليعـةً لـطليـعـة الفـرسـان
هـذا شهيـدٌ من ولاتـك خـامسٌ يَهـوَى بحيث هـويت فى الميـدان
لـكـأنَّهم، والمـوتُ أسـوأُ مغـنمٍ، يتـراكضـون إليـه خيـلَ رهـان
بـذلَـوا النفـو للهِ آ ذُلْت وأرْخَصـوا مـا عـزَّ مـن جـاهٍ ومن قُـنيـان
فـإذا ذُكـرتَ وأنت عنـوان الفـدى فـاسم الـرفـاق تتمـة العنـوان

وظل خليل مطران يغرد بشعره ألحان الحرية، ولا ينقطع عن التغريد حتى فاضت روحه الكريمة مساء ٣٠ يونيه سنة ١٩٤٩.

* * *

أحمد محرّم

١٨٧١ - ١٩٤٥



شاعر ملهم، من شعراء الوطنية والأخلاق، كان أدباء الجيل يضعونه في صف شوقى وحافظ ومطران، وكان شيخ الشعراء إسماعيل صبرى يتغنى بشعر هؤلاء الأربعة ويطيب له التحدث عنهم، وامتاز محرم إلى جانب مكانته الشعرية بحرارة العاطفة، وتذوقه للفن والجمال، وقوة إيمانه، وتأملاته العميقة الفلسفية، واستمساكه طول حياته بمبادئه الوطنية، فكان شعره كله وقفًا على المبادىء، لم ينحرف عنها يومًا فى قصيدة أو فى أى بيت من الشعر، ظل مقيما عليها وفيًا لها فى السراء والضراء، فكان حقًا مثلا أعلى فى الشعر والوطنية، وكان مصطفى كامل يعجب به وبشعره، ويشيد به على صفحات (اللواء)، ويسميه (نابغة البحيرة)، وبقى أحمد محرم على صلته به ووفائه له ولذكراه، كما ظل وفيًا لمبادىء الوطنية إلى أن توفاه الله فى ١٣ يونيه سنة ١٩٤٥.

كان شاعرًا بفطرته وسليقته، قال الشعر وهو فى سن مبكرة. ومعلّقته التى يقول فى مطلعها:

منازل سلمى لا عدتك الغمائم ... وإن درست بالجزع منك المعالم

قد نظمها وهو فى السادسة عشرة من عمره.

وطنيته فى شعره

تتجلى روحه الوطنية التى ألهمته الشعر أكثر ما تتجلى حين أصدر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٨، فقد أهداه إلى (النيل)، وكتب كلمة الإهداء فى عنوان الكتاب (هدية النيل)، وأعقبها بهذا البيت الذى يترجم عن وطنيته الأصيلة مخاطبًا النيل قال:

وَهَبْتُكَ مُلْكَ القريض العتيد ... وذلك أفضل ما يوهبُ

وقال فى مقدمة ديوانه يشرح المعنى الذى استوحاه فى إهداء ديوانه إلى النيل:

«لقد جرى أكثر الكتاب والشعراء على أن يهدوا مؤلفاتهم إلى من شاؤا من ذوى الثروة

والجاه تعرضًا لمؤازرتهم والانتفاع بهم وسط هذا الكساد الآخذ بأكظام الأدب فى بلادنا، ولكننى انصرفت بشعرى عن تلك المواقف، وبرئت إلى نفسى أن آخذ بهذه الأسباب، على ما أعلم من وعورة مسلكى، وضيق مضطربى، وما كنت فى ذلك إلاّ جاريًا على سنتى فى سياسة نفسى، وتصريف ما آتى وأدع من أمور الحياة، فما استظهرت بغير أخ حفّى، أو صديق صفّى، ولا آثرت أن أهدى ديوانى إلى غير (النيل)، ذلك الأب الذى وهبنى نعمة الحياة، وأفاض علىّ هذه المنح والصلات.

فيا نيلُ أنت الهوى والحياة ... وأنت الأمير وأنت الأبُ
ويا نيل أنت الصديق الوفىّ ... وأنت الأخ الأصدق الأطيب
وأنت القريض الذى أقتفى ... فيزْهى به الشرق والمغربُ
فإن أهب الخصبَ هذه العقول ... فما سننتَ لها تخصب
وإن أنا أطربت هذه النفوس ... فصوتك لا صوتى المطرب
تسيل فتتدفق الرائعات ... وتجرى فتستبق الجوَّبُ

إلى أن قال:

لئن فاتنى الذهب المستفاض ... فما فاتنى الأدب المذهب
وهبتُك مُلْك القريض العتيد ... وذلك أفضل ما يوهب

وقد ظهر الجزء الثانى من ديوانه سنة ١٩٢٠.

دعوة الوطنية

قال يدعو مواطنيه إلى الإخلاص لبلادهم والعمل على استعادة مجدها:

دعا فأثار الساكنين دعاؤه ... ونادى فراع الآمنين نداؤه
أخو وصَب ما أن يجم انقضاؤه ... وذو أرب ما أن يحين قضاؤه
به من بنى مصر عناءٌ مبرّحٍ ... فياليت شعرى هل يزول عناؤه؟
أما إنه لو كان يُشفى غليلَه ... بكاء على مصر لطال بكاؤه
تَقَسمها الأقوام لا ذو حمية ... فيحمى ولا واق فيُرْجَى وقاؤه
وما مصر إلاّ موطن نحن أهله ... عزيز علينا أرضه وسماؤه

إلى أن قال يستنكر الاحتلال البغيض ويهيب بالأمة أن تحاربه:

ثوى فيه أقوامٌ مللنا ثـواءهم ... ويـا رُبَّ ثاوٍ لا يُمَلُّ ثواؤه
لقد كان يأبى أن يذلّ لغاصب ... فيـاليت شعرى أين ضـاع إباؤه؟
لقد كان يـرعاه رجـال أعزة ... بهم من صروف الدهر كان احتماؤه
هُم ناضلوا عنه فصانوا ذماره ... بصـارم عزم مـا يُـردّ مَضـاؤه

* * *

بنى وطنى لا تسخـطوه عليكُمُ ... فليس سـواءً سخطه ورضـاؤه
بنى وطنى خلّوا التخـاذل إنه ... بـلاؤكـم يجتـاحـكم وبـلاؤه
سلامٌ عليكم من أخ ذى حمية ... دعى فـأثار السـاكنين دعـاؤه

لواء الوطنية

وقال يمجد لواء الوطنية ويدعو إلى الالتفاف حوله والتضحية فى سبيله:

فداؤك نفسى من لواء محبب ... حمى جانبيه كل ماضٍ مدرّب
إذا ما دعى أنصارَه التف حوله ... جحا جحةٌ[1] من ذائد ومذبب
فمنهم قؤول للصـواب مسـدّد ... يصرِّف صرّارًا له وقع أشطب
يـدين له الجبـار غير معـذل ... ويعنـو له المغـوار غير مؤنّب
ومنهم فعـولٌ للمكـارم مـاجـدٌ ... يلبي نـداه كل داعٍ مثـوّب
هم الصحب صانوا للديار لواءها ... وصالوا على أعدائها غير هُيّب
يكرّون كرّ الدارعين إلى الردى ... إذا الحرب أبدت عن عبوس مقطب
إذا طلبوا حقا تداعوا فأجلبوا ... على سالبيه فانثنوا غير خُيّب

إلى أن قال:

ومـا منع الأوطـانَ إلاّ حمـاتُهـا ... وذادتُها من ذى شباب وأشيب
هُم ذخرُها المرجوُّ فى كل حادث ... وعُدَّتها فى كل يوم عَصَبْصب
سلامٌ عليهم من كهول وفتية ... وبورك فيهم من شهود وغُيّب

(١) جحاجحة جمع جحجاح السيد المسارع فى المكارم.

كبوة الشرق

وقال تحت عنوان (كبوة الشرق) يستصرخ أهله ليعيدوا إليه سالف مجده:

متى ينهض الشرق من كبوتهْ ... وحتى متى هو فى غفوتهْ؟
كَبَا وكذلك يكبو الجواد ... براكبه وهو فى حلبته
ونام كما نام ذو كربة ... تملكه اليأس فى كربته
وَهَى عَزْمُه ما يطيق الحراك ... وقد كان كالليث فى وثبته
تجرّ عليه عوادى الخطوب ... كلا كلَها وهو فى غفلته
نواهبُ ما كان من مجده ... سوالبُ ما كان من عزّته

إلى أن قال:

فيالهف قلبى لمجدٍ مضى ... ويا شوق نفسى إلى عودته!
ويالهف آبائنا الأولين ... على الشرق إن ظل فى نكبته
همُ غادروه كروض أريض ... تتوق النفوس إلى نضرته
ونحن تركناه للعاديات ... ولم نرع ما ضاع من حرمته
فأذْهَبْن ما كان من حسنه ... وأفنين ما كان من بهجته

* * *

فهل يسمع القول أهل القبور ... خطيبٌ فيسهب فى خطبته
يناديهم فيم هذا الرقاد؟ ... كفى ما دهى الشرق من رقدته
لقد ضاع بعدكمو مجدُه ... وكل المثالب فى ضيعته
وأنتم رجال ذوو نجدة ... فلا تقعدوا اليوم عن نجدته

يدعو إلى بعث مصر

وقال يذكر مجد مصر الغابر ويدعو مواطنيه إلى النهوض لاستعادة هذا المجد:

أهذى ديار القوم غَيَّرها الدهرُ ... فعوجوا عليها نَبكها أيها السفر
محى آيَها مرُّ العصور وكرُّها ... إذا مرّ العصرُ كر من بعده عصر

نسـائلها أين استقـلّ قـطينهـا ... وهـل تنـطق الـدار المعـطلة القفـر ؟
وكـائن ترى من ذى ثمـانين خَضَّبتْ ... لطول البكا من شيبـه الأدمعُ الحمـر
بكى وطنـا أودت بسـالـف مجـده ... حـوادث دهـر من خـلائقـه الغـدر
أغـارت عليـه من جنـوب وشَمْـأل ... فـما بـرحت حتى أتيـح لهـا النصر

* * *

ألا إنها مـصـر التى شقيت بـنـا ... فياويح مصـر ما الـذى لقيت مصر ؟
مضى عزّها القُدْموسُ[1] ما يستعيده ... بنـوهـا فـلا عـزٌّ لـديهم ولا فخـر
هم رقـدوا عنهـا فـطال رقـادهم ... فـديتكمـو هُبـوا فقـد طلع الفجـر !

ذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢

وقال عن ذكرى احتلال الإنجليز القاهرة يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ :

نلومـك يـا يـوم النحـوس ونعـذل ... وأنت عـلى مـا أنت تمضى وتُقبـل
فلا نحن ما عشنا عن اللوم نرعـوى ... ولا أنت مـاكـرّ الجـديـدان تحفـل

إلى أن قال:

لـعـلك أن تـأتى بمـا تـعـد المنى ... نـفـوسَ رجـال أوشكـت تملمـل
لحى الله قـومـا حّملونـا من الأذى ... بمـا ضيّعوا الأوطـان ما ليس يحمـل
همُ خـذلـوهـا فـاستبيـح حـريمهـا ... ومـا بـرحت تبغى انتصـارًا فُتخـذل

يهاجم الاحتلال

وقـال سنة ١٩٠٢ ينعى عـلى الاحتـلال بغيـه وعـدوانـه، وعـلى الإنجليـز نقضهم للعهـود والمواثيق :

فى كـل يـوم شـرعـة ونـظام ... مـا هـكـذا الأحكـام والحـكّـام
عشـرون عـامـا والـديـارُ مـريضـةٌ ... تـنـتـابهـا الأدواء والأسـقـام
لم يـعـرف المتـطبّبـون دواءهـا ... فـتـنـوعـت فى دائـهـا الأوهـام

---
(١) القدموس: القديم.

إن الأُساة لتعلم الداء الذى ... ترك العليل تذيبه الآلام
ولربما غشّ الطبيب عليله ... حتى يعود الداء وهو عقام
كيف الشفاء لمصر من أدوائها ... أم كيف يرجَى عزُّها ويرام؟
والمصلحون كما علمتَ وأهلُها ... عنها على زَجر المهيب نيام

إلى أن قال مخاطبا بريطانيا:

يا دولةً رفعت على أوطاننا ... علما تُنكّسُ تحته الأعلام
أين المواثيق التى أبرمتِها ... إن كان منكِ لِموْثِقٍ إبرام؟
لم تحفلى بعهودنا فنقضتِها ... يا هذه، نقضُ العهود حرام
عشرون عاما ما كَفَتكِ وهكذا ... تأتى وتذهب بعدها الأعوام
طال المقام وأنتِ أنتِ ولم يكن ... ليطول لولا الجهل منكِ مقام

وقال يهيب بالأمة أن تهبّ للجهاد:

غنموا نفائسه وثَمّ بقية ... ستنيلها أيديهم الأيام

* * *

عجبا لهذا النيل كيف نعقُّه ... ويدوم منه البرُّ والإكرام
لو كان يجزينا بسوء صنيعنا ... أودى بهاتيك النفوس أُوام
لكنها رَحِمُ الجدود ولم تزل ... تُرعى لدى أمثاله الأرحام

* * *

يا آل مصر خذوا نصيحة شاعر ... أبدًا يكلف نصحكم ويسام
لا تغفلوا عنها فليس بغافل ... عنكم وعنها ذلك الضرغام
يا أمة خاط الكرى أجفانَها ... هُبيّ فقد أودت بك الأحلام
هبّى فما يحمى المحارمَ راقدٌ ... والمرء يُظلم غافلا ويُضام
هبّى فما يغنى رقادك والعدى ... حول الحمى مستيقظون قيام
شيئان يذهب بالشعوب كلاهما ... نومٌ عن الأوطان واستسلام
إلّا يَحِنْ للراقدين قيامُ ... فعليهمُ وعلى الديار سلام

يدعو إلى البذل والتضحية فى سبيل مصر

من قصيدة له نظمها سنة ١٩٠٤ لمناسبة إنشاء مدرسة محمد على الصناعية بالإسكندرية:

من يُسعد الأوطانَ غيرُ بنيها ... وينيلها الآمال غيرُ ذويها
ليس الكريم بمن يرى أوطانه ... نَهْبَ العوادى ثم لايحميها
ترجو بنجدته انقضاء شقائها ... وهو الذى بقعوده يشقيها
وتودُّ جاهدةً به دفعَ الأذى ... عن نفسها وهو الذى يؤذيها
سُبُلُ المكارم للكرام قويمة ... فعلامَ يخطئها الذى يبغيها؟
ما أكثر المتفاخرين وإنما ... فخر الكرام بماحبت أيديها
يحوى الكريم المالَ لايبغى به ... شيئًا سوى أكرومة يحويها
والجود يُحمد حيث كان وخيره ... ما نال أوطان الفتى وبنيها
ولقلما أرضى امرؤ أوطانه ... حتى تراه بنفسه يفديها

* * *

يا آل مصر وما يؤدى حقها ... إلاّ فتى يكفى الذى يعنيها
هى أمكم لا كان من أبنائها ... من لايواسيها ولايُرضيها
وهَبَتكم الخيرَ الجزيل فهل فتى ... منكم بحسن صنيعها يجزيها؟
سعدت لعمرى بالصنائع حقبةً ... دلّت على (عجل) فمن يتنيها؟
دار الصنائع خير دار تُبتنى ... فالله يجزى الخير من يبنيها

يطعن فى الملوك، ويستهجن الرتب والألقاب

من قصيدة بعنوان (الشرف والملوك)، وإذا عرفت أنه نظم هذه القصيدة ونشرها سنة ١٩٠٨ فى الجزء الأول من ديوانه، لرأيت أنه أول شاعر وطنى حمل على الرتب والألقاب، وأول من هاجم الملكية والملوك بهذه القوة والشجاعة، فسبق بهذه القصيدة الخالدة عجلة الحوادث بنصف قرن من الزمان، قال:

كذَب الملوك ومن يحاول عندهم ... شرفًا ويزعم أنهم شُرَفاءُ؟
رُتَبٌ وألقاب تغُرُّ وما بها ... فخرٌ لمحرزها ولا استعلاء

آنًـا تـبـاع وتـارة هى خـدعـة | تُمنى بشـر سُعـاتها الأمـراء
كـم رتبـة نَعِمَ الغبىّ بنيلها | من حيث جللّها أسى وشقـاء
لـو كـان يـعلم ذُلَّها وهوانها | مـا طال منه الزهـو والخيلاء
يَلْقَى الكـرامـة حيث كـان وفعلُه | جَمٌّ المساوئ والمقـال هـراء
تلك الجهـالـة والغـرور وباطـلٌ | مـا يصنع الأغـرار والجهـلاء

* * *

ذنب الملوك رمى الشعوب بنكبة | جُلّى تنـوء بحملها الغبـراء
لا المجـد مجـدٌ مـا عبـثت بـه | أيـدى الملوك ولا السنـاء سنـاء
مـالُوا عن الشرف الصميم وأحدثوا | مـا شـاءت الأوهـام والأهـواء
رفعـوا لطغـام على الكـرام فـأشكلت | قِيَمُ الرجـال ورابـت الأشيـاء
وإذا الـرعـاة تنكبت سبـل الهدى | غـوت الهـداة وطـاشت الحكـماء
وإذا الطبيب رمى العليلَ بـدائـه | فـبِمـن يؤمـل أن يـبـلّ الـداء ؟

* * *

لـو جاور الشـرفُ الملوكَ لأورقت | صُمُّ الصخـور وضـاءت الظلماء
ظـلمٌ يُـبـرِّحُ بـالـبرىء وغـلظةٌ | يـشقى بها الضعفـاء والفقـراء
الحق منتَـهـكُ المحـارم بينهم | والعـدل وَهْمٌ والـوفـاء هـبـاء
رفعـوا العـروش عـلى الـدماء وإنما | تبقى السفينـة مـا أقـام المـاء !

يرثى مصطفى كامل

قال سنة ١٩٠٨ من قصيدة له فى رثاء مصطفى كامل :

مـازلت تقتحم المصاعب مجهـدا | نفسـا موطّنـةً عـلى الأهـوال
حتى طواك الموت غير مجامـل | شـعـبـا يجلّك أيمـا إجـلال
أحييتـه وقتلت نفسك بـالـذى | حمّلتهـا من فـادح الأثقـال
هـلا رحمت نفوسنـا فـرحمتهـا | وبقيت تكفينـا أذى المغتـال

وختمها بقوله:

إن كان قد حُمَّ الفراق فوقفة ... تشفى نفوسا آذنت بزوال
هيهات ما جزع النفوس لراحل ... سارت به الحدباء غير خيال
سرْ فالحياة كما علمت رواية ... محتومة الأدواء بالآجال

يدافع عن حرية الصحافة، ويلوم الخديو عباس

قال من قصيدة له سنة ١٩٠٩ ينعى على الحكومة تقييدها حرية الصحافة، وفيها يوجه اللوم إلى الخديو عباس الثانى فى خذلانه للأمة:

صُبوا المداد وحطِّموا الأقلاما ... واطووا الصحائف وانزعوا الأفهاما!
وخذوا على الوجدان كل ثنية ... واقضوا الحياة مزملين نياما
ودعوا البلاد تذوق من عنت العدا ... ما شاء خادمها الخؤون وناما

* * *

اليوم نُمنع أن نئن لمؤلم ... أو نشتكى الإعنات والإرغاما
والله لا ندع الشكاية منهم ... أو يمنعوا الأوصاب والآلاما
كيف القرار على الإساءة والأذى ... أم كيف نكتم فى القلوب ضراما؟
ومتى رضينا أن نعيش أذلة ... فنطيق مسكنة أو استسلاما؟

إلى أن قال يخاطب الخديو عباس الثانى ويلومه:

ماذا بدا لك فاعتزلت صفوفنا ... أفأصبحَت حرب الغزاة سلاما؟
الحرب دائرة وجيشك قائم ... ينضى السيوف ويرفع الأعلاما
والملك مضطرب ومصر كعهدها ... تدعو الحماة وتشتكى الأقواما
إن كنت خاذلها ولست بفاعل ... فحماتها لا يخفرون ذماما[1]
أتخون مصر وما تحوّل نيلها ... سمًا وما انقلب الضياء ظلاما
نبغى لها الشرف الأشمَّ مؤيدًا ... بالبأس نؤيس صرحه الهداما

---

(١) يقصد بحماتها أبناءها المجاهدين.

ونعــز رايتهــا ونمنــع حــوضهــا ونـزيـد صـادق حبهـا استحكـامـا
عبــاسُ رأيـك فى البــلاد وأهلهـا أن الأذى يستـضـرم الأوغـامـا
إن كـان عسف فـالـزمـان مؤرخ يحصى لنــا الحسنـات والآتــامـا

* * *

قـلمى. كـتــابى. أمتى. وطـنى. متى نشفى نفــوسـا تستــطير أوامــا؟

يندد بملوك الشرق

من قصيدة له سنة ١٩١٢ بعنوان (الملك الزائل) يندد فيها بملوك الشرق لمناسبة ضياع مراكش بعد توقيع السلطان عبد الحفيظ المعاهدة التى قبل فيها وضع بلاده تحت حماية فرنسا:

هَوَت العروش وزُلْـزت زلزالا عرشٌ هَوَى وقديم مُلكٍ زالا!
رِيعت لمصرعه المشارق إذ مشى فيهــا النَّعيُّ وأجفلت إجفـالا
سَلَب المغيرُ حياتـه واستأصلت أيدى الجوائح عِزَّه استئصـالا
تَنْجُو الممالكُ ما نجا استقلالُهـا فإذا اضمحلَّ أعارها اضمحلالا
أين (الخليفة) ما دهاه وما له؟ أَرْضى المغـيرَ وطـاوع الغتالا

* * *

ما قام شعبٌ نام عنه حمـاتُه واستشعـر التفـريط والإهمـالا
تـأبَى العنـايــةُ أن تصـافــحَ أمـةً تـرضى الهـوان وتـألف الإذلالا

* * *

قـد كان يـأنف أن يكـون قـرينهم ويـعـدهـم لجـلالــه أمــثــالا
لعب الغُـرورُ بـه فضيَّـع ملكــه واعتــاض منه مـذلـة وخبــالا
وإذا أراد الله شـرا بـامـرىء تبـع الغـواةَ وطـاوع الجـهــالا

* * *

أخليفــة يـعــطى البــلاد وآخــر يهـوى القيـان ويعشق الجـريـالا؟
أغـرور مفتـون وصبــوة جـاهــل بئس (الخـلائف) سيـرةً وفعــالا

فظائع الإنجليز فى مصر إبان الحرب العالمية الأولى

من قصيدة له سنة ١٩١٨ يندد بفظائع الإنجليز فى مصر إبان الحرب العالمية الأولى:

أيها الجند ظافرًا يتمشى ... فى الجماهير معجبًا مختالا
يوم غاب الحماة واستصرخت مصـ ... ـر تنادى الرجال والأبطالا
أقتلت الكماة فى الحرب غلبا[1] ... أم قتلت النساء والأطفالا؟
أنصفى (الظالمين) يا (دولة الفا ... روق) منا وعلمى (الجهالا)
علمينا كيف الحياة نُعانيها ... وصونى النفوس والآجالا
خففى الفتك إننا قد عيينا ... ولقينا فى ظلك الأهوالا
إقبضى ظلك (المحبب) عنا ... واجعليها عقوبة ونكالا

إلى أن قال يندد بغدر الاحتلال:

ماذكرنا لكم من الخير شيئًا ... مارضينا لكم على الدهر حالا
نذكر الحكم ظالمًا مارأينا ... فيه عدلا ولاوجدنا اعتدالا
نذكر العهد سيئًا ماعرفنا ... فيه حرية ولااستقلالا
نذكر الشر والبلاء جميعًا ... فاذكروا عهدكم وشدوا الرحالا
رصعوا(التاج)بالوفاء وحلوا ... بحلى الصدق(عزه والجلالا)
لاتريقوا دم الضعيف عليه ... وانظروه من فوقه كيف سالا
أكرموا التاج إنكم إن أبيتم ... زاد فينا مهانة وابتذالا
طال عهد احتلالكم فحسبنا ... أن يوم الحساب يدعى احتلالا

إلى أن قال منذرا الإنجليز بسوء العاقبة:

هل من الله مهرب أونجاة ... حين يزجى جنوده والرعالا[2]
يأخذ البر والبحار عليكم ... ويريكم نزاله والدحالا[3]
تلك عقبى الأذى فلاتنكروها ... جاءكم يومكم فذوقوا الوبالا!

---

(١) غلبا، جمع غلب.
(٢) الرعال جماعه الخيل.
(٣) الدحال. الامتناع.

فظائع الإنجليز فى ثورة سنة ١٩١٩

ومن قصيدة له سنة ١٩١٩ يندد بفظائع الإنجليز فى إخماد الثورة وما ارتكبوه من القتل والتنكيل بالأبرياء:

ياسوءَ ماحمل البريدُ ويالها ... من نكبة تدع النفوس شعاعَا!
ياربِّ ما ذنبُ الذين تتابعوا ... يسترسلون إلى المنون سراعَا
جرحى وما حملوا السيوف لغارة ... صَرْعىَ وما سألوا العدو صراعَا
قالوا (الحياة) فعوجلوا أن يقرعوا ... عند النداء بتائها الأسماعَا
(عزريل) نُبيء ما أصاب جموعهم ... فارتاب ثم رآهمو فارتاعَا!
مرأى يشق على العيون ومشهد ... يدمى القلوب ويقصم الأضلاعَا
لما أطل الظلم فيه بوجهه ... ألقى عليه من الحياء قناعَا
ودعا (بنيرون الرحيم) فما رنا ... حتى تراجع طرفه استفظاعَا
وصفو المصاب (لدنشواى) فكبرت ... (للمصلحين) مقابرًا ورباعا
واستيقنت أن الأولى نكيت بهم ... كانوا أبر خلائقًا وطباعا

* * *

يامصر خطبُك فى الممالك فادح ... ومصاب أهلك جاوز المُسْطاعا
قومٌ يَروعهم البلاء مضاعفا ... وتصيبهم نُوَب الزمان تباعا
لاذوا بحسن الصبر حتى زلزلت ... هوج الحوادث ركنه فتداعى
حملوا القلوب تفور مما تصطلى ... وتمور مما تحمل الأوجاعا
إن هاجهم طمع الحياة رمى بهم ... خطب يروّع منهم الأطماعا
وإذا أرادوا نهضة نفرت لهم ... حمر خلا الوادى فكن سباعا

* * *

سفكوا الدماء بريئة وتنمروا ... يرمون شعبًا لايطيق دفاعا
لم يذكروا إذ نحن نبذل قوتنا ... ونظل صرعى فى البيوت جياعا
بئس الجزاءُ وربما كان الأذى ... عدلا لمن يألو العدو قراعا

جاءوا فقوم يضمرون مودة ... ورضى. وقوم يظهرون خداعا
فتكافأ الحزبان فى حاليهما ... ومضت حقوق العالمين ضياعا

إلى أن قال يهيب بالشعب أن يذود عن حقوقه بالمهج والأرواح والإقدام والشجاعة:

لايستقلّ الشعبُ يترك حقه ... ويرى البلاد تجارة ومتاعا
يخشى العدوَّ فلا يطيق تشددًا ... ويهال منه فلا يريد نزاعا
إن الحياة لأمة مقدامةٍ ... تعيى العدو شجاعة ومصاعا
تزجى إليه من الحفاظ جحافلا ... وتقيم منه معاقلا وقلاعا
إن شامها فى الحادثات تفرقا ... عقدت على خذلانه الإجماعا
وإذا أراد بها المضيمة أرهفت ... همما يضيق بها الدهاة ذراعا

* * *

ياربَّ مصر تولَّ مصر وهبْ لها ... شعبًا يريد لها الحياةَ شجاعا
لو سيم يوما أن يبيع بلاده ... بممالك الدنيا معًا ما باعا!

يرثى فريدا

من قصيدة له سنة ١٩١٩ يرثى محمد فريد:

أترى الكنانة كيف تعبث بالدم ... الله للشهداء إن لم ترحم!
أدنى المراتب فى الصبابة عندهم ... تلف المحب وطول وجد المغرم
تزجى تحيتها فيكذب دونها ... أمل الملول ومطمع المتبرم
ضل امرؤ قتلته (مصر) فلم يصن ... عهد الولاء لها وحق المنعم
معشوقة يجرى مع الدم حبها ... فى قلب نصرانيِّها والمسلم
بعثته (مصر) مجاهدًا ورمت به ... فرمت بجيش للفتوح عرمرم
خاض الغمار يهدّ كل كتيبة ... ويهز رايات الكمى المعلم
متجردًا لله يطلب حقه ... ويقيم جانب شعبه المتهدم
فإذا القياصر بالأرائك تتقى ... وإذا الأرائك بالقياصر تحتمى
كل به فزع وكل جازع ... يبقى القرار ولا قرار لمجرم

إلى أن قال:

يـا سيـد الشهـداء بعـد رفيقـه أرضيت ربـك فى جهـادك فـاغنم
ليس الـذى بـدأ الجهـاد فلم يمت إلا كـبـادىء حجـة لم تختـم
والنـاس فى شرف الحيـاة وعـزهـا ضـدان من مـاض وآخـر محجم
وأجـل مـا رزق الـرجـال همـامـة تـنفـى غـرام المـطلب المتهجـم
تتجشم الصعب المخوف وعنـدهـا أن المـنيـة مـركـب المتجـشـم
مـأوى الممالـك والشعـوب ومـالهـا وصفـوك ظلمًا بـالغـريب المعـدم
لـك من يقينـك ثـروة إن قـدرت قيست كنـوز العـالمـين بـدرهم
إيمـان ذى الإيمـان أعـظم ثـروة ويقينُ ذى الوجـدان أفضل منجم
ضـج النعـاة فضـج كـل مـوحـد وارتـج مـا بـين الحـطيم وزمـزم

ثم قال:

يا مصر حسبك مارضيت من الأذى وبـرئت من مـاضيـك إن لم تنقمى
إن التى رمت المـمـالـك بـاعـدت بـين المضـاجـع والشعـوب النـوّم
الأر تـركض بـالشعـوب حثيثـة فـامشى عـلى آثـارهـا وتـرسمى
إن كـان قيـدك لم يحـلّ فـإنـه خلق المـريب وشيمـة المتـوهم
سيـرى فما بـك غير تلك ومـا بنا إلا مـراقبـة الـعـدى والـلوم

* * *

يـا نـازحًـا لم نقض حق بـلائـه الله جـارك فـاغـتـبط وتـنـعـم
وانفضِ همـومـك عن فؤادك إننـا نلقى الهمـوم بكـل أغلب أضخم
إن المنـاكبَ والنفـوس بـأسـرهـا لـفـداء (مصـر) مـن المهـم المؤلم
مـاذا حفـظت لأهلهـا من حـرمـة وقـضيـت من حـق عليـك محتـم
حيتـك (مصر) عـلى البعاد فحيهـا ودعـت مسلمـة عليـك فـسلم
جـاوزت حسن الصنع فى خـدامها وكفيت سـوء الـذكـر من لم يخـدم
كـذب المضلل لن ينـالـك سعيـه إلا إذا نـال الـسـماء بـسـلم
أقسمت مـالـك فى جهـادك مشبـه والحـر مـؤتمن وإن لم يـقـسـم

مــازلت تسـرف فى المغــارم دائبًـا | حتى جعلت النـفس آخـر مغـرم
أى القـواضب بعد مـا قطع الـظبا | ولـوى الأسنـة فى الـوغى لم يثلم
رددت صــوتى فى الـرتــاء وإنمــا | رددت من صـوت الكنانـة فى فمى
حيتــك فى المــلأ العــلى وأزلفـت | حـور الجنــان إليـك شعـر (مخـرم)
أسفى لأوبــة راحــل لم تقضهــا | عــدة المــنى وتحيــة لم تــنــظم

ذكرى فريد

وقال سنة ١٩٢٢ فى ذكرى محمد فريد:

ألا فاذكروا من قـومنا كـل مقدام | ففى هـذه الذكـرى حيـاة لأقـوام
وما الناس إلا الخالدون عـلى البلى | وصـرف الليالى من هـداة وأعـلام
همُ ثـروة الأجيال لـولاهم انطوت | عـلى فـاقـة مـا تستـطاع وإعـدام
إذا المـرء لم يعمل لمـا بعـد يـومـه | طـوى كل حيٍّ ذكـره بعـد أيـام

* * *

سـلامٌ على الحىّ المقيم وإن طـوى | إلى المنـزل الأقصى ثـلاثـة أعـوام
على الكوكب الطافى على لُجَّة الردى | إذا ما طوى الأقمار طوفانهُ الطامى

* * *

ألا فاذكروا الأبطال وابتذروا الوغى | وكـونوا أولى بـأس شديـد وإقدام
هى الـوثبـة الأولى وإن وراءهــا | لما يستجيش الوثب من كل ضرغام

* * *

وقال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له فى ذكراه:

جـددوا الـذكـرى لأهـل المشـرق | وصَـفــوا المجـدَ لـشعـب شيـق
يـعشـق المـجــد فــان لجّـت بــه | لــوعــة الــوجـد تنحـىّ يتّـقى
عَـلّمــوه كيـف يـقـضى حقّــه | نــابــه المــوقف حــرّ المصــدق
وأروه الــســبــل نــارًا ودمًــا | من يَهبْ فيهــا المنــايــا يصـعق
مــزقــوا الأوهــام عــنــه إنــه | لـيــظنّ السبــلَ من إستبــرَق

إلى أن قال:

يا (شهيد النيل) لو ناجيته ... لشفاه منك عذبُ المنطق
شاقه الصوت البعيد المرتمى ... والمقام الكسروى الرونق
وشجاه أن يرى صمصامه ... غير وضاح السنا فى المأزق
جاشت الأحداث تستقصى المدى ... وارتمت من كل صوب تلتقى

إلى أن يندد بانقسام الأحزاب وبمساوئ الحكم القائم وقتئذ (نوفمبر سنة ١٩٢٥) حكم الرجعية والسراى:

سائل الأحزاب ماذا عندها ... غير ترجاف وهَم مقلق
وتأمل هل ترى اليوم سوى ... دولةٍ فوضى وحكمٍ أخرق
فات (نيرون) رجال رزقوا ... من فنون الظلم ما لم يرزق
لو جرى (فرعون) أو (هامانه) ... يتعاطى شأوهم لم يلحق
سجنوا الدستور طفلا ناعيا ... واستبدوا بالسجين الموثق
لاجرى(النيل)على الوادى ولا ... بورك الشعب إذا لم يُطلق

* * *

تلك ذكرى (النيل) للنفس التى ... عكف (النيل) عليها يستقى
هى عينٌ من حياة عذبة ... فى يفاع من سناء مشرق
فزعت مصر إلى أبطالها ... فالبس النقع وسِرْ فى الفيلق
سائل القوم أما من غضبة ... لذمام صادق أو موثق
لا أرى النجدة إلا فى الأولىَ ... هم أولو العهد الأبر الأصدق
ننصر الله ونحمى أمة ... نحن منها فى الصميم المعرق
همة المقدام من آلائها ... وبيان العبقرى المفلق

الحالة السياسية سنة ١٩٢٥

فى سنة ١٩٢٥ عين اللود جورج لويد معتمدا (مندوبا ساميا) لبريطانيا فى مصر خلفا للمارشال أللنبى الذى استقال من منصبه، وقد حضر المعتمد الجديد إلى مصر فى أكتوبر

سنة ١٩٢٥، فنظم أحمد محرم قصيدة يخاطبه فيها ويحذره مغبة السياسة الاستعمارية، وفيها يندد بانقسام الزعماء وتنكبهم سبيل الإخلاص والسداد، ويهيب بالأمة ألا تقع فى شرك الاستعمار ومناوراته، وأن تصمد فى الجهاد. قال:

أتسأل مصر ما حمل (العميد) — وهل عند الرماة لها جديد؟
هو السهم الذى عرفته قدما — وجرّبَ وقْعَه الشعب الوئيد
تمرد مبدئ وطغى معيد — ولم تزل الرميّة تستزيد
(مسيح الهند) إن بمصر شعبا — يشق عليك إن خضع الهنود
فما نظر المسالم أين تبغى — ولا عرف المساوم ما تريد
دع الزعماء إن لهم لَدِينًا — يدين بغيره الشعبُ الرشيد
إذا ذكروا الزعامة فهى دعوى — يكيد بها (الكنانة) من يكيد
ولا تبقى البلاد إذا أصيبت — بمن يبغى الزعامة يستفيد
لمن تتألب (الأحزاب) شتى — وما هذى الصواعق والرعود؟
تداعوا للوغى فهوى صريعا — على أيديهم الوطنُ الشهيد
مضت أسلابُهُ تُزجَى إليهم — فمأتمة لدى الأقوام عيد
إذا ساد التخاذل فى أناس — فأعوزُ ما ترى شعبٌ يسود

إلى أن قال:

عميدَ (الغاصبين) نزلت أرضا — يبيد الغاصبون ولا تبيد
يذود الواحد القهار عنها — إذا قهرت جنودك من يذود
أتذكر إذ لقومك ما أرادوا — وإذ (لكرومر) البطش الشديد
تطوف جنوده فتصيد منا — ومن سرب الحمائم ما تصيد
أتذكر (دنشواى) وكيف كادت — جوانبها بأهليها تميد
تضج من العذاب ولا سبيلٌ — إلى غير العذاب ولا مَحيد

إلى أن قال مشيرا إلى طغيان كرومر وكيف أكرهته مصر على الاستقالة من منصبه:

سيوف الجند مظهر كل حق — ورأى (كرومرَ) الرأى السديد
أتذكر إذ نعاتبه فيطغى — ويهدر فى مقالته الوعيد[1]

---

(١) يشير إلى خطبته سنة ١٩٠٧ قبيل رحيله عن مصر وقد توعد فيها المصريين ببقاء الاحتلال

أخــذنــاه بــقــارعــة أَلَحَّــتْ ... عــليــه فــزال واشتـفت الـكبــود
صــدعنـا ركنَـه فــانقضَّ يهــوى ... وذاب الـصخــر أجمــع والحــديــد
هــوى جبـلٌ من العــدوان عــالٍ ... وزلــزل لــلأذى صــرحٌ مـنـيــد
ونحن الـقــائمــون بحق مـصــر ... إذا مــا استسـلم القــوم الـقعـود
ونـحن المقبـلون عــلى المنــايــا ... إذا الأبــطال كــان لهــم صــدود
نـضن بمـصــر إن عــدت العــوادى ... ولـكـنــا بــأنــفـسـنــا نجــود
هـى الــذمم المصــونــة والـعــود ... فــما يبغى (كـرومـرُ) أو (لُــويِــدُ)

* * *

أخــا (السكسـو ن) هــل نبئت أنــا ... جــلاوذة لــقــومــك أو عــبـيــد
لقــد كـذبــوا عليـك فليس فينــا ... لمـن يبـغى الهـضيـمــة مستـقـيــد
إذا سعت (الـوفـود) إليك فــاحــذر ... عــواقب مــا تقــول لـك (الــوفـود)
فــما أحِــد بمــالــك أمــر مــصــر ... ومــا بــالـشعـب جبـنٌ أو جمــود
مـضت دنيــا القيــود وتلك دنـيــا ... تُـذَمُّ بهــا وتُحــتـقــر الــقـيــود
حمـينــا مــا حمـى الآبــاء قــدمــا ... وصــان لــنــا ولـلْنَـيــل الجــدود
بــلاد مــا تــبــاع وبــاقــيــاتٌ ... مــن الآثــار مــعــدنها الخــلود

يدعو إلى اليقظة السياسية، ويندد بالتراخى فى الوطنية

قال سنة ١٩٢٧ من قصيدة فى (الشعر السياسى):

تسعى الشعوب ونحن فى غفلاتنا ... نــأبى الفعــالَ ونكــثر الأقــوالا
ركبــوا متون العــاصفات وشــأننــا ... أن نــركـب الأوهــام والآمــالا

* * *

يــا باعثَ المـوتى ليوم معــادهــا ... تنســاب من أجـداثهــا أرســالا
أعــد الحيــاة لأمــة أودت بهــا ... غفـلاتهــا فَثَــوت سنـين طــوالا
وأضىء لها سُبُل النجــاة ليهتدى ... من زاغ عن وضْح الطريق ومالا
وتــولّهــا بــالصــالحــات ولقّهــا ... منــك الأمــان ووقهــا الأوجــالا

وامنُن عليهـا من لـدنـك بقـوة تـوهى القيـود وتصْـدع الأغـلالا
واجمع على صدق الإخاء فضاضنا فـلقــد تفــرق يمـنــة وشمــالا
أودى بنا بين الشعـوب تباغضٌ صـدع القلوب ومـزَّق الأوصــالا
تستفحـل النكبات بـين ظهـورنـا ويـزيـد معضـل دائنـا استفحـالا
الله يحكم فى المـمـالـك وحـده ويــصــرِّف الأقــدار والآجــالا

إلى الشعب

وقال سنة ١٩٢٧ فى هذا المعنى موجها الخطاب إلى الشعب:

ادفــع بنفســك لا تكن متهيبــا مــا اعـتز فى الأقــوام من يتهيب
شــرف الحيـاة وعــزهـا لمغـامـر يمضى فــلا يـلوى ولا يتـنـكـب
أشــرع لأمتــك الحيــاة ولا يكن لــك فى حياتـك غـير ذلـك مـأرب

* * *

مصر الحياة وحبهـا الشرف الـذى بـطرازة الـغــالى أدل وأعـجــب
نفسـى ومــا ملكـت يــداى لأمتى وســراة آبــائى ومن أنــا منجب
أبــنىَّ إنــك لــلبــلاد وإنها لـك بعـد والـدك التراث الـطيب
شمِّـر إزارك أن نُـدبت لنصــرهـا إن الكــريم لمثـل ذلـك ينـدب
مــا لمــرء إلا قــومــه وبــلادُه فــانـظر إلى أى المــواطن تنسب
ليس التـعصـب للرجــال معــرَّة إن الكــريم لـقــومــه يتـعصـب
للمـرء من شرف العشيـرة زاجـر ومن الخــلال الصــالحــات مؤدب

حكم التاريخ

مِنْ أنعُم التــاريـخ أن حســابــه حـق وأن قـضــاءه لا يُـشـجِــب
تقف الخــلائق تحت رايـة عــدلـه فيقــام ميــزان الحقــوق ويُنصب
فى مــوقف جلل تجيش جمــوعــه فيـداس فيــه متــوَّجٌ ومعصَّب
ملك الـزمـان فـما لعصـر مـوئـلٌ يحميــه منـه ومــا لجيـل مهــرب

يخاطب النيل

يا نيل والموفون فيك قلائل ... ليت الزعاف لمن يخونك مشرب
قُتل الوفاء فما غضبتَ وإنما ... يحمى الحقيقة من يغار ويغضب
تهب الحياة له وليس لقاتل ... فى غير حكمك من حياة توهب
مَن لى بشعب فى الكنانة لا القُوَى ... تنشق منه ولا الهوى يتشعب
متألب يبغى الحياة كأنه ... جيش على أعدائه يتألب
أين الرجال العاملون فإنما ... تبقى الممالك بالرجال وتذهب

وطن يعذب فى الجحيم

فلسطين الشهيدة

من قصيدة نظمها سنة ١٩٣٨ عن مأساة فلسطين:

لَبَّيْك يا (وطن الجهاد) ومرحبا ... لبيك من داعٍ أهابَ وثَوَّبا
لبيك إذْ بلغ البلاء وإذ أبى ... جدُّ الزمان وصَرْفه أن نلعبا
من ذا يرى دَمَهُ أعزُّ مكانةً ... من أن يُخضَبَ من (فلسطين) الرُّبَى
وطنٌ يُعَذَّبُ فى الجحيم وأُمَّةٌ ... أعْززْ علينا أن تُصابَ وتُنْكبا
بقلوبنا الحرَّى وفى أحشائنا ... ما شَبَّ من أشجانها وتلهَّبا
وبنا من الألم المُبرِّح ما بها ... وأرى الذى نَلْقَى أشدَّ وأصعبا
نتجرَّع البلوى وندرَّع الأسى ... نرعى لإخوتنا الذِّمام الأقرَبا
إنا لنعلم أن آكل لحمهم ... سيخوض منا فى الدماء ليشربا
جعلوا الكفاح عَن العروبة حرثهم ... وتعهدوه فكان حرثًا طيبا
يَسْقون مازرعوا دمًا فى مخصب ... لولا الدمُ الجارى لأصبح مُجدبا
(البيتُ) يَطْربُ من أنين جراحهم ... أرأيت فى الدنيا أنينًا مطربا؟

وقال يحمل ساسة بريطانيا وأمريكا مسئولية مأساة فلسطين:

إن الذى زعم السلام مُرادُه ... جعل الدماء سبيله والمركبا
إن كان قد غَمَرَ الزمانَ وأهلَه ... كذبًا فمن عاداته أنْ يكذبا

أرأيت إذ سكب الدموع غزيرةً ... يأبى الحياء لمثلها أن يُسكبا
متصَنِّعٌ باسم الضعيف يُريقُها ... وهو الذى تَرَك الضعيف مُعَذَّبا
ما كان أصدق نُسْكه لو أنه ... رحمَ البرىءَ ولم يُحَابِ المذنبا
يَهْذِى بذكر العدل فى صلواته ... أرأيت عدلا بالدماء مُخَضَّبا؟

وقال يهب بالأمم العربية أن تهب لنجدة فلسطين:

رُسُل العروبة هل أسيتم جُرَحها ... ما باله استعصَى وماذا أعقبا؟
جُرْحٌ تقادم عهده وتفتحت ... أفواهه تدعو الأساةَ الغُيَّبَا
أنتم أُساةُ الجُرْحِ فاتَّخِذُوا له ... مِنْ طِبِّ شَيْخِ أُساتِكُم ما جَرَّبا
وصفَ الدواءَ لكم وخَلَّفَ عِلْمه ... فيكم فأين يريد منكم من أَبَى؟

* * *

يا قومُ لستم بالضعاف فغامروا ... وخذوا مطالبكم سراعا وُثَّبا
أفما كفاكم قوةً من دينكم ... ماجَمَّعَ الإيمان فيه وألَّبا
يا (آلَ يَعْرب) مَنْ يريني (خالدا) ... يُزْجِى الخميس ويستحث المِقْنبا
من شاء منكم فَلْيَكُنْهُ ولايقل ... ذهب القديمُ، فإنه لن يذهبا
السِّرُّ باقٍ والزمانُ مجدَّدٌ ... والسيفُ ما فقد المضاء ولانَبا

* * *

رُدُّوا المظالم عن محارم أمة ... رُدَّت ظنون ذوى الجهالة خُيَّبا
لم يَعْطِ أوطانَ العروبة حقها ... من كان يطمع أن تُبَاعَ وتوهَبا

يشفق على الفلاح

ومن قصيدة له بعنوان (رحلة عابسة) سنة ١٩٤٠، وقد مر ببعض القرى وتحركت شاعريته إشفاقًا على الفلاح. قال:

وَيْلى على فلاح مصر أماكَفَى ... ما ذاق من عنتٍ ومن إرهاق
يُغنى ألوف المترفين بماله ... ويعيش فى فَقْرٍ وفى إملاق
سبحان من شرع السبيل لخلقه ... أكذا يكون تفاوت الأرزاق؟

أحمد نسيم

١٨٨٠ - ١٩٣٨

شاعر مبدع، من أعلام الشعر الوطنى، يمتاز بجذالة الأسلوب، وتدفق المعانى والأحاسيس الوطنية فى قصائده، لا يقل شعره رواء وحسن ديباجة عن شعر شوقى وحافظ وأحمد محرم.

ولد سنة ١٨٨٠، واعتنق منذ صباه مبادىء الوطنية، وتجلت مواهبه الأدبية وهو فى سن مبكرة، فامتزجت الوطنية بروحه الشاعرية، وتمشت فى قصائده الغر، وأضفت عليها جمالا ورونقا وبهاءًا، وجعلت لها رنينا موسيقيا يأخذ بمجامع القلوب.

سمى (شاعر الحزب الوطنى)، واعتز هو بهذا اللقب، وسجله فى ديباجة ديوانه الذى ظهر فى جزءين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٠، وأهداه إلى المرحوم محمد فريد زعيم الحزب الوطنى إذ ذاك، قال فى كلمة الإهداء:

رئيسى المحبوب

«أما بعد فإنى أتشرف بإهداء الجزء الثانى من ديوانى إلى سعادتكم لاحتوائه على القصائد الوطنية التى نظمتها ما بين سنتى ١٩٠٩ و ١٩١٠ ميلادية، وقد اعتمدت فى نقلها على الصحف التى تفضلت بنشرها مبقيا ديباجتها كما هى حتى لا يغرب عن ذهن القارىء على مدى الأيام وصف الحادث الذى نظمت القصيدة بسببه».

«وإنى إذا أهديت ديوانى إلى سعادتكم فكأنى أهديته إلى الأمة المصرية التى يمثلها حزبكم الموقر».

أحمد نسيم

شاعر الحزب الوطنى

ويعدّ نسيم ثانى الطبقة الأولى من شعراء الحزب الوطنى، وأولهم أحمد محرم، وثالث الثلاثة المعاصرين أحمد الكاشف الذى سنتحدث عنه فيما يلى، وجميعهم تبدأ أسماؤهم (بأحمد).

وتبدو مكانة نسيم الممتازة فى عالم الشعر من قول إسماعيل صبرى شيخ الشعراء فى تقريظ الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٨:

لكَ فى الشعر يا (نسيمُ) معانٍ باهراتٌ تحار فيها العقولُ
كُلُّ بيت يُطلُّ منه على أفهام أهل النُّهى مُحيًّا جميل

ولما ظهر الجزء الثانى سنة ١٩١٠ قرظه صبرى أيضًا ببيتين آخرين رقيقين قال:

أىُّ غُصْنٍ فى الرَّوْض هَزَّ (نسيمٌ) نُثِرَتْ منه هذه الأزهارُ
حبذا شعره الجنىّ وأهلا ببيان تُزهَى به الأشعارُ

يؤيد مصطفى كامل فى قطع علاقته بالخديو

قال نسيم مخاطبا مصطفى كامل بمناسبة كتابه إلى الخديو عباس الثانى بقطع علاقته به سنة ١٩٠٤:

خطيبَ الشرق لا تلوى العنانا فأنت المرء أوقرهم جنانا
وأمضاهم إذا كتبوا يراعًا وأذلقهم إذا نطقوا لسانا
لقد دافعتَ دهرًا عن بلاد قد افتخرت بمدرهِهَا زمانا
وكم رُمتَ العلاء لقَوْم مصر وكنت أشد من فيها جنانا
بقلب عافَ أرزاءَ الليالى كما عافَ المذلة والهوانا

***

وجانبتَ الأمير وأنت تنوى فعالا لا يكون بها مُدانا
وكم من فُرقة صعبت فهانت وكم من طارىء أخنى فهانا
فزِدْنا مصطفى وازدد ثباتا يَزِدْك القوم شكرًا وامتنانا
مدحتك لا لجائزة ولكن وجدتك خير من يُهدَى البيانا
هدية شاعر ا ظل يُطرى ويمدح فيك أخلاقا حسانا
فكن للشرق ساعده المرجّى تزرك قصائدى آنا فآنا

يهاجم المعتمد البريطانى

ومن قوله سنة ١٩٠٧ مخاطبا اللورد كرومر لمناسبة رحيله عن مصر بعد خطبته التى هاجم فيها المصريين والإسلام:

يا لورد هل لك فى الإسلام من غرضٍ ... ترمى إليه بسهم منك مسنونِ؟
هجوتَ قومى وما فارقت أرضَهم ... حتى تجرأتَ أن تنحى على الدين
رأيتُ أنك لست المرء تصلحنا ... ولست فينا على مصر بمأمون
غادرتها وهى للتقرير صارخَةٌ ... إلى الإله بقلب منكَ محزون
فلا رماك الحيا إلاَّ بداجنةٍ ... تهمى عليك بزقّوم وغسلين

يمجد الشرق ويحزن لحالته

قال يمجد الشرق ومصر ويحزن لحالتها:

تَداعتْ رواسى الشرق فانهار جانبه ... وما همَّ حتى أقعدته نوائبهْ
تحاربه الأعداء من كل جانب ... ولم يكفهم أن الزمان يحاربه
تحدّ على هاماته شفراته ... وترهف فوق الناصيات قواضبه
وحسبك أن الشرق فى كل أمة ... مآثره مشهورة ومناقبه
تخرَّج منه الفاتحون لأرضه ... فماجت به بطحاؤه وسَبَاسِبُهْ
وكم كان للشمس المضيئة مطلعا ... أفق معالٍ لا تغيب كواكبه

إلى أن قال:

وما الشرق إلاَّ موطن عبثت به ... على غرة أبناؤه وأجانبهْ
أضاعوا حمىً يجرى النضار بأرضه ... وتهمى عليه باللجين سحائبه

يهاجم أُسرة محمد على

وقال سنة ١٩٠٨ يخاطب مصر ويهاجم أسرة محمد على وهى فى إبَّان سلطانها:

رَثَيْتُكِ يا أرض الفراعنة الألى ... قضوا فى بلوغ المجد ما الحقّ واجبهْ
ورثتِ بفضل العلم عزًّا ممنَّعا ... فما بات إلَّا وابن غَيركِ غاصبهُ

ولا خير فى عرشٍ من الغرب رَبُّه ... ولا خير فى مال من الغرب كاسبه

أفيقى فما فى الجهل إلاّ مذلة ... ولا العلم إلاّ سؤددٌ عزَّ صاحبه

أنيرى ظلام الشرق بعد انسداله ... فعند طلوع الشمس تجلو غياهبه

ولا تقنطى من رحمة الله مرةً ... إذا شيم من برق انخذالك خاليه

وددت بلادى أن تسود بنفسها ... لأكتب فيها خير ما أنا كاتبهْ!

يدعو الأمة إلى الجهاد

ومن قوله سنة ١٩٠٨ يدعو الأمة إلى الجهاد والذود عن حقوقها واستقلالها:

هَلُمّ ندافع جهدنا عن بلادنا ... دفاعَ كماة أو ضراغم غاب

كذلكم الرئبال تعروه سورةٌ ... إذا احتُلَّ يوما خيسه بذئاب

ومن فقد استقلالَه عاش هَينا ... يسام صنوفا من أذىً وعذاب

هلم نَخُضْ غمر الصعاب إلى العلا ... ونفرقْ من الإقدام كلَّ عُباب

عسى يسعد الجد الذى مال نجمه ... وتشرق شمس المجد بعد غياب

ألم نَكُ كاليونان أهلاً لمجلس ... يدافع عنا عند كل مصاب

ألم نَكُ كالبلغار والصرب فى الحجا ... وأخصب منهن اخضرار جَناب

ألم نك أرقى من ممالك لم تقم ... لدأبٍ ولم تهمم لأىّ طلاب

أليست بلاد النيل أوَّلَ أمة ... أماطت عن العرفان كل نقاب

علومٌ وأخلاقٌ وفضلٌ وهمة ... وتذليل أوعارٍ وذكُّ صعاب

وقال يفند مطاعن كرومر على المصريين:

فحتَّام ذيَّاك العميد ينوشنا ... بناجذ سرحان وظفر عقا

فطورًا يعادينا بتقرير كاشح ... وطورًا يناوينا بنشر كتاب

ويا ليته ردَّ الدليل بمثله ... وخفَّض من طعن له وضراب

إذا عجز المقهور عن قهر خصمه ... لدى البطش لم يلجأ لغير سباب

يرثى مصطفى كامل

وقال سنة ١٩٠٨ فى رثاء مصطفى كامل من قصيدة تزيد على ستين بيتا:

ما بال دمعكَ لا هامٍ ولا جارى ... هل اكتفيت بما فى القلب من نار؟

جفَّت دموعك من عينيك واستترت — فيها لواعج أحزان وأكدار
ضاع الصواب ونفس المرء ساهمة — ما بين أقضيةٍ تجرى وأقدار

* * *

يا طائرَ البين لا قرَّبت من سكنٍ — ولا هدأت بأفنان وأوكار
نعيتَ خير فتى كنا نؤمله — يوم الرجاء لأوطان وأوطار
فليمرح الذئب ما شاءت مهانته — فقد غَفَتْ عنه عَينُ الضيغم الضارى
لا أيَّدَ الله أعداء أذلَّهُمُ — حتى أقاموا بدار الذل والعار

* * *

يا بائع الصبر إن الناس فى جزع — فبع لهم كل مثقال بدينار
ما زال يدأب حتى خانه قدرٌ — ألقى عليه عصا دأب وتسيار

وقال يصف الجنازة واحتشاد الجموع فيها:

أعززْ على حامليه فوق أعينهم — أن يرجعوا بأكف منه أصفار
كأنما النعش عرشٌ زانه مَلكٌ — يمشى الهوينا بإجلال وإكبار
كأنما الناس حول النعش مائجةٌ — أمواج مضطرب الآذىّ زخَّار
فلو يعدُّون ما أوفى بهم عدد — كصيِّب القطر لا يحصى بمقدار
كأنما لجب الباكين من هلع — هزيم رعد أجشُّ الصوت هدَّار
كأنما الأرض قد سدَّت طرائقها — بالناس من ثابت فيها وسيَّار

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩٠٨ فى رثائه:

أمَلٌ نأى عن أرض مصر وزالا — أصْمَى القلوبِ وقطَّع الأوصالا
يا نائيًا عنا وكنت محسَّدًا — فينا كما كنت الشريف فعالا
مدَّت إليك يد المنون فأنشبت — بقلوبنا قضبا لها ونصالا

إلى أن قال:

إنا سنبقى ذكر فضلك خالدا — لنكون فى صدق الوفاء مثالا
قد كنت أفضل من يذود لسانُه — عنا وأصدَق من يقول مقالا
فليسْقِ شؤبوبُ الحَيَا لك موحشا — قد ضم مجدًا بينه وجلالا

يؤيد فريدًا فى جهاده

قال سنة ١٩٠٨ مخاطبا محمد فريد رئيس الحزب الوطنى مؤيدا له فى جهاده:

إجهر برأيك إن الحق قد غَلَبا ... هذا يراعُك يحكى السيف ما كتبا
أرى المضلين قد زاغت بصائرهم ... ومن يظن الدجى صبحا فقد كذبا
سِرْ فى طريقك لاتحفل بذمِّهم ... ولا يهزك مغرور إذا غضبا
لاأنت ترجو افتقارًا منهم نشَبًا ... ولا تؤمل من إحسانهم رُتَبا
لازلت بالحق بين القوم تخذلهم ... حتى تراهم وكُلٌ فى الوغى هربا
فاهزم كتائبهم وافلل مضاربهم ... واسلل يراعك واكتب عنهم العجبا

يندد بوزارة مصطفى فهمى

وقال فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ يندد بوزارة مصطفى فهمى على أثر سقوطها، وكانت موالية للاحتلال:

ما للوزارة ذات الضعف والفشل ... باتت على دارس أعْفَى من الطلل ؟
وزارة بلغَت بالوهن غايتها ... فى كل نائبة أو حادث جلل
ترحلت غير مبكّيٍ على أحد ... وودعت غير مأسوف على رجل
إن زال مجد الفتى أو زال منصبه ... فذكره بعد فى التاريخ لم يزل
يا هيئة الصُّمِّ بِينِى غيرَ راجعة ... إلى جمودك فى أيامك الأول
وزارة مالها فى الخير صالحة ... ولا على صولة الأيام من قِبَل
كانت تماثيل بين القوم قائمة ... بلا لسان ولاقلب ولاعمل

يندد بالخديو عباس

وقال فى ديسمبر سنة ١٩٠٨ حين تنكر الخديو عباس الثانى للحركة الوطنية، وحيل بين جموع الشعب والأقتراب من موكبه لمطالبته بالدستور:

خطوبٌ ما لها أبدًا نصير ... وأمر حل فى مصر خطير
لئن كُرهت حياة الشعب يوما ... فخير لو تفتحت القبور

* * *

أيــاربَّ الأريـكــة قــد رضـيـنــا ... بــأنــك لا تُــزار ولا تــزور
وهَبْنــا نـطلب الـدستـور جهــرا ... ألا يــرضيــك ذيَّــاك الشعــور؟
أغـيــرك فى المـلوك وأنـت أدرى ... لــه شعبٌ عــلى البلوى صبــور؟
فهـل خـدعتـك فى البهتـان نــاس ... أرادوا أن يـســوء بـنــا المـصـير؟
(أمــور يضحــك السفـهــاء منهــا ... ويبكـى من عــواقبهــا الخـبــير)

يمجد الوطنية فى رأس السنة الهجرية

وقال سنة ١٩٠٩ فى الاحتفال بعيد رأس السنة الهجرية (١٣٢٧) الذى أقـامته لجنـة الحزب الوطنى الفرعية ببولاق بمدرسة الشعب يمجد الوطنية ويخاطب فريدًا:

قــد مثلونــا فى الـتعـصـب مـثلما ... قــد شــاءت الآثــام والأوزارُ
كـذبٌ قـد أبتـدعـوه حتى مــا لهم ... فى مـصـر إلّا الكيـد والإضــرار
بـانَ الضـلالُ من الهـدى وبـدا لنـا ... فى منهـج الحَقِّ الـقـديم منـار
يــا أمـة ثبتت عــلى كيـد العــدى ... لا تجـزعـى إن الثبــات فـخــار
سيــرى إلى طلب (الجـلاء) ولاتنى ... تمنــحْ من العليــاء مــا نـخـتــار
أفــريـد لا تخـذل بـلادك بعــدمـا ... جُمعت لــديــك أولئـك الأنـصــار
هـذى الشبيبـة قــل لهـا لا تحجمى ... مــا فى ثبــات المقــدمــين شنــار
لـك من يــراع الكــاتبين صــوارم ... ولــديــك منهم جـحفــل جــرار
تـرمى العداة إليك سهم سمـومهـا ... ويـذود عنـك الــواحــد القهــار
دعهم كـما شـاءوا ليـوم حسـابهم ... فـلهم كـما شــاء الهــوى أطــوار
إنـا قـد اختـرنـاك خـير مـدافـع ... يــرضى بــه الــرحمن والمـختــار

وفى سنة ١٩١١ ألقى قصيدة أخرى فى تحية السنة الهجرية (١٣٢٩) بالاحتفال الذى أقامته الطلبة لهذه المناسبة بدار التمثيل العربى يوم أول يناير سنة ١٩١١، وقد حضره المرحوم محمد فريد، وأشار الشاعر فى مطلع قصيدته إلى مــا أصاب الحـركة الـوطنية من اضـطهاد فى العـام السابق. قال:

تَجــلَّى العــام فــاستجلوا الهــلالا ... فــإنى شِـمْـتُـه لـلسعـد فــالا
ســأطــريــه متى عــزّت بــلادى ... وقــد رُزقـت كــما رُزق الكـمــالا

وأمدحه متى قمنا بمصر ... وأرجعنا لها ذاك الجلالا
فأما والبلاد وساكنوها ... يزيد الدهر حالتهم نكالا
فلست بناظم فيه قريضا ... ولا أنا قائل فيه مقالا

* * *

إلا نطالب الأعوام خيرًا ... ولم تنعم لنا الأعوام بالا؟
تمر وتنقضى منها ليال ... بأرزاء الزمان غَدَتْ حُبالى
وتلك ممالك الإسلام كادت ... صروف الدهر تخبلها خبالا
فلست أخصها بالذكر عنا ... ونحن من البلاء أشد حالا

* * *

أيا عاما تقضى بئسَ سهمٌ ... رميت به الغوائى والرجالا
فقالوا هل صروف العام كانت ... نزاعًا قلت بل كانت نِزالا
همومٌ لو رَشَقْت بها فؤادًا ... لكانت فى جوانبه نبالا
لقد حمَّلتنا للضيم عبئا ... ثقيلا لا نطيق له احتمالا
وقد أجريت دمع القوم حتى ... كأنا كلنا قوم ثكالى
ولولا ذكر أحمد[1] كل عام ... لما صُغْنَا لك الذكر الحلالا

المضى فى الجهاد

أرى فِرَقًا قد افترقت بمصر ... ورامت عن أواصلها انفصالا
أناس أخلصوا من بعد زيغ ... وثابوا بعد أن ألفوا الضلالا
وأقوام قد ارتدوا جهارًا ... فساءوا فى عواقبهم مآلا
وقال الناكصون كفى غلوًا ... وإلّا ذقتم منه الوبالا
خلائق فى المكارم لم يمدوا ... يمينا للفعال ولا شمالا
أولئك عصبة بالخزى باءوا ... فسمّوا الخزى والجبن اعتدالا

---

(١) يقصد الرسول ﷺ.

وقال يخاطب الشباب:

أنـابـتـةَ الـبـلاد وخـيـرَ نشء ... غَـدَوا لـلنشء بـعـدهـم مـثـالا
عـليـكـم بـالإخـاء ولا تَـفَّـلوا ... عـرى القُـربَى فتنخـذلـوا انخـذالا
سيـنـدب حـظه الـوطن المفـدى ... إذا لم تحسنـوا عـنـه الـنضـالا
فـجـدُّوا فى عـلومـكـم صـغـارا ... ولا تشكـوا الـسـآمـة والكـلالا
فـمن رام الـكـواكـب والـدرارى ... بـلا عـلم فـقـد رام المـحـالا
وإن صـرتم رجـالَ النيـل يـومـا ... فـلا تـنسـوا بـربـكم الـقتـالا
وذودوا عنـه مـا اسـطعتم بـرأى ... حصيـف واجعـلوا الحسـنى جـدالا
ومـا زال الـرئيس[1] لكم كفيـلا ... عـلى رغـم الخـطوب ولن يـزالا
وكـونـوا لـلأجـانب خـير عـون ... تـزيـدوا عـروة الـود اتصـالا
إذا عـشـتـم وإيـاهـم بـخـير ... مَحـوْتـم عـنـكـم قـيـلا وقـالا
لقـد أوجـزت خيفـة أن يقـولـوا: ... نـسيـم فى قـصـيـدتـه تـغـالى

الجهاد فى سبيل الدستور

وقال يستحث الأمة على طلب الدستور وعلى الاتحاد والثبات فى ميدان الجهاد:

فلاتفكوا عـرى القُرْبَى ولـو رجعت ... عنكم شفـار الظبـا مخضـوبـةٌ بـدمٍ
ولاتضيعـوا من الـدستـور فـرصتـه ... فتقـرعـوا السنّ من ذلٍ ومن نـدم
إن تيـأسوا فـانتهاء اليـأس مسكنـة ... أوتسـأموا فـاحتمـال الـذل فى السـأم
مـا نـال قط المعـانى وهى دانيـة ... قـومٌ نيـامٌ وشعبٌ غـير مـلتئم
خـيرٌ لنا المـوت من عيش نكـابـده ... مـع الهـوان إذا كـنتـم ذوى شمـم

ذكرى مصطفى كامل

وقال فى فبراير سنة ١٩٠٩ فى ذكرى مرور العام الأول على وفاة مصطفى كامل، وقـد ألقى

---

(١) يريد الزعيم محمد فريد وكان حاضرا الاحتفال. وكانت النيابة العامة قد استدعته لاستجوابه فى تهمة صحفية باطلة، ثم أحالته إلى محكمة الجنايات، وقد حوكم فعلا وقضت عليه المحكمة ظلما فى ٢٣ يناير سنة ١٩١١ بالحبس ستة أشهر.

هذه القصيدة فى دار اللواء بين يدى محمد فريد وأعضاء الحزب الوطنى قبل أن يتحرك موكب الذكرى بالمسير:

ما بال عينك بالمدامع تسجمُ ... رِفْقًا بنفسك فالقضاء محتم
قد عادت الذكرى فجدَّدَ عودُها ... بين الحشا جرحا يثور فيؤلم
يا يوم كامل كنت يومًا قاتمًا ... كالليل أقبل وهو أسود أقتم
ياليوم لا كانت طلائعك التى ... بالنحس أنذر وجهها المتجهم

وختمها بقوله مخاطبا محمد فريد:

أفريدُ يا ابن الأكرمين تحيةً ... من شاعر لعقود مدحك يَنْظِمُ
أفريد يقرئُكَ السلامَ معاشرٌ ... مدُّوا إليك يد الولاء وسلَّموا
حصَّنت بيضتهم وصنتَ ذمارهم ... بعزيمة قد أصغَرت ما استعظموا
رَكبوُا مطايا الحزم نحو رئيسهم ... إذْ أنت بينهم الأجلّ الأحزم
فاضرب برأيك فى مواقفَ جمة ... فالرأى فى بعض المواقف مخذم

يهاجم الاحتلال فى إبان سلطانه

قال سنة ١٩٠٩ من قصيدة يحمل فيها على الاحتلال ويفضح نكثه بعهوده ويستنهض الهمم للجهاد، وقد بدأها يستصرخ الإنسانية لتمد إلى مصر المكافحة يد العون والتأييد، وهى من عيون الشعر الوطنى:

يا نَاشِرِينَ لواء العدل فى الأمم ... الله فى أمة أنت من الألمِ
مُدُّوا إلينا يدا بيضاء نشكرها ... عند التحدث شكر الروض للدِّيمِ
إنَّا مُنينا بأقوام جبابرة ... ما بين مغتصب منهم ومحتكم[1]
لو استطاعوا لساقونا أمامهم ... ما بين متَّهم منا ومجترم
جاءوا إلينا وفى أيْمانهم سرف ... يموِّهون به فى العهد والقسم
قالوا لنا: إننا جئنا بلادكم ... نبنى لكم ركن مجد غير منهدم
حتى تخدرت الأعصاب وانسدلت ... على العقول سجوفُ البطل والوهم
ولم يزالوا على هذا الدعاء وهم ... لايقصدون سوى الإخماد للهمم

(١) يريد المحتلين.

حتى إذا انتبهت منا جوارحُنا — وأدرك الحالَ فهمُ الحاذق الفهِم
حَكّوا القلوب فأذكوها ورُبّتما — أدّى إلى النار حكُّ البارد الشيم
فلا عهود لهم ترعى ولا ذمم — كما استباحوا الدينا النكث فى الذمم
صبّوا على مصر سَوْطا من تعنتهم — وأججوا فى حشاها جَمْرَ بَغْيهِم
هم أحرجونا بهذا الضيم من زمن — فإن هممنا بدفع الضيم لم نُلَم

* * *

ياقائمين بأمر النيل حَسْبُكم — ما أحرج القوم من ظلم ومن غشم
ناموا هنيئًا قريرى العين أن لنا — عَيْنًا من الشعب لم تغفل ولم تنم

وقال فيها يدعو الشعب إلى الاعتماد على نفسه:

أنتَ يا شعب وادى النيل كن حَكَما — فليس غيرك من مستنصف حكم
كم أمة حكمت فى مصر وارتحلت — عنها خليفة جد بعد لم يقم
سَلْ أمة الروم هل أبقت لنا أثرًا — يبقى على الدهر أو سَلْ أمة العجم
مضوا ولم يتركوا فى مصر مأثرة — ينبيك عنها لسان النيل والهرم
هذى عجائب هذا القطر من زمن — وتلك حالات وادى النيل من قدم

يحيى جريدة العَلَم

قام فى سنة ١٩١٠ خلاف على ملكية (اللواء) بين بعض ورثة المرحوم مصطفى كامل، طرح أمره أمام القضاء، وعين حارس قضائى على اللواء، وكانت صحيفة الحزب الوطنى، وأراد الحارس أن يتدخل فى تحريره وتوجيه سياسته، فرفض المرحوم محمد فريد هذا التدخل، وأنشأ جريدة (العلم) وجعلها لسان حال الحزب الوطنى، وابتدأ ظهورها يوم ٧ مارس سنة ١٩١٠، فحياها نسيم بقصيدة بديعة، قال:

ألَا فليخفق (العَلَمُ) الجديد — يمينا إن طالعه سعيد
أيا عَلَم البلاد عليك منى — سلامُ الله ما خفقت بنود
أرى الأعلام معلقُها بناءٌ — ومعقُلك الجوانحُ والكبود
بِرَبكَ خَبرٌ الأقوام عنى — بما تنوى الوزارة والعميد[1]

(١) وزارة محمد سعيد والعمد إلدون جورست معتمدا بريطانيا.

رفعتَ لنا وبالأبصار شك — من الشبهات والأيام سُودُ
فجئنا من لدنك بكل فأل — تحدّاه التيمّن والسعود
وإن كنا نرى الأعلام شتى — فأنت وربِّك العَلُم الفريد

* * *

أيا(عَلَم) البلاد أرى احتلالا — كأنا عنده نفرٌ عبيد
أصرّ على الجفاء ونحن شعب — أضرّ به التعسف والوعيد
وكم من جذوة فى القلب شبت — فلم يدرك تأججُّهَا الخمود
فقل لهم أثيروا كل عسف — فريحُ العاسفين لها ركود
متى ينأى احتلال النيل عنا — وتصدق منه هاتيك الوعود؟
قَضَوْا فينا بما شاءوا وصدُّوا — كما راموا فهل نفع الصدود؟
لقد فرحوا بما أوتوا فجاروا — وللباغى إذا عقلوا حدود
ضروب فى المكايد يوم تُحْصَى — عليهم ليس يحصيها العديد
وكم ودّوا الشقاء لأهل مصر — كما شقيت بظلمهم (الهنود)
مكايد يفزع التاريخ منها — ويصدف عن إعادتها المعيد

* * *

أقول الحقَّ لا أخشى انتقاما — يَهمّ إليه (طاغيةٌ) مريد
أإنْ أنَّ المضيمُ فقال رفقا — تُشدُّ له السلاسلُ والقيود؟
إذا مدّوا حبال السوء يوما — فإن الله يومئذ شهيد

* * *

أيا(عَلَم) البلاد إليك شعرا — ترردده التهائم والنجود
ودونك عقد نظمى من جمان — ومن درر يقال لها قصيد
يريد الشامتون بنا نكالا — (ويأبى الله إلاّ ما يريد)
فكن فى الحق مثل الحق يمضى — يكُنْ لك بينهم بأسٌ شديد
ولا تتْبع هواهم بعد عِلْمٍ — يضلوا فى الغوالاة أو يزيدوا
فليس بنافع فيهم رشاد — ولا من بينهم رجل رشيد

إلى الزعيم محمد فريد فى سجنه

فى سنة ١٩١١ حوكم الزعيم محمد فريد أمام محكمة الجنايات بتهمة أنه حبّذ الجرائم وأهان الحكومة إذ كتب مقدمة لكتاب (وطنيتى) الذى تضمن قصائد نظمها الأستاذ على الغاياتى، ومع أن هذه المقدمة كتبها الزعيم دون أن يطلع على محتويات الكتاب وقبل أن يتم المؤلف وضعه ثم سافر الزعيم إلى أوروبا فى مايو ولم يظهر الكتاب إلاّ فى شهر يوليه، وليس فى المقدمة ما يقع تحت أى نص من قانون العقوبات. ومع ذلك فقد أقامت عليه النيابة الدعوى العمومية، وكان الغرض من محاكمتة إرهابه وتهديد أنصاره واضطهاد الحركة الوطنية، وقد حكم عليه فى ٢٣ يناير سنة ١٩١١ بالحبس ستة أشهر فى هذه التهمة الباطلة، ونفذ فيه الحكم يوم صدوره.

فنظم أحمد نسيم قصيدة من روائع الشعر الوطنى بعنوان (إلى الرئيس فى سجنه) حيَّاه فيها أبلغ تحية، وعبر عن الشعور العام بإزائه أصدق تعبير، قال:

يـاليتَ سجنـك لم يكـن بمقـدَّر ... فاصبرْ على المقـدور ستـة أشهـر
قـد جـلَّ رزءُ الشعـر حتى خلتُـه ... بعض الرثـاء وأنـت لمـا تقـبر
لـولا احترام الحـاكمين وحكمهم ... لجعلتـه مثـل الشـواظ الأحمـر
أقْصَـرتَ فى مـا قلتَ حتى لم تَسَـلْ ... أمقصـرا أم كنتَ غـير مقصـر[1]
وتـركت أقيـالـلدفـاع فلم تعـن ... بـالمِـدْرَه المشهـور أو بـالأنْشَهَـرِ
يكفيـك عطفُ العـالمين ووجـدهم ... من أكـبرٍ يطأ الثَّـرَى أو أصْغـر
حتى لقـد مـاد (البقيـع) و (يثـرب) ... وتـزلـزت أرض (الصَّفـا) و (المشعـر)
الْتَـاعَ قلبُ (محـمـد) لمحـمـد ... رب المحـامـد والعـلا والمفـخـر

* * *

إنى نـظرتـك فى اتهـامـك واقـفًـا ... فـظننـتُ أنـك واقـف فى المِنْـبر
لتقـول شعـبى أو بـلادى إنـنى ... لِهَـواكُـما بـين اللَّظَى المتَـسَعِّـر
ولقـد رأيتـك جـالسًـا مستبسـلا ... خلف الشِّبـاك جلوس من لم يُـذْعَـر
فـرأيتُ فى هـذا الشبـاك مَعـانيًـا ... فهى العـرينُ وأنـت أجـرأ قَسْـوَر

(١) يشير إلى إيجاز الفقيد فى جوابه على أسئلة المحكمة وعدم استعانته بمحامين للدفاع عنه إيمانا منه ببطلان التهمة وتحديا للمؤامرة التى اتخذت شكل المحاكمة.

ولقد لمحتك ماشيا فى ثُلَّةٍ ... تعتز بينهم بقدر أوفر
فسألت هل هذا المسور «خالد» ... أم «جوهر» يختال بين العسكر

* * *

أفريدُ يا ابنَ الأكرمينَ تحيةً ... من شاعر بسوى الأسى لم يشعر
فى مصر قوم ناوأوك بشرِّهم ... فارددْ مكايدَهم إليهم وانحر
ذكروك فى حب البلاد وأهلها ... ما قيمةُ الإنسان إن لم يُذكر؟
لو كنتَ ممن تاجروا بضميرهم ... للعبتَ لعبا بالنضار الأصفر
أو كنتَ ممن يطلبون مراتبا ... لشأوت فى العلياء نجم المشترى
وسبقت أجرام السماء وفُتَّها ... من مظلم فى ذاته أو نيِّر

* * *

أ (محمدٌ) كن فى النوائب ضيْغَما ... مستجمعا للطارئ المتنمر
إن بتَّ أنت من الفوادح جازعا ... ما فضل مفتول الذراع غضنفر؟
أشرقْ لعلك بين سجنك مشرقا ... تهدى سبيل الطارق المتنور
فالشعب بعدك بات ينتجع العُلا ... وغدا مُناهُ ورود هذا الكوثر
أنعمْ بسؤددك العظيم ومرحبا ... بك من كريم الأصل زاكى العنصرُ
أعْزِزْ علينا يا ابن «أحمد» حالةٌ ... جاءت بعيش بالهموم مكدر

* * *

فكأنه بدْرٌ يحجب نورَه ... ظلماتُ غيم فى السماء كَنَهْوَر
أو دُرّةٍ مكنونة فى زاخر ... أو دمعة مخبوءة فى محجر
أو زهرة فيحاء خيف ذبولُها ... وضياع نفحتها إذا لم تستر
أو ناظر غمضت عليه جفونه ... حذرا عليه من القذى والعثير
أو أنت سر الكائنات محجب ... أو بعض مكنون القضاء المضمر

* * *

إلى أن قال:

أمحمد ما أنت أولُ مبتَلى ... بالفادحات من الزمان الأكدر

إنى عهدتك خير من يسدى الورى رأيًا وخير مفكر ومدبِّر
فاشهرْ لدى الأهوال عزما صادقا فلربَّ عزمٍ كالحُسام الأبتر
ما الناس إلا اثنان ذاك ميسِّرٌ للصالحات وذاك غير ميسر
جلَّ الإله فقد أرانا علمه من كل شىء فى الوجود مسخر
بانت مراحمه بأكمل رونق وبدت مآثره بأكمل مظهر
لولا الفؤاد وما أصاب دفينه ما كنتُ عن ذكراك بالمتأخر
لولا مراس الداء صغت قصيدة أربت على شعر الأديب المكثر

* * *

عفوًا رئيسَ المخلصين فإننى ما رمت إلاَّ جل عفوك فاغفر
قد جئتُ أزجى فى القريض خريدة قد بات يحسدنى عليها (البحترى)
عطرية فيحاء طورا عن شذا وَرَدٍ وطورا عن أريج العنبر
فيها معان صاغها لك مبدع جم البيان خياله لم يحصر
فاخلع عليها من خلالك نفحة حتى تضوع بنفح مسك أذفر
لى فيك ملء الخافقين لآلىء زهر تبيع بها الرواة وتشترى
فعليك منى ما حييت تحية وسلام كسرى فى الملوك وقيصر

يحيى الوحدة الوطنية

قال سنة ١٩١٩ يحيى الوحدة الوطنية والتآخى بين المسلمين والأقباط:

أقباط مصر ومسلموها ضمهَّم دين المسيح وشرعة الإسلام
الناشئون على الطهارة والتقى والقائمون بمصر خير قيام
والخالدون إلى السكينة كلما جاء الزمان بشدة وعرام
برح الخفاء وبان أنَّا أمة لم تبغ غير محبة ووئام
إنَّا لنرجو أن نعيش بغبطة توحى السلام وتنتهى بسلام

يرثى فريدا

قال سنة ١٩١٩ من قصيدة فى رثاء محمد فريد:

رمانا الزمان بإحدى الكبر ومنه العظات ومنه العبر!

شهيد تصارع فى حومة رماه القضاء بها والقدر
وخلف من بعده أمة كسرب النجوم فقدن القمر
أتى جثة سافرت للبلى ولم تسترح من عناء السفر
منًى أوردته حياض الردى وورد الردى ماله من صدر
تعلقها عند سرخ الصبا ولم يجففها عند مس الكبر
وأينع فى روضها غرسه ولم يبق إلا اجتناء الثمر
وأى امرىء عاش أقصى المدى فنال من العيش أقصى الوطر؟

* * *

إلى أن قال:

هنيئا لميت نعته العلى وطوبى لحى وعى وادّكر
وحسب فريد مُنى نالها فقد حصدت كفه ما بذر
فتى أغمض الموت أجفانه وأطبقها بعد طول السهر
أفاض على قومه ماله فأدى الحقوق وأسدى البدر
طويل نجاد الجدى عائل لكل ضريك إليه افتقر
رأى الحرص عارا على نفسه فهان على نفسه ما ادخر
وكان بصيرا بعقبى الندى يرى المال يفنى وتبقى السير
وأخلد ما للفتى ذكره إذا نزل القبر لا ما يذر
وكم صامت ناطق فى الثرى بآى فصاح كآى السور
وليس الذى ذكره خامل كمن شاع صيب له وانتشر
وليس بميت أغر اسمه على صفحات العلى مستطر
خطيب المنابر منطيقها وأسلس من فوق جمع نثر
فإن يكب يوما بضماره فكم من جواد كبا أو عثر
وما زال ينهب فى عدوه فيافى الفجائع حتى ضمر
وحتى دهنه بأعناتها كوارث كاسرة للفِقر

وختمها بقوله:

أرى «كاملا» راح فى شرخه وأودى «فريد» حميد الأثر

زعيما بلاد خلت منهما، «أبو بكر» مات وولى «عمر»
عزاء العلا عنهما أمة تنادت لتجديد مجد دثر
وشعب سعى نحو آماله بعز توقد حتى استعر
وما من ضعيف القوى واهن تشبث بالحق إلا انتصر

يحيى جريدة الأخبار

قال سنة ١٩٢٠ يحيى المرحوم أمين الرافعى لمناسبة إصداره جريدة الأخبار:

ياوحيُ أسعفنى بنظم قلادة صيغت لألئها من الأشعار
هذا (أمين الرافعى) ومن له خير السجايا الغرّ والآثار
يا (رافعىّ) لأنت أصدق مخلص للنيل فى الإعلان والإسرار
جَرِّد يراع المخلصين وذُدْ بها بطش القوى وصولة الجبّار
واحذر على (الأخبار) من آفاتها إن (الرواة) لآفة الأخبار
اليوم هنأتُ البلاد بكاتب ملكت يداه صحيفة الأحرار

يندد بالانقسام ويدعو إلى التآخي

وقال سنة ١٩٢١ حين اشتد الانقسام بين سعد وعدلى وأنصارهما، يندد بهذا الانقسام ويدعو إلى توحيد الصفوف:

قالوا انقسمنا فقلنا فتنة عَمَم بها تُفلّ مواضى العزم والهمم
ولم نكن غير جيش راكب طرفا شتى المسالك من سهل ومن أكم
حتى يرفَّ لواء الفوز منعقدا على الزمان بحق غير مهتضم
وكيف نُقْسَم والتاريخ ينبئنا أن الفلاح لشعب غير منقسم
فحاذروا أن تحلوا عقد شملكم فتقرعوا السن من حزن ومن ندم
ونظموا ما استطعتم من صفوفكم فالجيش إن يَعْرُه الإخلال ينهزم
ولا أحدثكم عن إرثكم عجبا فمنه كان بزوغ المجد والكرم

* * *

والمجد يدرك بالأعمال منجزة لا درك المجد بالألفاظ والكلِم

* * *

أحمد الكاشف

١٨٧٨ - ١٩٤٨



من الرعيل الأول من شعراء الوطنية، ولد سنة ١٨٧٨ بالقرشية من بلاد مركز السنطة غربية، وهو ابن المرحوم ذو الفقار الكاشف، وجدُّه من ضباط الجيش المصرى الذين خاضوا غمار المعارك فى عهد محمد على، تلقى علومه الأولية فى منزل والده بالقرشية، ثم التحق بمدرسة الأقباط الابتدائية بطنطا حتى استوفى دراسته، ثم عاد إلى بلدته وأقام فيها، ومالت نفسه منذ صباه إلى الشعر والأدب، وكان الشعر طبيعة لَهُ وسليقة، فعكف على المطالعة وأكب على كتب الأدب ودواوين الشعراء المتقدمين يدرسها ويستوعبها، فحاكاهم فى الأسلوب والبلاغة، واتجهت نفسه إلى نظم الشعر فى المعانى الوطنية، فجادت قريحته بشعر وطنىٍ من الطراز الرفيع، ووقف حياته على هذا اللون من الشعر، وعاش عمره عيوفا أبيا، معتكفًا فى بلدته (القرشية)، وفى ذلك يقول عن نفسه:

ولقد تحاشيتُ المدائن زاهدًا ... وبددت أطلب وحدةً وسكونا

لا أرتضى غير الطبيعة مأْنَسًا ... والذكرَ كأسًا والقريضَ خدينا

وله قصائد عصماء نظمها فى مختلف المناسبات، وعبر فيها أبلغ تعبير عن أحاسيسه ومشاعره الوطنية، وظل وفيًا لمبادئه طول حياته، وتألق شعره فى سماء الأدب والوطنية، وبلغ الذروة فى هذا المجال.

اتفاقية السودان

قال عن اتفاقية السودان التى أكرهت مصر على إمضائها سنة ١٨٩٩ على أثر انتصار الجيش المصرى فى السودان.

انتصرنا وما الذى قد جنينا ... ه من النصر بعد طول العناء؟

مـا جنينا سـوى (الوفـاق) جـزاءا	إن هــذا الـوفــاق شــرٌ جــزاءَ
وإذا شــارك الـضعيــف قــويــا	فى مــنــال فـحــظُّه كــالهــبــاء

الجندى فى المعركة

وطــنى أنــت الحــبــيــب الــدائم	لــك فى قـلبى المـقــام الأشــرف
وغــرامــى بــك طــبــعٌ لازم	ســرّنى أنى بــه مــتــصــف
لــك أسعــى دائبًــا مجتــهــدا	بــرجــاء ثــابــت مــقــتــدر
لاأبــالى فى طــريــقــى أبــدًا	طــال ليــلى أو تمــادى سهــرى
وطــنى أفــديــك بــالــروح إذا	مسّك الـدهــر بسوء لا يــطاق
وأرى الــلّذة فى دفـــع الأذى	عنك بـالنيـران والبيض الـرقـاق
دمــت يــا نــيــل أبــرّ الأنهر	بنفــوس كـم رأت منــك وفــاءْ
دمت تجـرى يـا شبيــه الكـوثــر	مُهْــدِىَ الــوادى هنــاءً ورخــاءْ
دمت يـا صحــراء ميــدان الجنـود	بــين قــطريــك الـلذيـن اتحــدا
مـظهـرا للبــأس من بيض وسـود	يـضمـن النصــر لنــا والـسؤددا

قصيدته فى اللورد كرومر سنة ١٩٠٧

لما رحل اللورد كرومر عن مصر على أثر حادثة دنشواى، شيّعه الكاشف بقصيدة ندّد فيها بطغيانه وجبروته، قال:

أعيــا عــزائمــكَ القضــاءُ الأغلبُ	وطــوى صحيفتَكَ الـزمـان القُلَّبُ
أرأيت كيف يُفــاجــأ السّبــاق فى	غــايــاتــه ويقــاطَــع المتــوثِّب
ولبثت تبــدو فى زخــارف مخلص	للقوم تخفى ما اعتــزمت وتحجب
غــافلتهم حينــا فلم يَتلفَّتــوا	إلاّ ونــابُــك فــيــهــم والمخــلب

وذكر حادثة دنشواى وكيف فرح المصريون بإقصائه عن منصبه:

وختمت عهدك بالذى اهتزت له	أركــان (مكه) واستعــاذت (يثرب)
وتنفس الصعــداءَ شعبٌ حــامــلٌ	همًّــا يضيق به الفضــاء الأرحب
مــاذا كسبتَ وأنت عنــا راحــلٌ	إلاّ الجفــاء وبئس هــذا المكسب

ينذر الإنجليز

وقال يخاطب الإنجليز وينذرهم سوء العاقبة:

قلدتم الرومان فى استعمارهم   هلّا ذكرتم منتهى الرومان؟
اليوم سؤددكم وسؤددنا غدا   كم أدرك المتمادى المتوانى
رحماكم فينا لنذكركم إذا   دار الزمان وحالت الحالان
إنا لنرجو من بنينَا عُدَّةً   لا عُدَّةَ الجيران والضيفان

يندد بوزارة مصطفى فهمى

قال فى أبريل سنة ١٩٠٨ يدعو وزارة مصطفى فهمى إلى الاستقالة، وكانت بغيضة إلى الشعب:

أفى كل يوم يشهد النيل نابغا   يعيش فنرجوه ويُقضَى فنجزع[١]
وليس لكم فى موسم الحىّ مظهر   وليس لكم فى مأتم الميت مفزع
لقد سئمت تلك الكراسىُّ مكنكم   فهلا شعرتم وهى تشكو وتضرع[٢]
وهلّا اعتزلتم منصبًا لا ينيلكم   من الأمر إلَّا أن تَذلُّوا وتخضعوا؟
أخاف عليكم أن تموتوا وأنتم   أضر من العادى علينا وأشنع
فإن شئتم أن يعفُوَ النيل عنكم   ويكبركم أبناء مصر ويرفعوا
فخلّوا وزارات البلاد لأهلها   إذا أرعد الجبار لم يتزعزعوا
إذن لرأيتم ما رأى من كرامة   ومرحمة ذاك الشهيد المشيَّع[٣]

يمجد الفلاح ويمدحه

وقال يمدح (الفلاح المصرى):

إذا استبقيتُ فى الدنيا حبيبا   فخير أَحِبَّتِى فلاحُ مصرَ

---

(١) يشير إلى مصطفى كامل وقد توفى فى فبراير سنة ١٩٠٨.

(٢) مكثت وزارة مصطفى فهمى تتولى الحكم ثلاثة عشر عاما من نوفمبر سنة ١٨٩ إلى نوفمبر سنة ١٩٠٨، وكان عهدها خضوعا وتسليما للاحتلال البريطانى.

(٣) يشير إلى مصطفى كامل.

كـريم يمـلأ الـوادى ثـراه ولا يَلْقَى سوى الإجحاف أجرا!
فقـيرٌ مـا أراه شكـا افتقـارا ولو يُجزى عـلى تعب لأثْرَى
فمحراثٌ يشقُّ الأرض عندى ويخرج من ثراه الخصب تبرا
كسيف فى يـد الجنـدى لاقى بـه جيشـا وحِصْنـا مُشْمخـرًّا

صلته بمصطفى كامل

كان الكاشف صديقًا ونصيرًا لمصطفى كامل، وكان لدعوة الزعيم وتعاليمه صداها فى قصائده، وكان مصطفى يقدره ويعجب به ويسميه (شاعر الغربية النابغة)، وكثيرًا ما كان هو يردد كلمات مصطفى كامل ومعانيها ويصوغها فى قالب شعرى رفيع.

قال عن صلة الخطابة بالشعر:

ولئن هزت العالمين فإن من تلك الخطابة هـذه الأشعارا

وقال يردد كلمة مصطفى كامل (لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا):

لو كنتُ فى الخلد أو فى غيره ملكا وددت لو أننى فى مصر إنسان!

وقال فى محاربة اليأس:

ومـا معنى القنوط وأنت حىٌّ وما معنى القنوط مع الحياة؟

وقال فى قيمة الاستقلال:

إن البلاد بلا استقلال صاحبها قَفْـرٌ لـديـه وإأصبحن جنـات

ولما مات الزعيم رثاه الكاشف بمرثية رائعة بلغت نحو مائة بيت، قال فيها:

لهفى عليك وقد رحلت اليوم لم تـدرك لغـرسـك فى البـلاد ثمـارا

إلى أن قال يشير إلى الرحلة التى كان يعتزم الزعيم القيام بها فى الشرق:

لهفى وما لاقتك (يثرب) ضيفها وخطيبها المسترسل المكثـارا
لهفى عليك ولم تسر متفقدا فى الهند إخوانا لمصر حيارى
لهفى ولم تنقل من اليابان ما يهب البلاد حضارة وعمارا
قد كنت مزمع هجرة لو قدرت قربت أعوانـا لمصر كبـارا
وجمعت بين السابقـين وأمة مهضـومـة تتتبـع الآثـارا

ثم يستنكر على وزراء مصر وقتئذ تخلفهم عن تشييع جنازة الزعيم خشية إغضاب الإنجليز، قال:

ويل الذين تخلَّفوا عن مشهد ... مَشَت الملائك حوله إكبارا
هل يعرضون ترفُّعا وتكبُّرا ... أم يسكنون تهيُّبا وحذارا؟

ثم يصف احتشاد الأمة يوم تشييع الجنازة قال:

يا قائد الأبطال هذا جيشك الـ ... ـجرّار فانظر جيشك الجرارا
يوم كيوم الحشر ضمَّهم وكم ... رحّبت فى أرب لهم مضمارا
فلئن بكوا فلقد بكيتهم وهم ... غرباء فى أوطانهم وأسارى
أو يحملوك على رءوسهم فقد ... أصعدتهم فوق النجوم فخارا

وختم مرثيته بقوله:

أشْهدتُ مصر على علاك ونيلها ... وصعيدها والنَّبْت والأحجارا
لو لم تسل قطع النفوس لشيدوا ... منها لك التمثال والتذكارا
ما مات من ورثت مناه أمة ... تجرى على منهاجه استمرارا

يحمل على سياسة الوفاق، ويعاتب الخديو عباس الثانى

فى سنة ١٩٠٩ كانت سياسة الوفاق بين الخديو عباس الثانى وإنجلترا تسيطر على الجو السياسى فى مصر، وكان هدف هذه السياسة محاربة الحركة الوطنية، وبدت مظاهر هذه السياسة فى تنكر الخديو للكفاح الشعبى ومناصرته للاحتلال وسياسته.

نظم الكاشف هذه القصيدة سنة ١٩٠٩ يحمل فيها على سياسة الوفاق ويخاطب الخديو عباس الثانى ويعاتبه ويحذره مغبة الاستنامة إلى وعود الإنجليز، وهى من أبلغ قصائده وأقواها:

أهلًا وسهلا بالوفاق ومرحبًا ... لو كان فيه قضاءُ ما وعدوكا
إن كنتَ مشترطَ (الجلاء) فواجبٌ ... لك أن نودّهم كما ودّوكا
خير لنا أن يعلنوا البغضاء من ... أن يعلنوا ذا الموثق المفكوكا
حاسنتَهم لتردّ عنا شبهة ... كم حاربوك بها وما حربوكا؟
ما كان حُبًّا ما ترى لكنه ... كَتَمَ المخاتلُ سرّه المهتوكا
أرأيت كيف وشى بكل مهذب ... حر فكان الإفك المأفوكا؟

اليومَ يشكونا إليك وما بنا غير الوفاء وفى غد يشكوكا
أعيا على أوهامه ووعيده هذا المراس فقام يستصفيكا

* * *

ماذا ترى فى غاصبين يسوءهم أنّا نحس وأننا نروكا
أتخاف شكوى المخلصين ولم تخف فيما مضى عدوان مضطهديكا؟
ياليتهم جعلوا القيود لكل ذى نظر وما انتقموا بأن حجبوكا
هل كان مُسْمِعُكَ السلامَ مشاغبا أم كان غير مشوّق رائيكا؟
إنّا وإيّاك ابتليناهم فهل صَدَقوا الورى يوما وهل صدقوكا؟
أوْلى بهم وقد اتهمنا نصحهم أن لا تصدقهم إذا نصحوكا

* * *

أرِهم مراسك قبل أن يستأسدوا إنّا لنخشاهم إذا أمنوكا
يا حبذا يوم (الجلاء) ولا نرى جندا يصول ولا دما مسفوكا

يخاطب اللورد كتشنر

فى سنة ١٩١١ عين اللورد كتشنر معتمدًا لبريطانيا فى مصر، وكان معروفا عنه الصلَف والغطرسة، فاستقبله الكاشف بقصيدة رائعة تفيض وطنية وشممًا وإباءً. قال فى مطلعها:

مهلًا لتمتحن الطريق خطاكا إن كلفوك لغاية إدراكا
فى مصر شعبٌ لا يُضام ومالك[١] متفرد لا يقبل الإشراكا
ما أنت حابس نيلها يومًا ولا أهرامُها مهدومةٌ بقواكا
الله أكبرُ من جيوشك سطوة والدهر أبعد من مَدَى مَرْماكا

إلى أن قال:

هل يُذنب الجرحى إذا هم حاولوا دون الضوارى صيحةً وحراكا؟
لسنا قطيعًا غابَ راعيه كما كنا ولسْتَ الضيغم الفتاكا

(١) لعله يقصد المالك الأمة فهى مصدر السلطات ولا تقبل إشراكا فى سيادتها.

إن كنت طلق الوجه أو متجهما فـالله يعلم منتهى نجـواكـا
ولعل شأنك فى مشيبك غير ما أسلفتـه فى عنفـوان صبـاكـا

إلين قال:

واذكرْ لوادى النيل نعمته عسى تُعطى بنيه بعض ما أعطاكـا
فإذا تجاوزت الكنـانة فـافتتح ما شاء عزمك واصعد الأفلاكا
فى غير مصر ذرائعٌ ومواقـع للمستـزيـد مطامعـا وعـراكـا
ولئن غضبت على الأباة فصبرهم أوْلى وأجمل من رجاء رضاكا
فاعرف لهم عذر الحريص إذا هم لم يسلموا لك ما تنال يداكا

يبشر بالاشتراكية

فى أعقاب الحرب العالمية وبعد توقيع معاهدة الصلح فى فرساى (مايو سنة ١٩١٩) بين ألمانيا والحلفاء، نظم الكاشف قصيدة عصماء تناول فيها شتى المعانى السياسية والوطنية. فمن قوله يبشر بالاشتراكية:

للاشتراكيـة العُقبى إذا شملت شَتَّى الشعوب وجاراها المجارونا
فـلا الكثيرون ملكًـا للأقلّينـا ولا الأقلون ملكٌ للكثيـرينـا
ولا نرى واحدًا ملأى خزائنهُ بـالمُغْنِيـات وآلافـا يجوعـونـا
ولا نرى درة فى رأس محتكم تهفـو إليها قلوب المستـظلينـا

يندد بغدر الإنجليز وتنكرهم لمصر

وقال فى هذه القصيدة يندد بغدر الإنجليز وتنكرهم لمصر بعد أن عاونتهم فى تلك الحرب:

يا نائلين من الحرب العوان سوى ما كان منتظرًا منها ومَظْنونـا
نَجـوْتُم من رزايـاهـا ومـاَلُكُم لا تذكرون وفاقا غير ناجينا؟
مَدُّ الحديدَ لكم فى كل مرحلة وذللوا لكُم أطـوادهـا لينـا[١]
ورابطوا لأعاديكم عـلى هدف وألحقوا النيلَ بالأردن ساقينـا

(١) يشير إلى تسخير العمال المصريين فى مد السكك الحديدية فى سيناء إلى العَريش أثناء الحرب العالمية الأولى.

وكم عتبخ على قوم لأجلكم ... وهم إلينا الأحبَّاء المحبُّونا
وقلتُم لم ينل قومٌ بغير دمٍ ... حرية فبذلناه مضحِّينا
ونال من دمنا فى عصر جندكم ... ما نال منه عداكم فى فلسطينا
فهل غسلتم خطايا الأبرياء به ... أم لا تزال خَطيئات البريئينا؟
أتستهينون بالإنسان ماثلكُمْ ... وتؤثرون عليه الماء والطينا؟
هَبُوا حِمَى مصر والسودان مزرعةً ... أيرهق الأجراء المستغِلُّونا؟
ورثتم خصمَكم ميْتًا وصاحبكم ... حيًّا، ومازلتُم فى الأرض تَسْعونا

* * *

جربتمو مصر فى تقييدها زمنا ... فجربوا مصر فى إطلاقها حينا
أمنتمُ مصر فيها نال أمتكم ... فأى شىء على مصر تخافونا؟
وقلتمُ: مصر للهند السبيل فإن ... ضاع السبيل أضعنا الهند ساهينا
أما إلى الهند إلا مصر من سُبُل ... ملأى شواهين أو ملأى سراحينا[1]
يهدد الهندَ أهلوه وجيرته ... ولا يزال سبيل الهند مأمونا
خافوا سوانا وأعطونا أمانينا ... فما تضرُّكم يومًا أمانينا
وإن فردا . لذى ملك يبرُّ به ... خيرٌ له من جماعات يثورونا
عن أى شىء لمصرٍ تسألون وقد ... هزَّت مسائل مصر الهند والصينا[2]
بالسيف والنار يدعو الناس جندكُم ... وتطلبون من الصرعى مجيبينا
ضَعُوا السلاسل عنا واطلبوا جدلا ... تروا أدلة مصر والبراهينا
وربما قبلت دعواكم دولٌ ... وأق مصر أباةٌ غير راضينا
لَيْتَ الذى حَرَمَ الألمان غايتَهم ... أخاف قوما سواهم لا يبالونا
وليت من زاد قوما قوةً وغنىً ... يرعى ويحرس أقوامًا مساكينا
أتسفكون لمظلوم دماءكُم ... وبالكلام على عانٍ تضنُّونَا؟
وهل وفيتم بميثاقٍ لمصر كما ... رعيتمُ العهد للبلجيك موفينا؟

---

(١) السراحين: الذئاب.

(٢) يشير إلى تأليف الحكومة البريطانية اللجنة المعروفة بلجنة ملنر بدعوى البحث عن أسباب ثورة سنة ١٩١٩ والوسائل لملافاة هذه الأسباب.

كم أعجبتكم من الأحرار عزّتهم ... كانوا موالين أو كانوا معادينا
فهل ذكرتم وأكبرتم لنا غرَضا ... كما ذكرتم وأكبتم (وشنطونا)[١]
كم أنجب البطلُ الأحداثَ عالية ... وأنجب الحدثُ الأبطال عالينا
كنا أمانة دهر عندكم وأتى ... وقتُ الأداء فهل أنتم مؤدُّونا؟
وقد أقرَّ لمصرٍ كل منتصف ... بحق مصر فهل أنتم قرونا؟
قد أصرت على استقلالها فعلى ... أى المآرب أصبحتم مصرينا؟

يحذر قومه من التحالف مع بريطانيا

وفى هذه القصيدة (التى نظمها فى أواخر سنة ١٩١٩) يحذر قومه من فكرة التحالف بين مصر وبريطانيا. قال:

أوَاهبون لمصرٍ كل ما طلبت ... أم آخذون بمقدار ومُعطونا؟
وإن رفعتم عن الوادى حمايتكم ... فما اسم لاحقها فيما تُسَمُّونا؟
وإن تروا بدلا منها (محالفةً) ... فمن لنا بضمانات المساوينا؟
إنا لنعجز عن حق الحليف وعن ... حق الشريك وأنتم تستزيدونا
وما مجاورة الأقوى وشركته ... إلا كما جاور العصفورُ شاهينا
ادعوا بنى مصر أندادا لكم ودعوا ... ولاة مصر ملوكا أو سلاطينا
وغادروها لأكفاء تجاربُهم ... تُغنيهم عن تكاليف المشيرينا
يفدون مصرَ وإن شاكت منابتها ... وإن جرى نيلُها مهلا وغسلينا
وإن تدفق فى البيداء منصرفا ... وإن أقام وراء السّدّ مخزونا
أحرار مصر تباريهم حرائرُها ... ففاديات كما نرجو وفادينا

يندد بالاستعمار والطغيان

وفى هذه القصيدة يندد بالاستعمار والطغيان ويحملها مسئولية الحرب الطاحنة التى أكتوت الشعوب بنارها. قال:

أمْضَى على الصلح قَوْمٌ يعبثون به ... وقد نأى عنه قومٌ غير مُمْضينا

---

(١) جورج واشنطون محرر أمريكا، وكان على رأس الجيش الوطنى الأمريكى الذى حارب الإنجليز وقد اعترفت بريطانيا باستقلال الولايات المتحدة سنة ١٧٨٣ بعد أن انتهت الحرب بظفر الأمريكان.

تنفس الصعداء اليوم بعضهم ... ولم يزل بعضهم أسوان محزونا
هل يعرف الدهر حربا كالتي شهدت ... تلك الثمانى يتلوها ثمانونا
صناعة هى يعتز الملوك بها ... على العباد الأذلّاء المطيعينا
أم كانتِ المرضَ الموروثَ فى دولٍ ... أعْيتْ طبائعها السّودُ المداوينا
ما كان أكبر آثام الأنام وما ... أذكى وأغلى الضحايا والقرابينا
أين الأسرةُ والتيجان أسألها ... عن الملوك الطغاة المستبدّينا
الرافعين على الأشلاء دورهُم ... المالئين دمًا تلك الميادينا
جَنَتْ على ملكهم أسلاب غيرهم ... فهل تذكر هذا المستغلونا؟

إلى أن قال:

دانت لعسكر (ولسونٍ) جبابرةُ ... وأين ما صنعت آراء ولسونا[1]؟
أغرى البرية باستقلالهم ونأى ... عنهم وهم بالذى أغرى يهيمونا

القوة سناد الحق

والحق فى كل عصر فاقدٌ سندًا ... إن لم يجد طلبًا بالبأس مقرونا
فذو السلاح هو المرهوب جانبهُ ... إذا انثنى الأعزل المغلوب مغبونا

أمل مصر فى بنيها

وختم هذه القصيدة الرائعة بقوله:

من لم ير اليوم فى العمران موضعه ... لم يلق فى غده دنيا ولا دينا
ونحن أولى بأن نرعىَ مواطننا ... نوفى المكاييل فيها والموازينا

مؤتمر لوزان
الحق للقوة

فى سنة ١٩٢٣ ترامت الأنباء عن مؤتمر لوزان بأنه يخذل مطالب الشعوب الشرقية فقال الكاشف يدعوها إلى القوة والتعاون فى مكافحة الاستعمار:

(١) ولسون الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة الأمريكية. يشير الشاعر فى هذا البيت والأبيات التالية إلى مبادىء ولسن التى أعلنها حين دخول أمريكا الحرب إلى جانب بريطانيا وحلفائها وكيف تنكر لها بعد انتصار الحلفاء.

عودوا إلى البأس بعد اللين فهو لكم ... قد يفعل البأس ما لاتفعل الخُطَبُ
لا حق للشرق إلاّ فى معاقله ... والحق منقلب فى الغرب مغترب
هل يملك الحكم فى (لوزان) خصمُكم ... ودونه فى سوى لوزان مضطرب
ما كان (كرزون) بالموفى لأمته ... ودون ما يبتغيه الهول والنّوَب

إلى أن قال:

إنى لأشفق من يوم على دُولٍ ... يقضى الحديدُ عليها فيه واللهب
ممالكَ الشرق والإسلام تذكرةً ... فالشرقَ أسوان والإسلام ينتحب
أين الأمانة والميناق بينكم ... والبيت منتهبٌ و (القدس) مغتصب
مجد الرجال على مقدار ما بذلوا ... من الدم الحرّ لاالدمع الذى سكبوا
ذودوا عن الوطن الغالى وعن شرف ... بَذْلُ النفوسِ له بعض الذى يجب
ومن أراد حياة العز طيبة ... فالأرض تحمله حرا أوالشُّهُب

***

ياوافدَ الشرق جوّابا بلا سند ... فى الغرب ينتظر العقبى ويرتقب
مصير كل قبيل بعد جولته ... ما خطَّه فى فروق الفتية النجب
فصل الخطاب لهم بعد القضاء غدًا ... فى سائر الأمر جدّ القوم أولعبوا
أين السلام وأين العاملون له؟ ... وأنه أمل الأبرار والأرب
كل يمد وراء الغيب غايته ... وليس يعلم ما يأتى به رجب

يتندر على عيد ١٥ مارس سنة ١٩٢٢

قال من قصيدة له فى مارس سنة ١٩٢٣ يتندر على عيد الاستقلال الذى جعلوا تاريخه يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ حيث أعلن الملك فؤاد استقلال مصر على أثر صدور تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢:

ياعيد الاستقلال أنـ ... ـتَ له خيال أم حقيقْه؟
للعِتِقِ أم للرقّ ما ... خطُّوه فى تلك الوثيقْه
أ بمهرجانٍ تحتفى الـ ... ـظمأى وتحتفل الغريقة؟

وتنـال مصـر مـرامهـا | من بعد ماسدوا طريقه[١]
يـتـكـلفـون[٢] الـصـالحـ | ـات لها وتأباها السليقه
إن أطلقوا أمس البـلا | د فمنهم ليست طليقه
وحديقة أضْحَتْ ولـ | ـكن للغريب جنى الحديقة
وإن استبدَّ بنيلها | قَتَلَ الشقيقة بالشقيقه[٣]

* * *

وأحـرَّ أكبـادٍ إلى | حـرِّية الوادى مشوقه
هـذا زكىُّ دَمِى لها | أجد الرضا فى أن أريقَه

* * *

أتخاذلُ زعماء مصـ | ـر أمام هاوية عميقة؟
أى العقاب أحق بـالـ | ـرجل الذى يؤذى رفيقه؟
عاد الغريمُ لمصر يعـ | ـبس بعد خدعته الدقيقه
فإن افترقتم عنده | كنتم جميعكم فَريقَهْ

يحذر من نوايا الإنجليز ويدعو النواب إلى أداء واجباتهم

وقال من قصيدة له يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ وهو اليوم الذى اجتمع فيه البرلمان الأول وكان سعد زغلول يتولى رآسة وزارة الأغلبية.

سلاما على حصنكم والعَلَم | ورعْيًا لندوتكم فى الأمَمْ
سلاما على ذلك الملتقى | سلاما على ذلك المزْدَحم

إلى أن قال:

أمانة مستوثق معلنٍ | لكم من سرائره ما كَتَمْ
وهذا غريُمكم[٤] الملتوى | تجمل بعد الأذى واحتشم

---

(١) يشير إلى الإنجليز الذين وضعوا العقبات أمام مصر فى جهادها لتحقيق أهدافها.
(٢) الإشارة هنا أيضًا إلى الانجليز.
(٣) مصر والسودان.
(٤) يقصد الاحتلال.

تـولّى بغـايـاتـه عـابسًـا وعـاودهـا فـاتنـا فـابتسمْ
إلى أجـل أم إلى منتهـى مـراميـه يلزمكم مـا التـزم
وهل ينجلى الأفق أم يـرتمى بعـاصفـة بعـد هـذا النَّسَمْ
ولو كان يعـرف عُقْبى النزا ع فى الحق من زمن لا نحسم

وقال يدعو إلى التآخى وصفاء القلوب بين المواطنين:

ولـيس يقـالُ فـريـقٌ هَـفـا ولـيس يـقـال فـريـق ظَـلَمْ
يضيـع عـلى مصـر هـذا النعيـ ـم إن لم يكن كـل بيت أجـم
ومـا أنـا بـالآمن المـطمئنّ إلى المستعـد الـذى لم ينـم[1]
أعـد المَـرابَطَ فى المسلكـين ومـن مَلَك المسلكـين اقـتحـم
وهـل يتـرك الـذئبُ عـاداتـه وإن لَبَسَ الـذئب ثـوب الغنم؟

* * *

وداهيـة مـرجـف بـالـذى تـعـدّى بـه غيـره فـانهزم
وليس الـذى قـالـه حجـةً فقـد أَلِفَ النـاس هـذا النَّغَم
وهـل يستطيع اغتصاب الـرقا ب مَن بمِراس النفوس اصطدم
ومـا صنعت بـالمُغـير القـلا ع صُنْـعَ إبـائكم والشـمـمْ
وحَسْبُـكم شـملكم عُـدّةً وحـسبـكم صبـركم معـتصم
ومـا أحسن العفـو من قـادر إذا مـا اشتهى حـاقـدٌ وانتقم
سيجلو عن الأرض جَبّـارُهَـا ويلبث فـيهـا كـريـمُ الشِّيَمْ
ولا دولـة لسـوى المصلحـين ولامُـلْك لأهـل الهـمـم

عيوب الحزبية

وقال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له حين اشتد التناحر بين الأحزاب، يدعو إلى نبذ الخصام:

وقـفت ومـا أدرى أَعُـدَّ حـوادثًـا تـدور أمـامـى أم أعـدّ ذنـوبـا
تحملت عن قـومى نصيبًـا من الأسى ولم أرجُ من أجـر الجهـاد نـصيبـا

---

(١) يريد الانجليز.

وأمعنت فى غيب المقادير علَّنى ... أرى فرجا للأمتين قريبا
وليس بمغْنٍ أمة خصبُ أرضها ... إذا لم يكن خلق الرجال خصيبا

* * *

تنازع قومى اليوم جندًا وقادة ... فلم أر إلا سالبا وسليبا
مبادىء أحزاب أرى أم منافعا ... توالت صنوفا بينهم وضروبا؟
تقضت حروب العالمين ولم أزل ... أرى بين أبناء البلاد حروبا
بقومى على قومى استعان غريبهم ... فصال شمالا واستطال جنوبا
فمن لهم بالمنقذ الأمر حازما ... إذا لم يطيعوا نافذا وحسيبا
يردهم بعد القطيعة والنوى ... رفاقا كما يلقى العليل طبيبا

قريتى

قصيدة نظمها بهذا العنوان سنة ١٩٣٦، يصور فيها حياته فى بلدته (القرشية) ويؤثرها على حياة المدن، قال:

جمعت فى العيد حولى سائر الآل ... وملتقى الآل حولى كلُّ آمالى
أبًا دَعوْنى وما لى فيهم ولد ... ولست للقوم غير العمّ والخال
كأننى وهم فى الدار مطلع ... منهم على أمم شتى وأجيال

إلى أن قال فى إيثاره الإقامة فى الريف:

أقمت فى الريف لا أشقى بطاغية ... من الرجال ولا لاهٍ وختَّال
وعشت بالرطب من بقل وفاكهة ... فيما ملكت وماء فيه سلسال
أطلت فيها اعتزال العالمين ولى ... بكل ناحية همى وأشغالى
لقيت فى عِشْرة الجهال عاطفةً ... لم ألقاها من رجال غير جهال

يحذر قومه من مفاوضات سنة ١٩٣٦

وعرج فى هذه القصيدة بالمفاوضات التى كانت جارية وقتئذ بين مصر وبريطانيا وأسفرت عن معاهدة سنة ١٩٣٦، فحذر قومه من مغبة هذه المفاوضات، قال:

ولم أزل بينهم للخصم متَّقيا ... دخائلا هى فى ذهنى وفى بالى

أخشى علـى رسلهم نيـاتـه وهم — مـنـه أمـام جـلاميـد وأدغـال
ومـا تـزال كـما كـانت سيـاستـهُ — يـدور فـيهـا بـأشكـال وألـوان
ومـوضـع النـد أرجـو عنـده لهم — لا مـوضـع الصيـد من أنيـاب رئبـال
وقـد يكـون لهم من ضيقهـم فـرجٌ — كـما تُـدَافـع أهـوالُ بـأهـوال

وظل الكاشف فى قريته وعزلته، وفيًّا لشعره ومبادئه، إلى أن أدركته الوفاة فى ٢٩ مايو سنة ١٩٤٨.

* * *

محمد عبد المطلب

١٨٧٠ - ١٩٣١



هو الشاعر البدوى البليغ، والمجاهد الوطنى الصميم، محمد عبد المطلب، ولد سنة ١٨٧٠ ببلدة (باصونه) من قرى مديرية جرجا لأبوين عربيين مصريين من سلالة قبيلة جهينة إحدى قبائل جزيرة العرب، وكان والده رجلا صالحا متفقها، فأرسل ابنه إلى الأزهر وتلقى فيه العلم نحو سبع سنين، ثم انتقل إلى (دار العلوم) ومكث بها أربع سنوات، وتخرج منها عالما أديبا، وتولى التدريس فى مدارس الحكومة، واختير مدرسًا بمدرسة (القضاء الشرعى)، ثم مدرسًا فى (دار العلوم)، ونضج علمه، واكتمل شعره وأدبه، فصار من فطاحل الشعراء الذين يشار إليهم بالبنان، ولما شبت ثورة سنة ١٩١٩ ساهم فيها بشعره وأدبه وجهاده، وخلّد حوادثها بقصائده الغر، وكان حجة فى الأدب واللغة، وشعره يجمع بين البلاغة والجزالة وروعة الأسلوب، وبلغ فى مكانته الشعرية منزلة فطاحل الشعراء المتقدمين، وكانت الروح الوطنية الدفاقة تتجلى فى معظم أشعاره وقصائده؛ وله فى هذه الناحية إنتاج ضخم يصلح فى ذاته أن يكون ديوانا مجتمعا من الشعر الوطنى؛ وقد ظل على إنتاجه الشعرى إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٩٣١.

روحه الوطنية

إن أحسن وصف لروحه الوطنية ومساهمته فى الجهاد وخاصة فى ثورة سنة ١٩١٩ ما قاله فى رثائه صديقه وزميله الشاعر محمد الهراوى إذ يقول عن (جهاده الوطنى):

فذاك وإن جَدّت خطوبٌ وأجْلَبَتْ ... فإنك للْجُلَّى وللحادث الجِدِّ

تخاطر والجند المدجّج محدق ... وتمضى وصوت (الموزريّات) كالرعد

فتبكى وتستبكى العيون على الحِمْى ... وتعدو على العادى عليه وتستعدى

وتخطب حتى تستثير وتنثنى ... وقد حَمِيَتْ آنافُ قومك من وَقْد

وما هالك الجندُ الذى كان محدقا ... ونفسك من فرط الحمية فى جُند
نزلت عن النفس الكريمة فديةً ... إلى الوطن العانى، كذلك مَنْ يفدى

مصر أثناء الحرب العالمية الأولى
١٩١٤ - ١٩١٨

قال من قصيدة له يصف ما عانته مصر أثناء الحرب العالمية الأولى، وينعى على الإنجليز بغيهم وعدوانهم وإعلانهم الحماية فى ديسمبر سنة ١٩١٤، ويندد بفظائع السلطة العسكرية البريطانية فى سنى الحرب:

وعادت رياض النيل نارًا جحيمُها ... يُشَبّ لغير الخائن المتملق
فكم سيدٍ بين الغيابات حتفُه ... وآخر بالأصفاد والسوط مرهق[1]
ترى أدمع النعمى بناعم جسمه ... نجيَع دم من جلده المتمزق
يقضى الليالى بين ظلم وظلمة ... طريدَ الكرى فيجوف أغبرَ مطبق
وتمسى نَجِىّ الحزن جارةُ بيته ... سوادَ الدجى بالمدمع المترقرق
وفى حجرها لو أبصروا ذو تمائم ... يكلِّمها بالعين من غير منطِق
إذا فزعت فى الخدر من هول ما ترى ... فلا راحمًا تلقى ولا عطف مشفق
ودارةِ عزٍّ أوحشت من أنيسها ... وما كان فيها من جلال ورونق
تحمَّل أهلوها على غير موعد ... وبانوا على حكم الزمان المفرِّق
ينادى لسان الحال من شرُفاتها ... «قفوا ودِّعونا قبل وشْك التفرّق»
ولم يُنْسها التوديع موقف شامت ... يقلب فى الغادين أجفان مُحْنَق
وما ملَّهم فيها ثواءٌ وإنما ... نَجَتوْا بالنوى من ظُلْم أرعنَ أحمق
يناديه فينا قائدَ الجيش[2] قومُه ... وما قادهم إلا إلى شر مأزق
تعسف بالأحكام غيرَ موفق ... وما ظالم فى حكمه بموفق
فكم ساقَ من مصر إلى الموت فتيةً ... زهاها الصِّبا فى عنفوان وريِّق[3]
جموعٌ كآجال النعام تلفها ... يدُ القمر للآجال من كل منعق[4]

---

(١) يريد بالغيابات السجون والمنفى.
(٢) يريد قائد جيش الاحتلال.
(٣) الريق: أول الشباب.
(٤) آجال أى القطيع والمنعق من نعق الراعى غنمة إذا زجرها.

لـه عُـصَب فى غـورهـا وصعيـدهـا تخـيرُ أبنـاء الشـبـاب وتـنـتقـى[(١)]
فـفى كـلّ إقـليم حُجـولُ مُقَـيِّـدٍ لغـير عَـصِىٍّ أو حـبـالُ مُـرَبِّـق[(٢)]
وفى كـل وادٍ منهـمُ سـوطُ مُـعجـل يهـدّد بـالـتـنكيـل كـل مـعـوِّق
ومن لم يَسقُـهُ السوط والسيف سـاقـه إلى حيث شـاءوا جهـدُ عيش مـرمِّق[(٣)]

يوم إعلان الحماية

وقال عن إعلان الحماية فى ديسمبر سنة ١٩١٤:

بـلاءٌ عـلى القـطرين أغـطش ليله ضحى يوم نحس بالخطوب مؤوَّق[(٤)]
دَجَتْ يوم إعلان (الحماية) شمسُـه فيالك من يوم على مصر أورق[(٥)]
بـه لَقِحَتْ سـود الليـالى فليتـه قضى فى بـطون الغيب لم يتخلَّق
قضينـا بـه يـوم المدلَّـه بـالأسى وبتنـا عـلى ليـل السليم المؤرَّق[(٦)]
عَشيةَ يدعـو «مكسويـل[(٧)]» سَرَاتهـا لعيـدين يـوم الجمع يـوم التفـرق
يُبوِّئُ عرشَ النيَل من شاء جانفًا[(٨)] فننشُـده والخطب بـالخطب يلتقى
«رويـدكِ حتى تنظرى عمَّ تنجـلى غيـابـة هـذا العـارض المتـألق»
فمن دون عرش النيل كلُّ مدرّب كمىٍّ متى يُرعِد لـه الهول يُبـرِق
بصير بأسبـاب الردى غَـرْب سيفه لبـوس المنـايـا بـين هـام ومفـرق
ثَـوتْ نفسه من بـأسه فى مِجَنَّةٍ[(٩)] متى يدْنُ منها طـائفُ الموت يُصعَق

نقض العهود والمواثيق

وقال يهاجم الإنجليز وينعى عليهم نقضهم للعهود والمواثيق:

فسائلْ بنا أُعلاجَ «لندن» هل وفَوْا بعهـدٍ لنـا بـين الأنـام ومَـوْثِق

---

(١) يريد بالغور الوجه البحرى ونخير أى نتخير.
(٢) الحجول القيود، وربق أى شد.
(٣) المرمق من يشبع جوعا ويمسك رمقا.
(٤) أغطش ليله أظلمه ومؤوق اسم مفعول فعله أوق. يقال أوقه أى حمله المشقة.
(٥) الأورق الذى لونه إلى الرماد. يريد أنه مغبر بالخطوب.
(٦) المدله: الذاهل.
(٧) الجنرال مكسويل قائد القوات البريطانية حين إعلان الحماية.
(٨) جانفا أى ظالمًا.
(٩) المجنة: الترس

لدى فتنة لم يغن عن مصر عندها حمية حام أو تقيَّة متقى
جرت عَمَمًا لم تبق أرضًا أمينةً ولا بلدًا بنَّاؤها لم يحرّق
ثلاثين عامًا لا ترى مصرُ منهمُ سوى صَلَف المستكبر المتعزّق[١]
ثلاثين عامًا لم تَشِم برقَ راحة ولا طيب مخضرّ من العيش غَيْدق[٢]
ثلاثين عامًا بين يأس وحسرة وهول زمان بالحوادث مِتأَق[٣]
إذا ودَّعت (عامًا) من الجور أبقعًا تفئ إلى عام من البؤس أبلق
ثلاثين عامًا بالهوان تسومها سفاهةُ غارٍ فى المكايد مغرق
يرى نفسه فوق القوانين بيننا متى ما نذكِّره القوانينَ يحنق
يبيح غدًا ما حرَّم اليوم بالهوى لغير الهوى فى حكمه لم يوفَّق
إلاهة جبَّار وإمرة خاطل وتدبير أعمى فى الحكومة أحمق
إذا ما شكوناهم عميدًا فأمرنا لأَعلم منه بالنكاية أحذق
يقرب خوَّانا ويرفع جاهلا ويُسعد أشقاها ويَشْقَى به التقَّى
إذا ما مضى هذا أتى ذاك بعده على النهج لم يعدل ولم يترفق

إفساد التعليم

وقال يذكر إفساد التعليم والدور المشئوم الذى قام به دنلوب فى هذا الصدد:

وبالعلم سَلْ «دنلوبهم[٤]» لم لم يدع ذَوَاقًا من العرفان للمتذوّق
هو الجهل فينا حشدته لحكمة يدُ الله تنكيلا بشعب مدوق[٥]
رمتنا به حمى أصابت بلاده تطاير عنها كل فَدْم حَبْلَّق[٦]
فحلَّ بنا فيمن تمرّق منهمُ فيا عجبًا للسارب المتمرق
ولو وزنوا فى غير مصر مقامه لأرخصه فى السوم كل مْدَنِّق
فأصبح داءً فى المعارف قاتلا يسدد فيها كل سهم مفَوَّق

---

(١) المتعزق: العسر الخلق.
(٢) الغيدق: الرخص الناعم.
(٣) متأق أى مملوء.
(٤) المستر دنلوب وكان سكرتيرا عاما ثم مستشارا لوزارة المعارف والمسئول الأول عن انحطاط التعليم فى عهد الاحتلال.
(٥) المدوق: المهزول.
(٦) الفدم: الأحمق، والحبلق: الصغير القصير.

فواها على تلك العقول التى ثَوَتْ بكفَّيه فى لحدٍ من الجهل ضيِّق
ثلاثين عامًا يسكُبُ النيلُ حسرةً على العلم دمعَ الواله المتشوِّق
وما وردوا من عذبه غير لامع من الآل فى بيدائها مُتَريِّق
ولولاه كانت مصر بالعلم روضة تلألأ بالأنوار للمتأنّق
أ «دنلوب» ما تلك المبانى رفيعةً متى ما تسامق هامُها النجم تَسمْقُ
وما العلم أن يعلو رتاجٌ وقُبة على فدُن بالأرجوان مزوَّق
أ «دنلوب» هل أرضيتَ قومك غايةً أم العَيرْ[1] إن يُبعد به الشّوط ينفُق

ثورة سنة ١٩١٩

وله قصائد غراء فى ثورة سنة ١٩١٩ أرخ فيها جهاد المصريين والمصريات وفظائع الإنجليز فى قمع الثورة.

حضارة مصر ومجدها

قال من قصيدة له أنشدها سنة ١٩١٩ فى الاحتفال بعيد النيروز يشيد بحضارة مصر ومجدها وفضلها على العالم:

فلا. يا ابنةَ البيتِ الذى عند بابه تخرِّ ملوك العالمين إذا مَرّوا
رويدَكِ إنّا فى العُلا يوم نَنْتمى كلانا أبوه النيلُ أو أمه مصر
لنا ذِرْوة المجدِ الذى تحت ظلّه تناسلتِ الأحقاب واعتمل الدهر
لنا آية الأهرام يتلو قديمَها حديثُ الليالى فهى فى فمها ذكْرُ
ملأنا بها لوحَ الوجود مَتاقبًا إذا ما خلا عصرٌ تلاه بها عصر
وللعلم من آثارنا فى جبالنا على الدقر آياتٌ بها ينطق الصخر
وللْمُلك منا كلُّ أروع نظّمت على تاجه الأفلاكُ والأنجم الزهر
ومنّا الذى ساق الأساطيل شُرَّعا على البحر يستحيى لصولتها البحر
إذا جهلوا «مينا» و «خوفو» و «كفرعا» فليس «برمسيس» على ملكه نُكر
وإن أنكروا مُلْكَ «ابن يعقوب» بيننا «فموسى» على ما أنكروا شاهدٌ برّ

---

(١) العير: الحمار، وينفق: يهلك ويموت.

لنا كلّ ما فى الأرض من مدنية ... بها تعمرُ الأمصار والبلد القَفْر

* * *

جزى الله مصرًا ما جزى أهلَ نعمةٍ ... على الناس يَعْيا دونها العَدُّ والحَصْر
فكم كشفتْ من ظلمةٍ «عين شُمسها» ... فما تَمَّ سهلٌ لا يضئُ ولا وَعْر
لنا فى الورى حقُّ المعلِّم لو رَعَوْا ... لنا ذِمَّةً والدهر شيمتُه الغدر
فهل يُنكر اليونان أنا هُداتهم ... إلى حكمةٍ فى العالمين بها بَرِّوا
وهل نَسِى الرومان للنيل أنعمًا ... بما ورثوا منها سما لهُمُ الفخر
فنحن الأولى قد أورثوا كلَّ أمةٍ ... من الفضل ما يُغنى به الحمد والشكر
إذا اعتزّ قومٌ بالجديد سمتْ بنا ... مكارمُ فى طيّ الزمان لها نَشْر

الوحدة بين العنصرين

وقال يشيد بالوحدة بين عنصرى الأمة:

بنينا على آداب عيسى وأحمدٍ ... منازلَ عزٍّ دونها يَقع النَّسر
فنحن على الإنجيل والذِّكر أمة ... يؤيِّدها الأنجيلُ بالحقّ والذكرُ
لنا كل ما فى مصرَ والحقُّ قائمٌ ... تؤيده الآيات والحجج الغرّ
فلن يستطيع الدهر تفريقَ بَيْننا ... وان جرّ قوم بالسِّعاية ما جرُّوا
كلانا على دينٍ به هو مؤمن ... ولكنَّ خِذلان البلاد هو الكفر
إذا ما دعتْ مصر ابنَها نهض ابنُها ... لنجدتها سيَّان مرقس أو عمرو
ترى ذكرَ مصرٍ فى الهياكل قُربةً ... وفى صلوات المسلمين لها ذِكر
فلا يحسبنّ للناس أنّا تزلزلتْ ... بنا قَدَمٌ أو مَسَّ وَحدتنا الضرّ
ألَمْ ترنا فى كلّ عيد ومَوْسم ... حليفَىْ ولاءٍ لاجفاءٌ ولا هجر
إذا كان عيد الفطر فالكل مُفْطِر ... يهلِّل بالبشرى ويزهو به البِشر
وإن جاء بالنيروز يومٌ تزاحمت ... عليهمْ به الأفراحُ وانتعش القطر
فياعيدَ أهلِ النيلِ عِدْ أهلك المنى ... تجلَّى منارُ الحق وانبلج الفجر
وصافحْ بشعبَيْك السعادةَ مُقبلًا ... بمصر على الأفراح وليَقل الشعر:
تلاقت أمانينا على خيرِ غايةٍ ... وسارت بنا الآمال يقدمُها النصر

ثورة الأمة سنة ١٩١٩

ومن قصيدة أخرى أنشدها فى حفلة لعقائل السيدات فى مسرح برنتانيا سنة ١٩١٩:

مصرُ أُمِّي، فداء أمي حياتى ... سلمتْ أُمُّنا من العاديات[1]
يا رياح الحياة فى مصرَ هُبّى ... روِّحينا بطِيب ريّا الحياة
يا سماءَ الحياة فى مصر جودِى ... أنفُسًا فوق نيلها صاديات[2]
ما لأمّ الأمصار حمّلها الدهـ ... ـر صنوف الآلام والمُوجِعات؟
ما رعى ذمةً لها يوم كانت ... زينةً فى عصوره الخاليات
إن تناستْ قديمَ مصرَ ليالٍ ... أنكرت صالحاتها الباقيات
فاسألوهن عن حديثٍ حديثٍ ... لبنيها عَدُّوه فى المعجزات
دَهِش الناس يومَ قيل صحتْ مصـ ... ـرُ وكانت فى غَفْلة وسبُات
إذ لَقينا الخطوبَ وهى شدادٌ ... فتولّت جموعهُا مُدْبِرات
وركبنا متنَ الزمان ذَلولا ... فمضيْنا لغاية الغايات
بين ش٣يب بالحزم تحدو شبابا ... صادقى العزم ثاقبى النظرات

دور المرأة فى الثورة

وقال يشيد بدور المرأة فى الثورة:

وغَوانٍ سمعن دَاعىَ مِصرٍ ... بين تلك القصور والغرفات
أفزعتهنّ حادثات الليالى ... فى بنيهنّ بالرّدى راميات
فترامْينَ من وراء خدور ... كنّ فيها البدورَ مختدرات[3]
سافراتٍ ولسنَ أهلَ سفور ... حاسراتٍ من شِدّة الحسَرات
وكتبن الوفاءَ للنيل عهدا ... فى قلوب بحبّه داميات
وتواصين لا يضيِّعن دِينا ... أو يعطِّلن سنُةّ المؤمنات
إيهِ. لله سعيُكنَّ جميلا ... يا بناتِ الأنجاب والمنجِبات

---

(١) العاديات: الأحداث والنوائب.

(٢) صاديات: عطشى.

(٣) مختدرات: مستترات فى خدورهن.

ظلموا النيل يوم عدّوا بنات النـ ـيـل جهلا فى زُمرة الجاهلات
زعمـوهن بـالحجـاب عن العـ ـلم ونـور العِرفـان محتجبات
بنتُ مصر كالشمس يحجبها الليـ ـل وراء الآفـاق والـظلمـات
وهى فى أُفْقهـا ضيـاءٌ ونـور سـاطـع فى بـدورهـا النيّـرات
أوْ هى المسك ينفُذ العَرف عنه مـن وراء الأستـار والحجُـرات
عـرفتْ كيف يكبُر المرء طفـلا كيف يقفـو أبـاه فى المكـرُمـات
أبصـرت منبِتَ المحـامـد فيـه فتـولّتْـه بـالتُّقـى والأنَـاة
وغـذّتْه المجـدَ الـذى ورِثتـه عـن كـرام الآبـاء والأمهـات
يـا ابنة النيـل أنتِ للنيل ذخـر خـالـد فى آثـاره الخـالـدات

وثبة مصر

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٠ يصف وثبة مصر:

تكلّم وادى النيل فليسمع الدهرُ وأملَى على الأيام فليكتب الشِّعْرُ!
فحسبُ العوادى نَهْمَةُ النيل زاجرًا وحسبُ الليالى أن يُقال صحتْ مصر[١]
صحتْ بعد ما أزرَى بها الصبرُ والأنى[٢] ويـا ربما أزرى بصـاحبـه الصبر
لعَمـرك مـا صـبرُ الأبىّ مهـانـةً ولكنّ صمت الليث يعقبـه الزأر
فلا تحسبوا أنّـا وَنَيْنا عن العـلا ولا زَهِـدتْ فينـا منـاقبنـا الغـرّ
ولا أنكرتنا شمسُ جيل ولا انطوى لنـا عَلَم بين الـدهـور ولا ذكـر
وفى الناس من شابت قرون «وأعصر» وهُمْ فى بطون الغيب عرفانُهم نكرُ
وهـل مـصـرُ إلا آيـة أزليـةٌ مقدّسةَ والنيـلُ فى لوحهـا سطر
تفلّقت الأجيـال حـول وجـودنـا ونحن الجبال الشمّ والزهر النضر
لئن كـان ماضينـا فخارًا فـإنمـا بحـاضرنـا تعلو المحامـدُ والفخـرُ
وَقفنـا لرَيب الـدهر حتى تغلّلتْ مضارُبه وانشقّ عن ليله الفجـر
حـرامٌ علينـا أن نعيش أذِلـةً وذو الذل أولى ما يكون به القبر!

* * *

(١) النهمة: الصوت.

(٢) الأنى: الأناة.

فظائع الإنجليز فى قمع الثورة

وقال حين اشتد عدوان الإنجليز فى قمع الثورة سنة ١٩١٩ وفتكوا فى طريقهم ببعض القرى كالعزيزية والبدرشين:

يا مصرُ ما بال الأسى لك حالا ... لو أنَّ مفجوعا يردّ سؤالا
ظلم الزمانُ بَنيَّ فى أحداثه ... وعدا عليهم بالخطوبِ وَصَالاَ
يا ناشرى عَلَم السلام، ألم ترَوْا ... للِّسلم فى أرجاء مصر مجالا؟
ما العدل؟ ما حريةُ الأمم التى ... سارت رسائلكم بها أرسالا؟
ما عهد (وِلْسُن)[1] أين ولسن هلْ درى ... أنّا بمصر نكابد الأهوالا؟
أمِنَ العدالة عنده أن يُبتلى ... شعبٌ يريد بأرضه استقلالا؟
سفراءَ (ولسن) هل لكم أن تُبلغوا ... عن مصرَ صوتًا بالشَّكاة تَعالى؟
صرخاتُ أهل النيل منْ أحلافكم ... طارَ الزمانُ لوقعها إجفالا؟
أضحت شعوب الأرض فى بُحبوحة ... يتفيئون من السلام ظلالا
وهمُ أحق العالمين بورْده ... صفوًا وشربِ رحيقِه سَلْسَالا
لكنهم سِيموا الردى فتواردوا ... شِرَعَ[2] المنايا مُسرعين عجالا
تَعِسوا بحكم الإنجليز وطالما اعـ ... ـتمدوا عليه وخادعوا الآمالا
ما بال أبناء الحضارة أوْغَلُوا ... فى أرض مصر نكايةً ونكالا
وَثبوا على القطرين وَثبةَ قاهر ... هَتك الستورَ ومزَّق الأوصالا
نزلوا بأرض النيل منزلَ غادرٍ ... نصب الخداعَ حَبَائلا وحبِالا
حلفوا لأهل الأرض حِلفة فاجرٍ ... لبِسَ المسوح مُرائيًا محْتالا
أن يبسطوا ظِل الحضارةِ فوقه ... ويعلِّموا من أهله الجهَّالا
حتى إذا ملكوا أزِمَّةَ أمره ... ساموا بَنيه الضيَّمَ والإذْلالا
واستنزفوا ثمراتِ مصرَ كأنما ... خُلِقت لهم ثمراتُها أنْفالا

---

(١) ويلسن: الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية. ويريد بعهده مبادئه المشهورة التى أعلنها عند دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى وأساسها احترام حرية الشعوب واستقلالها.

(٢) شرع، جمع شرعة وهى المورد.

فــإذا بـدَا وجـه الخـداع وأشـرقت ... شمسُ العـدالـة فى الـوَرَى تتـلالا
نَـغـضـوا[١] رءوسـهـمُ لـغَـيْـلة أمـة ... خُـلِقت تعـافُ الغـادرَ المغـتـالا

شجاعة المصريات فى الثورة

وقال فى هذه القصيدة يصف شجاعة النساء المصريات فى مقاومة الإنجليز:

تلك العقـائـل يـرتمـين مـع الـظُّبـا ... مـسـتـقـبـلات لـلردى استـقبـالا
تُغْضى عيـون بنى البـلاد مهـابـةً ... مـن حـولهـن وتـنـحنى إجـلالا
وأرى ابن لنـدن نحـوَهن مصـوِّبـا ... بيضَ الـظُّبـا متـوثبـا مجتـالا
يـابن اللُّكيعـة[٢]إنهن عقـائـل ... يَفْـدِين من فتكـاتـك الأنجـالا
يـابن اللكـعيـة إنهن عـقـائـل ... يسـألْن حـقـا لا يـرُدْن قتـالا
يـابن اللكيعـة مـا حملن صـوارمـا ... لـبنى أبـيـك ولا دعـون نِـزَالا
أبنـاؤهن إذا الأصـول تقـارعت ... كـانـوا الكـرامَ وكنتمُ الأنـذالا
يـا بن اللكيعة تلك سُبَّتـك التى ... صـدع المقـطَم خـزيُهـا فـأمـالا
وارحمتـاه لقـريـة مـفجـوعـة ... والليـلُ يُـرخى فـوقهـا أسـدالا
محـزونـة خَبَـأ القضـاءُ لأهلهـا ... تحتَ الـظلام وَقيـعـةً ونَـكـالا
من غـادة غـال البغـاةُ عَفـافهـا ... فبكى الحجـابُ عفـافهـا المُغْتـالا
ومصـونـة فى الخـدرِ طـار بلبِّهـا ... صيحـاتُ كلب فى الحظيـرةِ جَـالا
مـاذا أرى؟ جِنٌّ أحـاط بمضجعى ... أمْ تـلك أحـلامٌ تَمُـرُّ خـيـالا؟
مـا هـذه الجَلَبـاتُ؟ لا أدرى لهـا ... معنى ولـست أعِـى لهُـنّ مـقـالا
أنـا لست نائمـة؟ وهـذى جِنـة[٣] ... تـدنـو كـأعجـازِ النخيـل طِـوالا
ويـلاه! مـا لأبى عَـلِّى نـائـمًا؟ ... والبيتُ من وَقـع الحـوافـر زالا
أعـلىٌّ نـادِ أبـاك، لا، أنـا خـائف ... يـا أُمُّ لا تـتـكـلـمى؟ لا لا لا
هـذى جنـود الإنجليـز رأيتهـا ... (بـالبـدرشـين) تقتِّل الأطفـالا
صاحوا بصَحن البيت صيحةَ فاتكٍ ... عـاتٍ يرى النفسَ الحرامَ حَـلالا
فـإذا مَتَـاع البيتِ يُـنْهَب بينهـم ... وقـد استحلوا نَهْبَـه استحـلالا
ولـرُبَّ دار بـالقنـابـل أصبحت ... قـبـرًا تضـمَّنَّ نـسـوةً وعيـالا

---

(١) نغضوا رءوسهم: حركوها وهزوها.
(٢) اللكيعة: اللئيمة.
(٣) جنة: جن.

وأبٍ تحيط بـه هنـالـك صبيـةٌ ... تبكـى عليـه وتُكـثِر الإعـوالا
ظُلْمًا تَشُول بـه القنابـل فهـو فى ... جـوِّ السماء مع القشاعِم شالا[١]
يـا رَبِّ، إنَّ الإنجليـز تـعمـدوا ... إرهـاق مِصر سفـاهَـة وضـلالا
يا رَب، مصرُ بك استجار ضعيفها ... فى عَبْرَة تُذْرِى الدموعَ سِجالا
فـأَذِق عدوَّك سـوءَ ما مكـروا بـه ... واجعـل عـواقبـه عليـهِ وَبـالا

يخاطب مؤتمر الصلح بباريس سنة ١٩١٩

ومن قصيدة له أنشأها حين اعتقل سعد زغلول لأول مرة فى أوائل سنة ١٩١٩، يذكر الثورة ويعاتب مؤتمر الصلح فى إهماله مطالب مصر :

يـادمـاء الشبـاب تجرى عـلى الأر ... ض جِسـادا[٢]به تـرَى مصر يُـطلى
مـا لبـاريس لاتـرى أهـلَ مصـر ... بـين أهـل السـلام للعـدل أهـلا ؟
كـل شعب لـه بمؤتمـر الصلـ ... ـح نصـير من البعـوث ومـولى
ليت شعـرى فهـل أتـاه كتـابٌ ... أو تَلقى من جـانب النيـل رُسْـلا ؟
أو دَرَى أننـا نُـراد اختـلاسـا ... فى بيـاض النهـار والشمس تُجلى
سفـراءَ الملوك، ضجـة مصـر ... حـولكم من زمازم[٣]الـرعـد أعلى
كـم رفعنـا إليـكُم فى شكـاةٍ ... حُجَّـة كـالصبـاح أو هى أجلى
وسـألـنـاكُم البـلاغَ فلم نسمـ ... ـع جـوابًا يَـردّ فى الغِمد نصـلا
إنَّ لـلنـيـل ذمـةً وعـهـودًا ... هىَ دَيـنٌ عـليكُـم لـيس يَبْـلى
لـو حقَنْتم تـلك الـدمـاء اللواتى ... أهـرقتهـا بنـادق القـوم سَيْـلا
كـان سهـلا عليكُم أن تصـونـوا ... أنفسًـا وردُهـا الـردى كـان سهـلا

يندد بفظائع الإنجليز فى إخماد الثورة

وقال فى هذه القصيدة موجها حديثه إلى المارشال أللنبى الذى عهدت إليه بريطانيا قمع الثورة :

---

(١) تشول. تعلو، والقشاعم: النسور.
(٢) الجساد (بالكسر): الزعفران.
(٣) الزمازم، جمع زمزمة، وهى الصوت البعيد المدوى.

أيها القائدُ المُدِلّ علينا ... قاتلَ الله مَن علينا أدلَّ
صَلَفٌ بين أهل مصرَ وعُجْبٌ ... كان هذا بأرض (بلجيك)[1] أولى
صَلَف جدَّ فى مواطن هزل ... فإذا جد جِدّها عاد هزلا
علم الناس أن مصرَ بلادٌ ... لم تكن للحروب والسيف قبلا
منعتها الأيامُ حَمل المواضى[2] ... وهى زَيْنُ السيوف هزًا وحملا
فَلِمَ الكبرياء بين أناس ... تركتهم حوادث الدهر عُزلا؟
أيها القائد الذى حيَّر السيـ ... ـف بدار الأمان[3] شَيمًا وسلا
عَلِّم الخيل كيف تَختال فى غيـ ... ـر بلاد ولم يُجْر للحرب خَيلا
إنما يَحْمدُ المَخيلةَ[4] يومٌ ... أشرف الموتُ فوقه أو أطلا
ما لمصرٍ تُجْزَى جزاءَ سِنمار ... لديكم وبالدنّية تُبلى
وأراكم لولا بنوها سُقيتم ... من حياض المنون عَلا ونَهلا
سائلوا الشامَ هل بغير بنينا ... جُبتُم الوعرَ من فلسطين سَهْلا
أو مددتم بغير أبناء مصر ... فى بلادِ العراق للفوز حَبْلا
إبْلُ مصر وأتنها[5] تعرف الفضـ ... ـل عليكم، لا تنكر العُجْمُ فضلا
لو درى النيل ما سيلقى بنوه ... حَرَّم الأرضَ غيرةً أن تُغلا

كم ظِفرتم منه بما عجز (التما ... ميز) عنه وناء بالعبء حملا
كلَّ عام تجبى إليكم حبوبٌ ... تفضخ الجاريات وزْنًا وكيلا[6]
وقناطيرُ من نضار يوافيـ ... ـكم بها القطنُ كلَّ عام أهَلَّا
نِعَمٌ لو أردتموهن شكرًا ... ما وفيتم منها القليلَ الأقلَّا
ما جهلتم لمصرَ فيها صنيعًا ... إن تقولوا قد يُنكر الفضلُ جهلا
أنسيتم لمصرَ ما منحتكم ... من هِبات ما جاوزت بعدُ حولا
أم نسيتم أبناءها يفتك المو ... تُ بهم فى الوغى وباءً وقتلا

---

(١) يشير إلى هزيمة الحلفاء أمام الزحف الألمانى فى بلجيكا إبان الحرب العالمية الأولى.
(٢) المواضى: السيوف.
(٣) الشيم: اغماد السيف.
(٤) المخيلة: الكبر.
(٥) الأتن: الحمير؛ والعجم:االبهائم...
(٦) الجاريات: السفن؛ وتفضخها: تسكرها لثقلها وكثرتها.

وختمها بقوله:

معشرَ الإنجليز مصر لأهليـ ـها ومن ظن غير ذلك ضَلّا
معشرَ الإنجليز مصر استقلت وجديرٌ بالنيل أن يستقلا

يخاطب مؤتمر الصلح أيضًا وينادى بالاستمرار فى الكفاح

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩١٩ يخاطب مؤتمر الصلح بباريس، وينذر بالاستمرار فى الكفاح إذا لم تجب مطالب مصر:

أباريسُ إن كانت لضيفٍ كرامة لديك فضيف النيل أبلغُ من يُثني
أباريسُ إن تُدنى العدالةُ وافدًا عليكِ فأهلُ النيل أكرمُ من تدنى
أباريسُ كم للنيل عندك من يد تَناقلها التاريخُ قرْنًا إلى قرن
ومن شُكرها أن تعرفوا حق أهله وألا تَسُوموا (وَفْدَهُ) صفقة الغبن
حرامٌ عليكم أنَ يراق له دم حرامٌ وأنتم قادرون على الحقن
فيا أمراء الغرب دعوة مُسْمع يُصرِّح فى رفع الشكاةِ ولا يكنى
سلوا حِلْفكم عما جرَى فى ديارنا وما جرحوا مما يَشين وما يضنى
وما هذِه الغارات يعلو صريخها مؤججةً، هذى تَرُوعُ وذِى تُفنى
وما هذه الأجسادُ فى كل بلدة مُصرَّعةً فوقَ التراب بلا دَفن
إذا طفح الخزَّان من دم أهله فَثَمَّ دمٌ فى الثغر يُرْبِى على الخَزَن
نَرى الحرب فيما بينكم جفَّ عودها فما بالها فى مصرَ ناضرةَ الغصن؟
على غير ما ذنبٍ جنينا فما لنا نُسَامُ الدنايا لم نحاربْ ولم نَجْنِ
فيا عجبًا شعب يساق بأرضه أسيرًا إلى دار المذلة والسِّجن

* * *

ملوكَ الوَرَى، لن يتركَ النيل حقه ولو مزَّقونا بالمثقفة اللدْن[1]
ملوكَ الوَرَى، لن يتركَ النيل حقه ولو طحنوه بالمقذَّفة الدُّكْن[2]

---

(١) يريد بالمثقفة اللدن الرماح المقومة.

(٢) يريد بالمقذفة الرصاص والقنابل. والدكن: ما تضرب إلى السواد.

ظننا بهم خيرًا من الدهر حِقْبة فكانت قصارانا بهم خيبةُ الظن
صبرنا وأشهدنا الأنام عليهم إلى أن رَمَونا بالمهانَة والجبن
ثلاثين عامًا بعدها سبعة خلت طوال الليالى السود حالكة الدجن
عواصفُ بأس ينشدها النيل تحتها نقمتُ الرضا حتى على ضاحك المُزْن
سَقونا بها مُرًّا من العيش آجنا وياليتهم لم يرهقوا الناس بالمَنّ
فإن تُنصفوا أبناء مصر فمِنّةٌ لكم أبدًا نُثنى عليها بما نثنى
وإلاّ رددناها عليهم كريهة وللدهر شأن لا يُقاس على شأن

رثاؤه لمحمد فريد

ولما جاء نعى الزعيم محمد فريد فى منفاه (نوفمبر سنة ١٩١٩) - وكانت مصر فى إبان الثورة - رثاه بقصيدة مؤثرة تفيض وطنية وبلاغة قال:

سَلُوا جفنَ عينى ما له بات ينزفُ وعهدى به إن سُمْتُه الدمعَ يأنفُ
ويا رُبَّ همٍّ يملك النفسَ بالأسى ويعدو على العين الجمود فتذرف
وما أنا! ما دمعى! وفى مصر أنّه بها الطير نوح والغمائم كُّف[1]
بكين غريبًا طوّح البينُ دارَه فلا العَوْدُ مأمول ولا الدارُ تعرف

* * *

وما أنكرتْ مصرُ ابنها فَنَبتْ به ولكنه دهرٌ على الحر يُجْنِفُ[2]
ثوى غربةً، بعد المعاد قرارُها فيا طول ما يستشرف المُتشوّف
وكنا حسبنا شُقةَ البين تنطوى فيأوى إلى مِربـاعه المُتصيِّف[3]
وأطمعنا فى الملتقى لمعُ بارقٍ من السِّلم فى ليل الحوادث يَخْطف
فلم نر سلمًا ينتهى النأى عندها بناءٍ ولا حتمَ الردى يتخلَّف

* * *

بعينىَ من نادى مناديه للنوى فَودّع لا يأنِى ولا يتوقّف

---

(١) وكف: مرسلات بمائها.
(٢) أجنف: جار وعدا.
(٣) المرباع: المكان ينبت فى الربيع؛ والمتصيف: المصطاف.

يُدافع آلامًا تياسرن قلبَه — لها حُرَقٌ تُدمى القلوب فتنطُف
ففى قلبه مما دهى النيلَ زفرةٌ — يكاد لها من تحته البحر ينشفَ
وفى عينه من لوعة البين عَبرةٌ — يكفكفها كِبرًا فلاتتكفكف
وفى نفسه عُتْبَى على البلد الذى — قسا أهلُه جهلا عليه وأجْنَفو
برمتِ بنا يا مصر لا عن جناية — يُعنىِّ عليها جارم أو يُعنّف
وكيف تناست مصر حسنَ بلائنا — إذ الدهر ألوى والحوادث تَعصِف
مواقفنا يا أمُّ فيك شهودُها — تؤيدنا يوم العتاب وتُنصِف
رويدك نفسًا أنكرت فعل قومها — بذى حَدَب يُقْسى عليه فيرأف
على رغم قومى ما لقيتُ وإنما — هو الدهر فى أحكامه يتعسَّف

***

سلامٌ على قومى، وداعًا بنى أبى — وللنيل ما ألقى وما أتكلف
ويا موقفَ التوديع هل تُسعد المنى — فيجمعنَا يومٌ بمصر وموقف
أخاف المنايا أن يكنّ رواصدًا — ومالىَ من أسبابها أتخوّف
تحدثنى طيرٌ جَرَيْنَ بوارحًا — بأن المطايا بى إلى الموت تزحف
ويحزننى وِرد المنايا ولم تزل — بلادَى تحبو فى الإسار وترسُف
حرامٌ علينا أرضُها وسماؤها — أليَّةَ[1] من لا يمترى حين يَحلف
ويا فُلْكُ باسم الله مجراك أقلعى — فإما الردَّى أو يُنصف النيلَ مُنصفُ
فما كان إلا ن طوى البحر والثرى — وحجّبه سترٌ من الغيب مُسجَف[2]
فدون تلاقِينا ليال وأشهرٌ — وبين ديارينا جبال وصَفْصفُ[3]

***

هنالك ألقى فى بنى الغربِ رحله — على همة من همّها الدهرُ يَكْلَف
بعيد المرامى لا تهد صفاتَه — عوادٍ إذا صبّت على «الألب»[4] تحْرَف
تقذّفه فى زاخر اليأس همة — جدير بها الليث المصور المقذّف

---

(١) الألية: القسم.
(٢) أسجف الستر: أرسله.
(٣) الصفصف: الفلاة.
(٤) جبال الألب المشهورة.

وهيهات أن يخشى أخو الحق قوةً ... سوى الحق أو يعنو لبأس فيضعُف

ثوى فى بلاد الغرب بالنيل عاتبًا ... وفى الغرب للعانى مَراد ومألف

يصرّف أحداث الليالى غواشيًا ... وأنيابُها من شدة البأس تَصْرِف

فطورًا تراه فى «جنيف» لباسهُ ... على القرّ أسمال به يتلفّف

إذا صَفِرت من ذات دنياه كفُّه ... تجلّد لا يشكو ولا يتأفّف

ويأوى إلى بيت وطىء عمادُه ... وفى مصرَ يبكيه البناء المطنَّف

ويكنفه من فتية النيل أنجمٌ ... بهم نعتلى هامَ الفخار ونَشرف

إذا احتدمت للبأس نارٌ فعْلَمٌ[1] ... على البأس ماضٍ ذو غرارين مُرْهَف

وإن ذُكر المجد القديم فإنما ... بذكرُهم تلهو القِيان وتعزِف

إذا ما انتمى قوم لدُنيا جدودِهم ... نَمَتْهم لعُلياها معدٌّ وخِندف[2]

وإن ذكروا أبناء فرعون رجَّعت ... مناقبَهم وُرْقٌ من الفخر هُتَّف

* * *

فيا مُسمعَ الأحرارِ من كل أمة ... مُنَى قومه والحرّ للحر يُنصف

لقد فجّع «الفسطاطَ» فيك وأهلَه ... من الغرب ناعٍ قام باسمك يهتف

لقد فجعونا فيك يوم تتابعت ... رسائلهم بالموجِعات وأرجفوا

فيا ويح يومٍ قال فيه غريبها ... على فُرُش البلوى ببرلين مُدنَف

بروحىَ إذ جاء الأطباء خُشَّعًا ... وقاموا بأكناف السرير وطوَّفوا

يعلّله بالقول منهم مُبَشّرٌ ... وتبكى له منهم قلوبٌ وترجُف

تجوَّفه الداءُ العضال وهل نجا ... من الموت مُضنىً داؤه يتجوّف

قضى الله أن يُسْقَى «فريد» بأرضنا ... كؤوسا بالاستسقاء للنفس تخطِف

يعز على «برلين» أن يغلب الردى ... عليك بَنيها، والردى ليس يُصرَف

أطباءَه: لو يستطيع فداءَه ... بنو مصر غَالوا فى الفداء وأسرفوا

فليلٌ عليه لو يُفدِّيه قومه ... بما جمعوا من تالدٍ أو تَطَرَّفوا

فليتَ الليالى سالمت فيه أمةً ... براها الأسى من بعده والتلهف

---

(١) العلهم: الضخم العظيم.

(٢) معد وخندف حيان من العرب؛ يريد أن أصولهم عريقة فى النسب والشرف.

عـرفنـا لـه بِـرّ الـوفىّ بعـهـدهـا ... إذا خـان قـومٌ عهـدَ مصر فلم يَفُـوا
أفـاض عليهـا نفسـه بعـد مـالـه ... ومـالَ بهـم عنهـا مـتـاعٌ وزُخـرف
ولـولا رجـال مؤمنـون نَجَـوْا بهـا ... لـراحت بهـا ريـح من الغـدر زَفْـزَف[1]

يندد بالفرقة والانقسام، ويدعو إلى الوحدة

وحين حدث الانشقاق فى الوفد سنة ١٩٢١ وقام الخلاف بين سعد وعدلى وانقسمت الأمة تبعا لذلك، نظم قصيدة يندد فيها بالفرقة والانقسام، ويدعو إلى توحيد الصفوف قال فِيها:

كنـا أشقـاء الإخـاء فـما لنـا ... صِـرْنا بنى العَـلَّات والأخياف[2]؟
بـالأمس كـان إخـاؤنـا مثـلا ... وكـنـا زيـنـة الخـلطاء والأُلَّاف
كنّـا إمـامَ المَشـرقـين، سبيلُنـا ... قَصْـدٌ ومشْـرعنـا نمـيرٌ صـافى
يتـرسمون عـلى الحياة طـريقنا ... لـلحق فى الإيـضـاع والإيجـاف
فـإذا بنا جـارت هَـوَادى رَكْبنـا ... عـن منهـج الآبـاء والأسـلاف
عَبثتْ بوحدتنـا الخطوبُ وأعلمت ... فى غَـرْس أيدينـا يـدُ الإتـلاف
والخصم يجـل بيننـا للشـر فى ... ثـوبـين ثـوب مُـوافق ومنـافى
مُتنمّـر يُغـرى العـداوة بيننـا ... بـالـكيـد والـتفـريـق والإرجـاف
أوَ ليس فيما قد مضى من عِبْرة ... لـبنى أبى، والأمْـرُ لـيس بخـافى؟
أوَ لم يَرَوْا أو يسمعوا نُذُرَ الردى ... تَـطْوى إلينا لُجـةَّ الـرَّجَّـاف[3]
هـذى تُلوِّح بالـوعيد وتلك تـر ... مينـا بـه فى لهجـة الأجـلاف[4]
جعلوا صحـافتهم مظاهـرَ كيـدهم ... فتـزاورت جنفًـا عن الإنصـاف
صحف يضيـع الحق فى ألـوانها ... صـورًا يزبـد بهـا عـلى الآلاف
الحق فيهـا كل مـا شاء الهـوى ... حُـكْمٌ تـؤيـده بـلا استئنـاف
فليعتبر قومى كفى ما قد جرى ... من ذات خلف بـينـنـا وتنـافى
لا تُوجعِوا تلك القلوبَ فحسبهـا ... جـام أصاب من الـزمان الجـافى

---

(١) زفزف: شديدة الهبوب فى دوام.
(٢) العلات: جمع علة، وهى الضرة. والأخياف: الذين أمهم واحدة وآباؤهم شتى.
(٣) الرجاف: البحر؛ سمى به لاضطرابه.
(٤) الأجلاف: جمع جلف؛ وهو الرجل الجافى.

عشر كواملُ فى الخلاف فهل بها ... من ذلك الداء المبرّح شافى

شربت من الأيام كل مرنّقٍ ... من كل مر بالخطوب زُعاف

أبنى أبى، ردوا القلوب إلى الهدى ... وتنبهوا فالدهر ليس بغافى

الوفد منا والحكومة بعضنا ... هذا أخو هذا بغير خلاف

والشر غايته البوار ومن أبى ... فالله للشعب المروَّع كافى

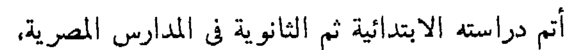
* * *

أحمد زكى أبو شادى

ولد سنة ١٨٩٢

هو الشاعر المجدد، والأديب الحر المفكر، الدكتور أحمد زكى أبو شادى.

ولد سنة ١٨٩٢ بالقاهرة، من أسرة عريقة فى الوطنية، وأبوه المرحوم محمد أبو شادى أحد كبار المحامين الذين نالوا المكانة الرفيعة فى عالم المحاماة وممن جاهدوا فى الحركة الوطنية، ووالدته السيدة أمينة نجيب من السيدات الأديبات الشاعرات، وكان أخوها المرحوم مصطفى نجيب[١] أديبًا وطنيًا وصديقًا ونصيرًا للمرحوم مصطفى كامل.



أتم دراسته الابتدائية ثم الثانوية فى المدارس المصرية، وظهرت مواهبه الشعرية والأدبية فى هذه المرحلة من الدراسة، وكان من تلاميذ مصطفى كامل فى الوطنية، ودخل كلية الطب بالقاهرة، ولم تصرفه الدراسات الطبية والعلمية عن الاستمرار فى دراساته الأدبية، فأحب الشعر وتذوقه، وأقبل على نظمه وهو فى هذه السن المبكرة، وشعره رقيق ممتع، يمجد الوطنية وينزع إلى الحرية والتجديد والخروج على الأساليب القديمة، واحتفظ بهذا الطابع على تعاقب السنين، وأكمل دراسته الطبية فى انجلترا، وتعمق فى الآداب الإنجليزية إلى جانب دراسته من قبل للآداب العربية، وازداد تعلقًا بالتجديد فى الأدب والشعر، ولما عاد إلى مصر تنقل فى مناصب الحكومة وصار أستاذًا للبكترولوجيا بكلية الطب بجامعة الإسكندرية ومديرًا للمعمل البكترولوجى بالمستشفى الحكومى بها.

كان ولا يزال يصدر فى شعره عن إلهامه وعقيدته وإيمانه، وفى ذلك يقول عن نفسه:

وهل كان شعرى غير إيمان مهجتى ... وعِشْقى وإحساسى ولَحنى المردَّد

وكون مدرسة أدبية تزعمها ترمى إلى الثورة على القديم والدعوة إلى الحرية فى الفكر

---

(١) والد الأديب الأستاذ سليمان نجيب.

والأدب والفن، وكان لهذه المدرسة مجلة أدبية تسمى مجلة (أبولو) الشعرية الأدبية، أصدرها أبو شادى فى القاهرة سنة ١٩٣٢ وكانت ندوة لأنصار الجديد من الشعراء والأدباء، وتكاد تكون المجلة الشعرية الوحيدة التى ظهرت فى العالم العربى، وقد استمرت نحو ثلاث سنوات ثم احتجبت.

وقد صادف أبو شادى فى حياته الحكومية والأدبية عنتا وأذى من رؤسائه وأنداده، واستهدف من أجل نزعته الحرة لشتى ضروب المناوأة، فاعتزم الهجرة من مصر، وهاجر فعلا إلى نيويورك فى سنة ١٩٤٦، وهناك رحبت به الدوائر الأدبية والعلمية ترحيبًا عظيما، وأخذ ينشر فى الصحف والمجلات العربية والأفرنجية فى أمريكا ثمار أدبه وشعره، ونفحات آرائه وأفكاره، كما أخذ يذيع من «صوت أمريكا» مرتين فى الأسبوع، وأسس فى نيويورك (رابطة مينرفا) الشعرية الأدبية على غرار (جمعية أبولو) وقدرته الحكومة الأمريكية والجامعات والمعاهد والمؤسسات الثقافية فى العالم الجديد، وانتخب أستاذًا للأدب العربى بمعهد آسيا بنيويورك، وهو يتولاه إلى اليوم[1] بجدارة تفخر بها مصر، ويعد أبو شادى رائدًا من رواد النهضة الأدبية والفكرية الحديثة، وهو رغم هجرته إلى العالم الجديد دائم الصلة بوطنه بواسطة الصحافة فى أمريكا وفى مصر، وبواسطة مريديه وتلاميذه الممتازين الذين اقتبسوا من روحه التقدمية وتعلقه بالحرية وإيمانه بما يقول ويكتب.

وهو فى أحاديثه ومحاضراته لا يفتأ يذكر مصر ويناضل عنها ويحن إليها ويشيد بها وبعلمائها وأدبائها وكتابها وتاريخها، وهو فى غربته خير سفير أدبى لمصر فى العالم الجديد.

وله عدة دواوين من الشعر نحى فيها منحى التجديد والابتكار. وحلّق فى سماء الفن والخيال والسمو الفكرى.

نذكر منها ديوان «أنداء الفجر» وهو أول دواوينه ومختارات من نظمه سنة ١٩١٠. و «أنين ورنين» وهو صور من شعر الشباب. و «الشفق الباكى» وقد ظهر سنة ١٩٢٤. و «الينبوع». و «أشعة وظلال» وقد نشر سنة ١٩٣١. و «أطياف الربيع». و «فوق العباب» وقد طبع سنة ١٩٣٥. و «عودة الراعى» وقد ظهر سنة ١٩٤٢.

ومن آخر دواوينه «من السماء» وقد ظهر فى نيويورك سنة ١٩٤٩ ويضم معظم شعره من سنة ١٩٤١ إلى سنة ١٩٤٩.

هذا ماعدا ما أخرجه من الكتب والمؤلفات والقصص والمسرحيات.

---

(١) وقت ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٥٤.

رثاؤه لمصطفى كامل

قال من قصيدة له فى فبراير سنة ١٩٠٨، وكان ما يزال طالبًا بالمدرسة الثانوية يرثى مصطفى كامل:

يا مصر حلّق طيرُ اليأس فى أفق ... داج بأحزان شعب كان ساليها
مات الرئيس فماتت بعده همم ... قد كان نبراس فكر منه يجليها

إلى أن قال:

سارت به أمة أحيا مداركها ... حتى إلى القبر وارت فيه حاميها
ودّت لو أن صروف الدهر تأتيها ... وتلكم النفس هذا الشعب يفديها
والكلّ يلبس ثوبا للحداد أسى ... على الفقيد ومامن ثمت يهديها
أبصارها نكست من فوقها كتبت ... عبارة كان صدق الحس يمليها
يامصر الفتاة مرور العمر تذكره ... لروحه لم تزل تعدو أمانيها

مفخرة رشيد

وله فى سة ١٩٢٥ قصيدة وطنية من نيف وستين بيتا، نظمها تمجيدًا لذكرى معركة رشيد التى وقعت يوم ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ بين المصريين والإنجليز وفاز فيها أبطال رشيد على الجيش البريطانى الذى زحف على مدينتهم يريد احتلالها، فصمدوا له وقابلوه فى الشوارع واستبسلوا فى الدفاع عن مدينتهم حتى صدوه عنها وهزموه وارتد عن المدينة بعد أن فقد فى المعركة ١٧٠ قتيلا و٢٥٠ جريحًا و١٢٠ أسيرا[1]، وكانت هذه المعركة حقا مفخرة لرشيد وأشاد أبو شادى أيضًا فى قصيدته بالمعركة الثانية التى وقعت فى (الحماد) وانتهت كذلك بهزيمة الجيش البريطانى.

قال:

رَوِّحينا بأحاديث الجلال ... وَبِنَفْحٍ من هواهم غيرِ بالِ
وَاسْمَحِى (يامصرُ) أن نُزجى لهمْ ... مُنْتَهى فَخْرِ رجالٍ برجالِ
ما عَرَفْنا قدرَنا إنْ لم نَحُزْ ... سيرةً منهم تُغذِّينا بحالِ
وبآمالٍ لِآتٍ غالبٍ ... إنَّ آتى المَجْدِ من ماضى الخيالِ

(١) راجع فى تفصيل معركة رشيد كتابنا (تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث – عصر محمد على).

خـاطئٌ مَنْ ظَنَّ مـاضيـه بـلا مُـرْشِدٍ يهْـدِى إلى غـالى المـآلِ
مـاَغـا شعبٌ بـلا جهْـدٍ مضَى وَتَـبَقَّـى فيـه تَـذْكـارُ الـفعـالِ
هـى أحـلامٌ وَأعـمـالٌ بَـنَـتْ فى سـنـينٍ وسنـينٍ كـلَّ غـالِ
هـو مَهْـدٌ وُلِـدَتْ فيـه الـعُـلَى بـأنـاةٍ وكـفـاحٍ ونـوالِ
لم تجِىءْ طَفْـرَةَ جيـلٍ لاعـبٍ إنمـا جاءت عـلى طُولِ اللّيـالى
كـابـرٌ عن كـابـرٍ قـد صـانَها بمـراعـاةٍ وأخـلاقِ المـعـالى

إلى أن قال محييا ذكرى أبطال رشيد الذين صدوا جيش الغزاة المستعمرين:

رَوّحينـا (مصـر) مِنْ ذكـراهـمـو تلكَ ذكـرى عن بُـلوغٍ لِمُحَـالِ!
بلّغـينـا كـيـف أوْدَى عَـزْمُـهـمْ بصعـابٍ قُمْنَ أقْسَى مـن جبـالِ!
كـيـف هَـزُّوا قُـوَّةً أكـبـرَهـا عـالَمُ القـوَّةِ والحـربِ الضـلَّالِ!
كـيـف ضَحَّـوْا لـلرمـال دَمـهـمْ فى دفـاع العـزِّ عن تلك الـرِّمـالِ!
كيف أفْنَـوْا من جُـنـودٍ صَـوَّبَتْ نحـوهم أقـوى مُعـدّات القتـالِ!
كـيـف كـيـف استـبـسلوا فى وَاجـب وَأقـامـوا المُلكَ وضَّـاءَ الخـلالِ؟!

***

يـا(رشيدُ)الـذكـرُ حَيٌّ خـالِـدٌ لعـظيم الجُهْـد معـدومِ المثـالِ
أنـتَ ثـغْـرٌ نـاطـقٌ فى رَسْمِـهِ حُـرْمَةَ المـاضين (للنيـلِ) الـزّلالِ

إلى أن قال:

مـثـلَ مـا أذكـى لهـا شُـبـانها فتحـدُّوا خَصْمَهمْ قـبـلَ السؤالِ
كـالجـرادِ نَشْـرُهمْ فيـكَ عـلى رَبَـوَاتٍ يـرقـبـون وتـلالِ
فـإذا الـعـادونَ جـاءوا مـا بهمْ ثـقـةٌ إلا وضـاعـت فى مَـلَالِ
وأتـتْ فـرقـتـهـمْ فى نَـشـوْةٍ عَنْكَ فارتـدّتْ خيالاً فى خيـالِ![1]
بـين قَـتْـلَى وَحيـارى هـربـوا وَضـحـايـا لإسـارٍ وعـقـالِ
ثـم جـاءوا فى جمـيسٍ لجـبٍ وعَـوَادٍ لم يكنْ جـالـتْ ببـالِ[2]

---

(١) يقصد معركة رشيد.

(٢) يقصد معركة (الحماد) التى تقع جنوبى رشيد بين النيل وادكو؛ وقد وقعت فيها المعركة الثانية بين الإنجليز والمصريين يوم ٢١ إبريل سنة ١٨٠٧؛ وكانت أشد وأقوى من معركة رشيد، وهزم فيها الجيش البريطانى أيضا هزيمة ساحقة، انتهت بفشل الحملة البريطانية وجلاء الإنجليز عن الديار المصرية فى سبتمبر سنة ١٨٠٧.

مِنْ متاريسٍ كَفَتْ رؤيتها ... لحسابٍ وَعقابٍ ونكالِ !
وعديدٍ بين باغى مَدفَعٍ ... أسودِ الوَجْهِ وإمْدَادٍ مُوَالِ !
وَأبَوْا إلا حصارًا هائلاً ... فدفعت الحَصْرَ دفْعًا بالعوالى !
وَغنِمت كلَّ ما كان لهمْ ... من شُموخٍ وَإباءٍ قبلَ مالِ
رحلوا رحلةَ جانٍ ضائعٍ ... بئس يومُ الخُسْر من يوم ارتحالِ

* * *

هكذا بالبأسِ تحيا أمَّةٌ ... لابخوفٍ أو غلوٍّ أو خَبَالِ
هكذا بالوَحْدَةِ الحسناءِ لا ... يعْدَمُ الإصباحَ أبناءُ الهلالِ
إنَّ شعبًا يتحدَّى (انجلْترا) ... فى مجالِ الحَقِّ شعبٌ لا يُنال
وَبَنين ينشدون مثل ما ... أحسن الآباءُ أَوْلَى باكتمالِ
إنما الأمّةُ مِن أفرادِها ... فى ثباتٍ ووفاءٍ ونزالِ

إلى أن قال :

إيهِ قومى قُمْتُ فيكْم ذاكرًا ... (نافرين) الأمسَ فى مُشْحى المقال
وأنا اليومَ طَرُوبٌ ذاكر ... دُرَّة التاريخِ شعّتْ كاللالى
فلنا كلتاهما عنوانُ ما ... يحفظُ التاريخُ من غالٍ وحالِ
أىُّ مصرىّ درى ما لَقَّنَا ... مِنْ عظَاتٍ ثمّ أضْحى وهو سالِ ؟
أىُّ جَمْعٍ مِنْ خصالٍ خرَّةٍ ... لم تكرّمْ جَمْعَ هاتيك الخصالِ ؟
أىُّ شعبٍ فى جلالٍ وسنىً ... يدّعى أنّا عبيدٌ وَمَوالِ ؟
كُلُّنَا فَرْدٌ له أُمّتُهُ ... حَظُّهُ بل قصْدُه فى كلّ حالِ
لاسُباتٌ – هانَ أم طالَ بنا – ... ما يُوِدّى بِعُلانا لانحلالِ
فى طلابِ المجد – أن تمضى بنا ... فترةٌ للهو أودوْرُ انتقالِ
خابَ مَنْ ظنّ الرقادَ ميتةً ... كم أسودٍ رقدتْ تحت الظلالِ !

* * *

آن رَجْعُ الجهْدِ قومى فانفضوا ... سِنَةَ اللَّهْو وهيَّا للمَجالِ !
بسلاحِ العلمِ قبل السَّيف قدْ ... صارتْ الحرْبُ أعاجيبَ اشتغال

رُبَّ خيطٍ من نسيج القطن لا ... يبلغُ المدفعُ منه كفعالِ
عالمٌ فيه الفنونُ قوةٌ ... والصناعاتُ، وليستْ للجدالِ
عملٌ مُسْتَتْبَعٌ لا ينقضى ... لاقتصادٍ وانتفاعٍ واشتمالِ

* * *

أمتى ! أحْلَى دُعائى دعْوَةٌ ... لك مِنْ قَلْبى بها أسمى ابتهالى ؟

رثاؤه لفريد

قال سنة ١٩١٩ من قصيدة له فى رثاء محمد فريد :

سلوا (برلين) عمن حل فيها ... يفتت كبده المرض العنيد
مضى يستوهب الأيام عمرا ... تتم به المساعى والجهود
فلم يذهب بعلته طبيب ... ولم يكتب له عمر جديد
وخرّ على السرير وحب مصر ... على تبريح علته يزيد
فيا لهفى عليك وأنت كهل ... غريب عن أحبته بعيد
تموت فلا ترى مثواك أم ... ولاأخت ولازوج ودود
ولا يروى ثراك أخ شقيق ... بدمعته ولاطفل وليد

الحياة كفاح

قال سنة ١٩٢٣ من قصيدة له عن (المجاهد الجريح) يصف الحياة وأنها كفاح وجهاد :

شهدتُ من الدنيا المعارك والمُنَى ... تسوق الفتى نحو المعارك والخَطْب
فصرتُ كجندىٍّ جريحٍ مضمَّد ... يئن ولكن كم يحنُّ إلى الحرب
ويهرب من حكم الحجا فى وثوبه ... إلى ساحة الهيجاء والموقف الصعب
توالت جراحاتى وأوذيتُ دائما ... وهيهاتِ أُلْقِى من سلاحى ومن دَأْبى

يدعو الشعب إلى مجاهدة الفساد

وقال من قصيدة له فى ديوانه (عودة الراعى) سنة ١٩٤٢ :

يا شعبُ قمْ وانشد حقو ... قك فالخنوع هو الممات

تشكو الغريب وعلة الشـ ـكوى الزعامات الموات

* * *

قد عمت الفوضى وقد دب الفساد بكل شىّ
فإذا سكنت فلن تُعـ ـدَّ ولن يفى لك أىّ حىّ

* * *

ما دمت تقبل أن تكـ ـون من الضحايا كالعبيد
سيسُومُك القُوَّام والأسـ ـياد ألوانَ القيود

* * *

يا شعبُ كيف تطالب الغُـ ـرباءَ بالبرِّ السخىّ
وتطيق مُلكَكَ فى محا باةٍ وفى نهب وغَىّ

* * *

هيهات يُعطى الحقَّ من ألف التهاون فى الحقوقْ
هذا هو العدل الصحيح وغيره عَيْن المروقْ

* * *

انهضْ وحاكم بائعيك إلى الهوى وإلى الفساد
أو متْ ذليلا لا يُقا س بذُلِّه حتى الجماد

يودع مصر

وقال يودع مصر ويذكر أسباب هجرته فى قصيدة له عنوانها (لم أرتحلت ؟) :

سألونى لم ارتحلت؟ كأنى لم أجبهم بسيرتى نصف قَرنِ
شاديًا بالطليق من شعرى الباكى أغنى لمجدهم ما أغنّى
وحياتى لعزهم فى كفاح ككفاح الشعاع فى وسط دجن
مُثُل لن تحد نوعا وعدا كنجوم السماء فى كل فن
وتبلغت بالعذاب وبالبؤس مرارا وكل حظى التجنّى.

وكــأنى وحـدى المسىء بــإحسـا ... نى لـعصـــرى أو أنـــه لم يسعـنى
مـــا كفـاهم أنى أعـــانى وجــودى ... فى وجــود بـقـــاؤه محض غـبــن
مـــا كفـــاهم أنى أواصــل لـيــلى ... بــنهـــارى لأجـلهــم وسط مَـــنّ
مـــاكفـــاهم أنى أضحّى بــروحـى ... حـيـنــا عــز مـن يضحى ويـفنى
مـــا كفـــاهم أنى تنـــاسيت نفسى ... فــوق نسيــانهم حقــوقى وأمـنى
مـــا كفـــاهم أنى لهم ذلـــك الـرا ... ئــد يشقى كـالــراح فى أسر دن
مـــا كفـاهم أنى ارتضيت شقـــائى ... لى جــزاء ويهــدمــون وأبــنى
مـــاكفـــاهم هـــذا وهـــذا فنـــادوا ... بـعقــوقى ومـــاراعـوا حـق سنى
ثم حـــالـوا بـــين المثـــاليـــة العلـ ... ـيـــا لفكـرى وبـــين شعبى وبينى
فتـــرحلت حيث تحترم الأحـــرار ... وحـــيــث الهــواء طــلق لــذهـنى
وأظـــل الـــوفىّ رغـــم اغـتـــرابى ... لـبـــلادى مـــا غـيـبـت قط عـنى

القلب الباكى

ومن قصيدة نظمها فى عيد ميلاده عام ١٩٤٨ يناجى فيها الوطن قائلا:

يـامصـر لـولاك مـا فـارقت فى حـرقى ... أزكى الجنـــان، ولاعـــوقـبت، لـــولاك
أهـواك فى غربتى أضعـاف ما سمحت ... بــه المقـــاديــر فى قـــربى، وأهـــواك
مـــا العيــد عـنــدى فى مبـــاهـجـــه ... أنـــا الغـريب فعيــدى يــوم ألقـــاك
عــلى ســلام وفى حـــريـــة شـمـلت ... لا أن أعــود لأغــلال وأشـــراك
الـــثـلج حــولى أحـــنى فى تحـــرره ... عــلى فـؤادى من ضـيـم بـدنـيـــاك
والنفى أسعــد أيـامى إذا فــرضــوا ... ذل الجـــبــــاه لمـــألـــون وأفـــاك
يـــاربّ مقتـــرب فى حـكم مـغتــرب ... وضـــاحـك كـــل مـا فى قلبـــه بـــاك

الحنين إلى الوطن

قال يصف حنينه إلى الوطن وتعلقه به فى غربته:

نَفْيـــان: نـفى مـغـــرَّب عن أمـتى ... عـــانٍ، ونفى معـــذَّب فى وحـــدتى
وحـيـــالى الأفـــراح شتى مـــالهـــا ... حـــدّ، فــلا ألقى النعيم بنعـمتى
قـالـوا فـررتَ ومـا فـررتُ وإنمـا ... كـــافـحت فى وطـنٍ بـــه حـــريتى

وضربت بالحرمان أمثال الهُدى ... للعاملين وكم شقيتُ لأمتى
لم أعن بالأشكال قدر عنايتى ... بتمسكى بمبادئى فى ثورتى
حرق البخور لمن أذلّ بلاده ... وحَرقتُ فى إعزارها من مهجتى
وجعلتُ ما عانيتُ قربانا لها ... وأظلّ فى سقمى وفى شيخوختى
وطنى! رضيتك منصفًا فى قدره ... جهدى وإخلاصى وغاية غيرتى

يتشوق إلى مصر

ومن قصيدة له فى حفلة أقيمت لتكريمه فى نيويورك سنة ١٩٥٠:

تركتُ مصر وقلبى لوعة ولظىً ... لجنّةٍ ضُيّعت فى نَوْم جنّان
فِدًى لها - لو أباحت - كلُّ ما ملكتْ ... نفسى وما وهبت فى حبها الجانى
تركتُها وبودى غير ما حكمت ... به المقادير فى أشجان لهفان
وقلت عَلِّى على بُعْدٍ أشارفها ... وأنفخ الصورَ إن فاتته نيرانى
اثْنان خُلِّدت الدنيا لأجلهما ... الحبُّ والتيل مذكانا بإنسان

الوطن بأبنائه

قال فى اعتراف المواطنين بأقدار الرجال وأنه من مظاهر الوطنية السليمة:

إذا عرف الرجال حقوق بعضٍ ... لبعضٍ نُزِّهوا عن كل ضعفِ
فتنتظم البلاد بهم وتسمو ... ويغدو الفرد معدودا بألف

تأملات

ومن قوله فى قصيدة له بعنوان (أقصى الظنون):

ما الخلقُ، ما هذه الدنيا ومنشؤها؟ ... ما الفكرُ ما الجوهر الباقى وما العدم؟
مسائلٌ هى للأحقاب باقيةٌ ... كنها سيبقى الردى والشك والألم
أجلُّ فرضٍ لها وَهْمٌ وأيسره ... وَهْمٌ وقد يستوى الدهماء والعلم

الوطنية والعروبة

ومن قصيدة له يعبر فيها عن وطنيته وعروبته:

إن العروبة والكنانة ملتقى ... دين يوحده الوفيّ العابد
فلموطنى روحى وكل جوارحى ... ولكم حنينى والشعور الماجد
يكفى لنا النسب العتيد مجمّعًا ... فجميعنا صَيدٌ رماه الصائد

نداء الحرية

ومن قصيدة له سنة ١٩٥١ يناجى الشعب ويمجد جهاده ضد الاحتلال فى معركة القتال:

بوركت يا شعب الكنانة ثائرًا ... حرًّا وياوطن البطولة قاهرا
أزجى إليك تحيتى من خاطرٍ ... دامٍ ومن قلب يذوب مشاعرا
يأبى النفاق ولا يبوح بغير ما ... جعل الحياة نفائسا وذخائرا
ليس الصديق هو المقَرَّب وحده ... ولَرُبَّ مهجور يُظن الهاجرا
إن كان غَيَّبنى العتاةُ فمهجىّ ... لك أين كنت مكافحًا ومناصرا
آبى مساومة الطغاة وإن أذق ... شر الأذاة، مواليا لك ذاكرا
إن كان يُعوزِنُا السلاح فربما ... خلق الإباء بنا السلاح الباترا!

* * *

وحشٌ للاستعمار يمعن شره ... باسم الحضارة والتقدم ساخرا
وكأنما حسب العقول نفاية ... للناس، أو بعض الهواجس دائرا
هل يصلح المذياع من آثامه ... حين الرصاص بصيح أرعن كافرا؟
حين الفظائع قد خَطَبْن بألسن ... للنار واعتلت الجراحُ منابرا؟
حين الأساطير التى يدلى بها ... سبت بصائر للورى وسرائرا؟
حين الخرائب صارخات حوله ... مثل اليتامى لا تمثل عامرا؟

* * *

إن كان حسن الظن ذنبا أولا ... فيه، فكيف يعد ذنبًا آخرا؟
هو غاية الإجرام للوطن الذى ... عانى وعانى من أذاه خسائرا
لن يمنح الوطن المفَدَّى صفحة ... لفتى يخادع أو يخادع صابرا
ويرى بالاستعمار بعض خلاصه ... هل كان الاستعمار إلا جائرا؟

قــرنٌ من التغــريــر عَلَّم نشــأنــا ... أن يحــذروه مــفــاوضــا ومشــاورا
حــذرًا بنى وطنى! فــذاك عــدوكم ... مهــما تقلب فى المظاهــر مــا كـــرا
لا تمنحوه سوى القطيعة وحدها ... فمن القطيعة ما يكون الـزاجـرا
أو ما يكون به الخلاص ليومكم ... وعــد نؤمــل فيــه بعثًــا بــاهــرا!
حــذرًا بنى وطنى وكــونــوا وحــدة ... فعّــالــة، لا ضجــة وحنــاجــرا!
ليست سلامتكم مجالا هيِّنا ... إن السلامة قد تكون مخاطِرا
لا تأسفوا – مهما حزنتم – للألى ... ذهبوا الضحايا فى (القناة) حرائرا
حمــل الأديم من النجيع وصية ... تبقــى لأحقــاب تــدوم ذواكــرا
خَلُّوا التغني بالجدود وفضلهم ... مــهــما تــلألأ روعــة ومفــاخــرا
فهــو الغنيّ بذاتــه عن ذكــره ... إلّا ليُلْهم غــافيًــا أو شــاعــرا
وخــذوا بأسبــاب لِمَنْعة حــاضــر ... إن الحقيقــة مــا تمثــل حــاضــرا
كــونوا من الشهــداء فى إعجازكم ... بثبــاتــكم، لا تجعلوه العــابــرا
لا عُــذْرَ بعد اليوم عند تهاون ... إن التفــوق لا يطيق معــاذرا!

يهاجم فاروقًا قبل خلعه

ومن قصيدة له نشرها فى مجلة (الشهداء) التى تصدر فى حلب – عدد ابريل سنة ١٩٥١، يهاجم فيها فاروقًا قبل خلعه بعام، ويشبهه بالكركدنّ، وهى من بليغ شعره الوطنى، قال:

مِنْ دَمعــة الشعب ومن كــدِّهِ ... ومــن دم الأمــة فى نَــرْدِهِ
ممــلَّك الحــد عــلى صفــوهــا ... يــاليتــهــا تملك مــن حَــدِّه
كم يجعــل الــديــن حبــالاتــه ... ليخــنق المصلح فى مهــده
قــد عَضَّهــا النحس، ومــا عضه ... إلّا فــم يــرشــف فى وجــده
يمــرِّغ الأمــة فى رجســه ... ويــســرق الأمــة فى رنــده
عــانــت بــه وبــأوشــابــه ... فى قُــرْبــه الجــانى وفى بــعــده
منتفخًــا، يمــزح مستغــرقــا ... فى، اللهــو كــالصــائد فى صيــده
كــالكــركــدن الــذى يــزدهى ... فى قبحــه يسخــر مــن قــده
لم تــعــطه غــانيــةٌ قــبــلةً ... إلا كــمــن تهــزأ مــن رشــده
أو بــادلــتــه نــكــتــة حــلوة ... إلّا ومــغــزاهــا مــدى نــقــده

* * *

حتام يا قوم ضلالاتكم تمكّن الفاجرَ من قصده؟
كنا نرجيِّه مثال الهدى فأصبح الغاشم فى حقده
كنا نغنيه أغانى العلى فأصبح المبدل من حمده
كنا نفديه بأرواحنا فى روحه العالى وفى زهده
ما باله أضحى فتى ماجنًا الشارد الخادع فى وعده؟
حتام يستهزىء من مجدكم؟ حتام؟ والخسةُ من مجده
حتام يسترسل فى غيِّه؟ حتام؟ والسوقة من جنده
حتام أعلاكم له صاغرٌ؟ حتام؟ بل أهون من عبده
أعقلكم دون دفين الثرى لو يعقل الميِّت فى لحده

يحيى ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢

وقال سنة ١٩٥٢ من قصيدة له محييا ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢:

بوركت يا وطنى العزيز محررًا سَمْحًا، وفى كل القلوب حبيبا
لو أستطيع كتبت شعرى من دمى حتى أزيد بشعرى الترحيبا
لو أستطيع سألت كل خميلة وبعثت بالشعر المنوَّر طيبا
لو أستطيع زففت ما أنا عاشق ليكون قربانا أعز قريبا
لو أستطيع بعثت من ضحك الضحى كنزا، ومن لهف الغروب نسيبا
لو أستطيع وهبت كل مكافح عمرًا تكرر فى الخلود عجيبا
لو أستطيع أعدتُ أعوامًا مضت لتقصَّ أحلاما رأت ووجيبا
لو أستطيع بذلتُ أضعاف الذى حُملت فى إيثارى التعذيبا
لو أستطيع غسلت ساحة دوركم بمدامعى، ورششتها تطييبا
لو أستطيع هربت من شيخوختى ورجعت أرفل فى الشباب قشيبا

ينادى بإلغاء الملكية

من قصيدة له فى أكتوبر سنة ١٩٥٢ يدعو إلى إلغاء المَلَكية:

اقطعوها وانبذوا من دعاها نعمةً، إنا شبعنا مِنْ أذاها
قد خُدعنا فى الذى قالوا لنا عن جَنَاها، بئس ما يُجنى جناها

أثَــرٌ أحـيــا قــرونـا سـلفـت ... وأمـات العصـرَ(١) فى بَغْيٍ تنـاهى

قلتُ «أحيـا» ليتـه الحُلم الـذى ... كان أحيا الأمس إصلاحا وجاها

إنمـا أحـيـا شـرورا سـلفـت ... زَوَّقُـوهـا كـى يَـعـدّوه إلهـا

خـدعـونـا حقبـةً واستسهلوا ... أن يُضلّوا الشعب فى الذل فتاها(٢)

كـم تغـنّـيـنـا بـحـب صـادق ... فـرأينـا مَنْ هَـوَى فيمن تباهى

سـلطة الـشـعـب هـى الأمُّ الـتى ... أمّت الأحـرار، لا دعوى سواهـا

يحيّى الجمهورية المصرية

وقال من قصيدة له فى ١٩ يونيه سنة ١٩٥٣ يحيى الجمهورية المصرية بعد إعلانها(٣):

إذا الحـكمُ لـلجمـهـور أصبـح رائـدًا ... أبى الحـقُّ أن يَلْقَـى بـه العـارَ والـظُّلْما

فيـه أمـة (النيـل) المبـارك حـاذرى ... – وقد نلْتِ ما تَهْوَيْنَ – أن تَخْلُقِى الضَّيْما

ولا تقبـلى الـتفـريـق فى أى مـظهـر ... فمن يقبـل التفـريق يستـأهل الـرَّجما

* * *

أعيـذكِ مـن وَهْـمٍ يـصـير عـقـيـدةً ... فكم أمـة هـانت بـإعـزازهـا الـوهـمـا

أعيـذ (جمـالا(٤)) والـزعيم (محمـدا(٥)) ... بِحِـذْقهـا مِن حَـدِّ مـطلبـك الأسمى

قــد انـتـزعـا من قيـل حَـظك عنْـوةً ... ومـا برحـا والـذهـر كـالـطائش الأعمى

تَجَـبَّرَ واسـتـعـلى فـردَّاه صـاغـرا ... وقـد كـان كـالمحموم سكـران بـالحُمَّى

وهـا أنتِ بـالعهـد الجـديـد طليقـةٌ ... ومُـنْـجبـةٌ أعـلام نهضـتـك الـشُّـمَّا

فـفـى كـل شـبر مـن ثـراك خميـلةٌ ... وقـد كـانت الـويـلات تغتـالـه قَضْمـا

وفى كـل ركـن من ربـوعـك ملجـأ ... تـلوذُ بـه خـيرُ المـواهب أو تُحْـمَـى

* * *

(١) أى العصر الحاضر.

(٢) فتاة، أى فضل.

(٣) أعلنت الجمهورية فى مصر يوم ١٨ يونية سنة ١٩٥٣.

(٤) جمال عبد الناصر

(٥) محمد نجيب.

فيـا (مصر) عَضِّى بـالنـواجـذ حُـرَّةً ... عـلى مـا كسبتِ اليومَ واغتنمى اليـومـا
وهـيَّـا أعـدِّى للغـد المـرتَجَى عُـلىً ... تـبـزُّ بـإعـجـاز لهـا كـلَّ مـا تَمَّـا
إخــاء وتـنـظـيـا وعـلـا وهـمـة ... وفـنًـا تهـزّ الـغـافـلين أو الـصُّـمَّا
ولا تشتكى من لاعـج اليُتْمَ بـعـدمـا ... أزلتِ بهـذا النَّصـر من دَمِـك الـيُتْـما
ألا فى سبيـل المجـد مـا قـد غَنمِتـه ... وهـا هو قـد أضحى لكـل الـورى غُنـما
فـإنـك لـلأقـوام أمثـولـة الهـدى ... ومـا خصَّ شعبـا يستفيـق ولا قَـوْمـا

* * *

تـبـارك ربِّ حـين يُـنـصـف أمـةً ... تعـافُ ذليـلَ العيش واليـأس والنَّـوْمـا
عـزيـزٌ عـلى مِثلى البِعـادُ وقـد زَهَتْ ... منـائـرك الـزهـراء تستقبـل السِّـلْما
عـزيـز وفى قـلبـى حـنـان مـؤرق ... وحسبى - عـلى رغمى - مفـارقتى الأمَّـا
إذا جئـت هـذا اليـوم أزجـى تهـانئى ... فـمـن قـلب محـروم تهـلل إذ يُـدْمـى
ولـكـنّ نـفس الحـر نـفسٌ عـجـيـبـةٌ ... تعيشُ عـلى الأضداد مهما تكن غُـرمـا

يذكر مصر ويحن إليها

وقال من قصيدة أخرى يذكر مصر ويحن إليها:

لاتنهـروا روحى لـفـرط ولـوعهـا ... دَمْعى الـذى تـأبون بعض مودعهـا
أَلْقَتْ بى الأحـداثُ دون ربـوعهـا ... وأظـلُّ أحيـا فى صميم ربـوعـهـا
تثب الـرُّؤَى حـولى بـأنفـاس الـربى ... ونـوافـح الغـدران حـول ربيعهـا
وتهـزنى الـذكـرى فـأشرق بـالأسى ... والـذكـريـات وهـو بهـا كمنوعهـا

* * *

كـم واهـمٍ أنى سـلـوت ومـا درى ... معنى الـسلوّ وحـرقتى لجـمـوعـهـا
إن الـفتى الـوافى بـكى حـصبـاءهـا ... كـبـكـائـه لـسمـائـهـا وزروعـهـا
دنـيـا الصبـاحـة والجـمال تـلألأت ... بـحنـانها، وتـراقـصت بـولـوعـهـا
أجـد الخـضـوع لهـا أحبَّ عـبـادة ... شتـان بـين عبـادتى وخـضـوعـهـا

* * *

لـو أستـطيـع طـردت عن أزهـارهـا ... غـير النـدى والشمس غب طلوعهـا

وحميتها مما أغار تجنيًا — وجعلت أضلاعى أبرّ دروعها
وبعثتها من نومها، وجعلتها — فى عزمها كالشمس بعد هجوعها
وَأثرتها لعظائم ومفاخر — سيان بين وَضيعها وَرفيعها

* * *

مصر الحبيبة جنةٌ لا أشتهى — منها الخيار، فخيرها بجميعها
أهوى لها الإعزاز كيف تمثلت — بحياتها وتصورت بصنيعها
إن كان عاقبنى الزمان بغربتى — فلقد أفاء علىّ حلم بديعها
أو لم تتل عينى شعاع سنائها — فلقد جنت عينى طيوف نزوعها
وتركننى فى حيرة لا تنتهى — والنفس حيرتها أشد صدوعها
ركعتْ بمحراب الجمال بوهمها — وَتبتلّت فى حبها وَركوعها
وَأذابت الأحلام فى ألحانها — وَالدمع وَالتقبيل يوم رجوعها!
لا تنهروا روحى لفرط ولوعها — دمعى الذى تأبون بعض دموعها

ذكرى الشهداء

وقال فى (ذكرى الشهداء):

ذكرى يرددها الزمان الوافى — ألق الشموس لها من الأفواف
شعّت على مرِّ السنين، وعمرها — عمر البطولة بآل كل شغاف
متغلغلا بنهى الفوارس، دافعا — من يحجمون إلى الخلود الصافى
اليوم يوم صلاتنا لجلالها — واليوم نقرؤها الحنان الوافى
وعلى الثرى نَجْثُو، تقبل ترَبة — عبقت بحر شعورها الرفاف
ما كان بالخافى على مستلهم — شهم، وليس على الأبىّ بخاف

* * *

إنا بنى الأحرار نعرف قدرها — ونشيمها فى النور والأطياف
وبكل معنى للعظائم شامخ — وبكل نبع للحقيقة صاف
لامجد غير الحق يبقى ناصعا — سمحا على رغم الردى المتلاف

* * *

هــذى مقــابــرهم وتلك دمــاؤهم ... مثـل النجـوم ونـورهـا الشفــاف
هيهـات يـدركهـا الـطغــاة وربمـا ... سجـدوا لها رغـما عن الآنــاف
سيجىء يــوم للحســاب، قضــاتهـم ... تلك العــظام، بغضبـة الإنصــاف!

* * *

يــا أمــة الأحــرار دومى حــرة ... والتضحيـات لـك الجـلال الكـافى
وبحسبـك الشهداء ضمـخ ذكـرهم ... هـذا الأثـير، وشــاع فى الألـطاف
يــوم كهـذا اليــوم تهتف عنــده ... مهـج الشعـوب العـانيات هتــافى
وتـعــزه الــدنيــا الـتى حلمت بــه ... حـلمـى، وتـزأر وثـبــة الآلاف!

يهاجم الإستعمار وينادى بالثورة عليه

ومن قصيدة له يهاجم فيها الاستعمار وينادى بالثورة عليه، نظمها سنة ١٩٥٢ لمناسبة الصراع بين الحرية والاستعمار فى تونس، قال فى مطلعها:

ثـوروا عـلى الـظلم العتىّ جهــارا ... لا تـرهـبـوه وإن يـكـن جـبــارا!
الـنــار لم تخـلق لـغــير مجـاهــد ... طلب العــظائم حين خـاض النـارا
لابــد مـن صَهْــر الـيقــين بـشعـلة ... حـتى يخـلص رائـعًــا قــهــارا
خَلُّو الـرصـاص مَـدوِّيًـا من حـولكم ... لابــد أن يَهْــوَى وأن يــتــوارى
هــذى البـدايــة للنهــايــة، لم يــدم ... حكم أسفّ بـه الـدخيـل فـبــارا
مُــرَّاكش ثــارت عــليــه، وفى غــد ... سنــرى الجـزائــر تصفـع الجبّــارا

* * *

أمُـم الـعــروبــة نـخــوة وأرومــة ... وثـقــافــة، أتقــدس استـعـمــارا؟
خسئــوا وضلوا، والخسيس بــطبعــه ... يـلقى الـكـرامـة والمكــارم عــارا
يــاويلهم، ومن الضـحـايــا حــولهم ... لُـسُنٌ تحـدث فى البصمـوت مــرارا

* * *

«فـرحـات»[١] ليس بــأول أو آخـر ... لجــرائــم روعــنــنــا تــكــرارا

(١) الزعيم العمالى التونسى الذى اغتاله الفرنسيون.

ما كان الاستعمار إلاَّ سُبَّة ولو أنها لبست حلى ووقارا
يلهو به المستعمرون كأن نسوا عقبى الذين يلاعبون النارا
قالوا: «هو النعم الجزيلة فيضه» واستنطقوا الأدهار والآثارا
فتضاحكت منهم، وفاضت عبرة ودما، وآلاما حوت، وشرارا

إلى أن قال:

إن قدر المستعمرون خضوعها أبدا فقد فقدوا لهم أعمارا
ومن الشعوب الساكنات ثوائر في حين يسمع غيرها هدارا
لن يستطعَ الذلَّ من تجرى بهم تلك الدماء وتخلق الأحرارا

* * *

عبد الحليم المصرى

١٨٨٧ - ١٩٢٢



من الشعراء الضباط. ولد فى مايو سنة ١٨٨٧، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية دخل المدرسة الحربية وتخرج منها سنة ١٩٠٦ فى التاسعة عشرة من عمره، وألحق ضابطًا بالأورطة السادسة عشرة من المشاة فى كسلا.

تعشق الشعر والحرية منذ صباه، فغاد بقصائد رقيقة فى التغنى بالوطنية والحرية.

وظل يغرد بالشعر ويتغنى به إلى أن وفى فى يوليه سنة ١٩٢٢، وكان حين وفاته فى ريعان الشباب، فكان لوفاته وقع أليم فى النفوس.

كانت له فى الشعر مكانة ممتازة، عبر عنها حافظ إبراهيم بقوله فى رثائه:

لكَ الله قد أسرعت فى السير قبلنا ... وآثرت يا «مصرىُّ» سكنى المقابر
وقد كنتَ فينا يا فتى الشعر زهرةً ... تفتح للأذهان قبل النواظر
فلهفى على تلك الأنامل فى البِلَى ... فكم نَسَجَتْ قبل البلى من مفاخر
ويا ويح للأشعار قبل نَجِيِّها ... وويح القوافى ساقها غير شاعر
تزودت من دنياك ذكرًا مخلّدًا ... وذاك لعمرى نِعْمَ زاد المسافر

وللمصرى ديوان شعر من ثلاثة أجزاء.

فجر الأمل

من قصيدة له نظمها سة ١٩٠٩:

ترعرع عهد اليمن واخضلَّ جانبُهْ ... وردَّ علينا اللّهُ ما الدهر سالبهُ
مضى زمنٌ كنا فريسة حربه ... وجاء زمانٌ ما نزال نحاربه

فلم يغلبك الدهر العصىُّ مجاهدا ... من الشرق إلا قام ألفٌ يغالبه
فيا شرقُ قد جاشت بنفسك أنفسٌ ... فعدِّدْ لها بالله ما أنت طالبه
فإما أصابت من مُناها طليبة ... وإما تمشت للقضاء تطالبه
تقول له إما احتسبت جزاءنا ... وإما محونا اليوم ما أنت كاتبه
جزاكنَّ عنى الله يا خير أنفس ... ورواك من ماء المجرة ساكبه
إذا ما النفوس الطاهرات تضامنت ... على فوزها أبدى لها الفوز حاجبه

إلى أن قال مخاطبا الزعيم محمد فريد:

(محمد) لا يَلْو الكرى لك عزمةً ... عن البأس حتى أن ترن نوادبه
نهزت بأنباء البلاد ولم تمل ... عن الجد حتى نظم الدر ثاقبه
طلعت بهم فى باسم الصبح عابسا ... فقالوا أبو حفص بَدا وكتائبه
كأنى وأنت اليوم تدعو إلى الهدى ... وأكتب ما يملى الرسول وكاتبه
فجرد شَبا تلك اليراعة صارما ... وضارب به من لا نطيق نضاربه
لقد روعت منا الهموم جوانحا ... وفرت من الجفن الحريص سواربه

ثم قال مخاطبا الكتابة:

فيا غادة فى الشرق قد غار نجمها ... أطلِّى على واد نَمتَكْ جوانبه
لقد كان روضا وارف الظل فى العلى ... بلابلهُ تشدو وتصفو مشاربه
فأصبح تذروه الرياح عواصفا ... ترامى نواحيه وينهال كاتبه
إلى أن دعا داعى الصلاح حياله ... فألفى رجالا كالأسود تجاوبه
دعوتُ أناسا ليس يدعو هو امرؤٌ ... إلى رغبة إلا وتمت رغائبُهْ

يصف قصر أنس الوجود ويشيد بعظمة مصر

وَقْفٌ عليك دموعى أيها الطلل ... عينى إليك وقلبى للأولى رحلوا
أرسلت بالعين فى سقياك هامية ... وفى الطلول البوالى ترسل المقل
لولا بقية أطلال لما عَرَفت ... عيوننا أين كانت دورُنا الأُوَل
ليت الأحبة حين البعد طاح بهم ... أدناهم الشوق أو أقصانى الأجل
يا عالما بالهوى أرشد فتاك إلى ... غير البكاء فقد ضاقت به الحيل

تبكى على دورهم مثلى وتعذلنى — أن أبكها وكلانا خطبه جلل
يا أيها الطلل المزورّ جانبه — هوّن عليك كلانا بعد هم طلل
وقفتَ بالبم رسما لاحراك به — واليم مضطرب والموج مقتبل
رَيَّاك من جنة الفردوس سارية — وأنت كالركن فيه تحمد القبل
الدهر ملّ وآى الدهر كامنة — فى وجهك الطلق لا يبدو بها ملل
قرأت فيهن سر العالمين فيا — شتان ما بين من قالوا ومن عملوا

وختمها بقوله :

فمن يجاريك فيما شدت يا (أنس) — المرء مرتحل والذكر مقتبل

يكرم الشيخ عبد العزيز جاويش بعد خروجه من السجن

ومن قصيدة له سنة ١٩٠٩ فى حفلة تكريم الشيخ عبد العزيز جاويش لمناسبة خروجه من السجن بعد استيفائه مدة الحبس (ثلاثة أشهر) التى حكم بها عليه فى أغسطس سنة ١٩٠٩ عن مقالة له فى (ذكرى دنشواى):

تصف السجون وما بها — من جائر للمستجير
أيام كنتَ تخال نفسـ — ـك بين سكان القبور
متقلبا فوق الفرا — ش تَقلُّبَ العانى الأسِير
وتود رؤية زائر — يحنو على ذاك المزور
ما خفتَ من سجن الخيا — ل وخفتَ من سجن الضمير
فى جانب الوطن العزيـ — ـز تهون هائلة الأمور

أسود النيل

من قصيدة قالها سنة ١٩٠٩ فى الاحتفال برأس السنة الهجرية سنة ١٣٢٧:

مالى أرى السودان طعمة آكل — هل أطمعتهم مصر فى السودان؟
أَنَسَوْا أسود النيل يوم تضرجوا — بدم العدى حين التقى الجيشان
متسابقين إلى الحصون كأنها — أوكارهم شيدت على الأفنان
متقاسمين العاديات كأنهم — فى الحرب مشتركان مختصمان

صوت الشعب

من قصيدة له يخاطب الخديو عباس الثانى ويطالبه بالدستور:

رُدَّ الوديعة لا مالا ولا شانا ... لم نرجُ فى جانب الدستور إحسانا
لولا ولاؤك لم نبسط إليك يدا ... من الرجاء ولم نسألك غفرانا

يناجى الحرية

من قصيدة له فى مناجاة الحرية سنة ١٩١٠:

حَلَاَلها البينُ فانجابت عن المقل ... ولم تودع قبيل السير من رجل
كأنما لم يضفها القوم فى بلد ... ولم يؤهل بها فى منزل حفل

إلى أن قال.

عودى أطِلِّى علينا إننا نفر ... إن حِلْت عنا فإنا عنك لم نحل
الدهر غيّرنا حتى إذا بصرت ... بنا الديار غدت منا على دخل
رُدِّى علينا عهودًا منك ناضرة ... يارُبَّ عهد تولى ثم لم يؤل
كنا وكنتِ وكان الدهر، فانقرضت ... أيامنا وتولينا على عجل
أصبحتِ فى غير وادى النيل ثاويةً ... والشمس فى الحوت غير الشمس فى الحمل
أيسجنون يراعا لم يُثر فِتَنا ... ويعقلون لسانا غير منعقل[1]

وختمها بقوله مخاطبا المواطنين:

أتى زمان نهوضٍ وانقضى زمنٌ ... كان البكاء يُرى فيه من الحيل
فراقبوا الله يومًا فى كنانته ... إن الكنانة أضحت مطمح الدول

---

(١) يشير إلى تقييد حرية الصحافة.

عزيز فهمى

شاعر الحرية والشباب
١٩٠٩ - ١٩٥٢



هو الدكتور عزيز فهمى، من أعلام الحرية والأدب، وأبطال الوطنية والجهاد.

ولد سنة ١٩٠٩ بطنطا، وهو نجل الأستاذ عبد السلام فهمى جمعه رئيس مجلس النواب السابق ومن المجاهدين فى الحركة الوطنية.

تلقى علومه الابتدائية والثانوية فى المدرسة الإبتدائية ثم فى المدرسة الثانوية بطنطا، ثم انتقل إلى مدرسة الجيزة الثانوية حيث نال منها شهادة البكالوريا.

وبدت عليه منذ أن كان يتلقى التعليم الثانوى ميوله نحو الحرية والأدب والشعر وأنشأ وهو فى مدرسة الجيزة الثانوية مجلة أدبية كان ينشر فيها آراءه وأشعاره.

وانتقل إلى التعليم العالى بالقاهرة، وجمع بين دراسة الحقوق فى كلية الحقوق ودراسة الأدب بالانتساب إلى كلية الآداب، فنال ليسانس الآداب سنة ١٩٣٢، والحقوق فى سنة ١٩٣٣، وكانت رسالته التى قدمها إلى كلية الآداب فى المقارنة فى الشعر العربى بين العصر الأموى والعصر العباسى.

وكان طموحًا إلى الاستزادة من العلوم والآداب، فسافر إلى باريس سنة ١٩٣٣، والتحق بجامعتها وحصل منها سنة ١٩٣٨ على الدكتوراه فى القانون وكان موضوع رسالته (الامتيازات الأجنبية فى مصر ومعاهدة مونترو)، وكانت أول رسالة من مصرى عن هذه المعاهدة، والتحق فى الوقت نفسه بالسوربون للحصول على الدكتوراه فى الأدب.

وقد شبت الحرب العالمية الثانية وهو فى باريس، فعاد إلى مصر سنة ١٩٤٢ مملوءًا وطنية وتضحية، مستكملا دراساته العلمية والأدبية.

وشغل منصب وكيل نيابة بالمحاكم المختلطة وقتا قصيرا، ثم ضاق صدرا بالقيود الحكومية، فاستقال مؤثرا العمل الحر والجهاد الحر، واشتغل بالمحاماة والصحافة، ووقف قلمه ولسانه، وقلبه وجنانه، على الجهاد في سبيل الحرية، ومكافحة الاستعمار والطغيان والفساد.

كان أديبا شاعرا، وخطيبا مفوها، يجمع بين بلاغة العبارة وسلاسة الأسلوب، وقوة التفكير، وغزارة المادة، والشجاعة الأدبية، كان يدافع عن الحرية بقلمه ولسانه على صفحات الجرائد، وبلسانه فوق المنابر، وفى ساحات القضاء، وتحت قبة البرلمان.

وقد اعتقل وحقق معه غير مرة بتهمة العيب فى الذات الملكية، أو التحريض على الإخلال بالنظام، وكان فى المحاماة يدافع عن الحرية وعن المتهمين فى جرائم الرأى، ويهاجم الطغيان والقلم السياسى والإجراءات التعسفية.

دخل البرلمان سنة ١٩٥٠ نائبًا عن دائرة الجمالية بالقاهرة فكانت صفحته فى دار النيابة أقوى صفحات حياته التى قضاها فى الكفاح الوطنى، وعلى أنه انتخب مرشحًا من الوفد، فإنه لم يتقيد بسياسة الحكومة الوفدية، وعارضها فيما يستحق المعارضة من تصرفاتها، وله فى ذلك المواقف المشرفة، وظهرت مواهبه البرلمانية كخطيب ومناضل برلمانى من الطراز الرفيع، كان يناضل عن الحرية فى كل مناسبة، وله المواقف المشهودة فى معارضة نظام الاشتباه السياسى، ومعارضة القانون المعدل لنظام مجلس الدولة وهو القانون الذى قدمته الحكومة الوفدية إلى البرلمان للانتقاص من سلطات المجلس واستقلاله، ودوّى صوته مجلجلا معارضًا مشروعات تقييد حرية الصحافة سنة ١٩٥١، وكان لمعارضته لهذه المشروعات دوىّ كبير وصدى استحسان عظيم فى الرأى العام، وبلغت مكانته الوطنية والبرلمانية ذروتها فى معارضته لهذه المشروعات حتى انتهت بسحبها من البرلمان، فكانت هذه النتيجة أعظم انتصار للفقيد فى حياته السياسية والوطنية.

ولما شبت معركة القنال بين الفدائيين والإنجليز عقب إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ فى أكتوبر سنة ١٩٥١، سافر إلى منطقة القنال، وساهم فى حركات المقاومة ضد القوات البريطانية، واستهدف للقتل غير مرة، فكان ذلك منه غاية البذل والتضحية.

وكانت وفاته يوم أول مايو سنة ١٩٥٢ فى حادثة فاجعة، بل مأساة أليمة، إذ كان يعتزم السفر إلى الفشن فى صبيحة ذلك اليوم ليترافع أمام محكمتها فى إحدى القضايا، وكان ينوى السفر بالقطار، ولكن مواعيد السفر كانت قد تغيرت ابتداء من أول مايو لحلول الصيف، وقد فاته أن يعرف الموعد الجديد للسفر، فلم يدرك قطار الصباح، فاستأجر سيارة ركبها قاصدًا الفشن، وفيما هى تسير فى الطريق الزراعى وقع لها قبل العياط ببضعة كيلو مترات حادث فجائى، قلبها رأسًا على عقب وهوى بها فى الترعة المحازية للطريق، فمات الفقيد غريقا،

وكانت وفاته فجيعة للوطن وبنيه، إذ فقدوا بوفاته مجاهدًا صادقًا بين المجاهدين الأحرار.

كانت وطنيته فوق حزبيته، وعقيدته أساس شخصيته، كان يرى فى الحياة السياسية رسالة يؤديها، لا يبتغى منها لنفسه مغنما ولا نفعا، ولا يقصد إلا وجه الله والوطن، فلا غرو أن حزنت الأمة لوفاته حزنا عظيما.

اسلمى مصر

قال رحمه الله من قصيدة له سنة ١٩٣١ بعنوان (اسلمى مصر):

اسلمى مصرُ على مرّ القرونْ ... حسُبكِ اللّهُ نصيرًا ومعينْ
لن تُضامى أنت يا مهد الخلو ... د وهذا بعض أشبال العرين
من تكن ليلاه مصر لا يَهِنْ ... ساعة البذل ولو ذاق المنون

إلى أن قال:

لا رعاكَ الله يا عهدًا مضى ... عهد بغى وافتئات وأفون
محنة لا عهد للناس بها ... جزع الصبر لها، والصابرون
عصفت بالحرث والنسل معا ... وأعادت عهد كسرى ونرُون
ونضت سيفا بَتوكا كلما ... هبّ، ذُقنا حدَّية المنون
دولة الحجاج أن قيست بها ... مَثَلٌ فى الرفق عند المنصفين

وهوى الأوطان للاحرار دين

إلى أن قال فى تمجيد التضحية:

فى يمين الله ما ضحيتمو ... لا يُضيع الله أجْرَ المخلصينْ
فى هوى مصر يضحى عن حِجًا ... ورضاء كل مُسْتَبْقٍ ضنين
لن يَضيع العُرفُ عند الله إنْ ... ضَيَّع الخير أصيلٌ وهجين
هو عند الناس جودٌ ووفا ... وهو عند الله إيمان ودين
ولبانات الهوى شتى كنا ... ر، سلِ التاريخ عنها والمنون
فهوى ليلى قيس متعة ... وهوى الأوطان للأحرار دين

هى ليلانا جميعا فانظروا هل قسطنا ما علينا من ديون؟
هل جمعنا من أفانين المنى ما تمنته على مرّ السنين؟
ليتنى أحيا إلى يوم أرى فجرَ مصر فيه وضّاء الجبين
لا أبالى أعظامى بعده فى سهوب[1] من ثراها أم حزون
لا سقاك النيل يا مصر إذا لم نقرب من أمانيك الشطون
ونُعِدْ مجدًا سليبا غابرا ونُعيِّر بِلِواكِ العالمين

لا يخشى الموت

كان رحمه الله يتنبأ بأن لا يطول به العمر وأنه سيموت فى ربيع الحياة، فكان يستعد للقاء الموت، ولا يهابه ولا يخشاه، وينشد الخلود.

قال فى هذا المعنى من قصيدة له سنة ١٩٣٣ بعنوان (لحن الموت):

أيها العرّافُ هل عند النجوم سرُّ هذا الكون أو عند المنون؟
كاذبٌ عِلْمُكَ ما لم تُنْبِنى جِرْتُ والله ولَجَّتْ بى الظنون
جَهَلَ السرَّ أناسٌ قبلنا وجهلْنا فوق جهل الأولين
حملوا العبء وقد ناءت به أمم من قبلِ عادٍ و(أمون)
ولكم ساءلتُ نفسى حائرًا حيرة السارى بليل ذى دجون:
ما وجودى؟ ما سبيلى؟ من أنا ما جهادى؟ ما مصيرى بعد حين؟

* * *

يا بنى أمى لقد جَدّ نوىً وغدا يجمعنى واد شطون[3]
لا تقولوا مات فى شرخ الصبا ذلك الحق تجلّى واليقين
ليس مِنى مَن بكانى فارعَوْا لن يردّ الدمعُ محتومَ المنون

* * *

(١) السهوب، كالسهول: الأراضى المستوية؛ والحزون؛ جمع حزن وهى الأرض الصلبة.
(٢) الشطون: البعيد.
(٣) الشطون: البعيد.

لا تقولوا ليته عاش! فقد فارق الأصفادَ عصفورٌ سجين
شاقنى الخلد كما شاق القطا سلسبيل فى عقاب وقرون[١]

يا قارئ الكف

وقال فى هذا المعنى سنة ١٩٤٤ من قصيدة له بعنوان (يا قارئ الكف):

يا قارئَ الكف ماذا أضمر القَدَرُ؟ ولا عليك إذا لم يَصْدُقِ الخَبَرُ
وما اهتمامك باسمى؟ هَبْهُ عنترةً وهبه زيدًا.. وجدى عمرو أو عمر
عليك بالكف فاقرأ بين أسطرها ماذا يدل عليه الخط والأثر؟

* * *

أطالِعُ اليمن أن الخط متصل وَآية النحس أن الحد منبتر؟
وما الشيات[٢] على جنبى ثمانية تبدو كوشم وتخفى حولها غرر؟
خبرٍ عن الفأل لا تحفل فسانحةٌ عندى كبارحة والشر ينتظر
هل أنْسأَ الله فى عمرى إلى أَجل يلحّ فيه علىَّ الهمُّ والكِبَرُ؟
وهل أُبَلَّغ آمالى؟ وأبعدُها عندى كأقربها ناءٍ ومحتضرُ
هبْنى ظفرت بآمالى على ظمأ إذا ارتويت فماذا يعقب الظفر؟
وهل أُوسَّدُ حَزْنا حَرَّةً وحصى فى جوف هاوية أغوارها حجر
أم هَوْجلاً[٣] قَذَفا[٤] تنبو براكبها لا البيدُ عبَّدها يومًا ولا الحضر
قفراء جرداء لم تكلأ حشائشها إلَّا السواقى ولم يعلق بها مطر
أم تُقْدَحُ النار من حولى فتطعمنى حيًّا وأشوى بها أيَّان تستعر
أم أن فى مسبح الحيتان منقلبى يوم الرحيل إذا نادانى السفر[٥]

* * *

(١) [illegible] جمع [illegible]: طريق فى الجبل وعر، وقرون: جمع قرن: القطعة من الجبل.
(٢) السيات، جمع شية: العلامة.
(٣) الهوجل: المفازة البعيدة لا علَم بها.
(٤) القذف: البعيدة.
(٥) كأنه فى هذا البيت كان يتنبأ بموته غرقا، وقد توفى رحمه الله غريقا سنة ١٩٥٢.

قل ما بدا لك واهرفْ غير مبدع — فالرجم بالغيب – لو تدرى – هو الهذر
اللحد كاللحد والأكفان واحدة — ولا خيار لْميت حين يدَّثر
والمال كالعُدْم لولا أنه أملٌ — إن الغنى إلى الأموال مفتقر
والسعد حال على الإنسان طارئة — (وعند صفو الليالى يحدث الكدر)
لولا التشابه فى الأقدار ما صدقت — عرَّافةُ الحيّ من تُوفَى لها النُّذُر

الشورى

قال من قصيدة له سنة ١٩٤٣:

بنى مصر هذا الحق أبلج واضح — وهذا صراط يستوى عنده القصدُ
إذا شئتم الشورى فذلك حكمها — وإن شئتم الفوضى فليس لها حدّ
تولى زمان الحاكمين بأمرهم — ولم يبق فى الدنيا مسودٌ ولا عبدٌ
تولى زمان الفرد لا عاد عهده — وبدل بالدستور سلطانه الفرد

الضمير

وقال يصف الضمير من قصيدة له سنة ١٩٤٤:

صاحبٌ وسنان من طول السهرْ — إن تنم ناداك أو تنس ادّكرْ
كلما غافلته فى سكرة — من أمانيك تجنّى أو عذرْ
فإذا كُفِّرت عن وزر عفا — وإذا عدت إلى إثم ثأر
ليس ملموسًا فتدرى كنهه — وهو ما كُتِّمت يدرى ما تسر
وتواريه فيغضى ساعة — ثم يستيقظ فى لمح البصر
ليس عقلا أو شعورًا خالصًا — بل تُراثًا من شعور وفكر
فهو عقل باطن أو ملهم — وهو إحساس قديم مدخر
كم جرعت الصاب من ترياقه — واستسغت الشهد مما قد هصر
أنتما الدهرَ طريدٌ آبق — وغريمٌ طاردٌ أو منتصِرْ
أينما وليتَ أحصى مُرْجئًا — موعدًا حتما فأيّان المفر؟

* * *

يتراءى شاحبًا أو إمَّعًا فهو كالظل إذا الظل انتشر
وهو جبارٌ عنيف تارةً وهو أحيانًا ضعيف يأتمر
وهو إعصار وريح صرصر وهو كالسيل إذا السيل انهمر
وهو كالبحر إذا البحر طغى وهو كالموج إذا الموج انحسر
وهو كالسهم إذا السهم رمى وهو كالسيف إذا السيف بتر
آمرٌ ناهٍ وعاصٍ طيعٌ وهو الآمر وهو المزدجر
لا ينام العمر إلَّا ساعة فترقبها وبالغ فى الحذر
ساعة إن نمت عنها غافلا عدت كالمخمور أو كالمحتضر
أيها الساهر نم أو لا تنم وترفًق وتجلد واستبعِرْ
إن جنينا فعلينا وزرنا وإذا نحن أبَيْنا فاعتذِرْ

ومصر تناديهم وصوتى يردد

وقال فى يونيه سنة ١٩٤٦ وهو معتقل فى سجن الأجانب:

كفاك عزاء أنك اليوم أوحد وقد يسكن الغمد الحسام المجرد
يهون عذاب السجن والليل موحش ويذهب عنك الحزن فيه تجلد
وقد يؤسر الليث المنيع عرينه ويرهب منه الصوت وهو مصفد
أهبت بقومى أن يذودوا عن الحمى ومازلت أدعوهم ومازلت أشهد
أهبت بقومى والخطوب زواحف تلم بهم طورًا وَطورًا تهدد
وَأنذرت حتى بح صوتى وَلم أزل وَمصر تناديهم وَصوتى يردد

نذرت نفسى قربانًا لفاديها

وَمن قصيدة أخرى نظمها وَهو فى سجن الأجانب سنة ١٩٤٦:

شكت إلى الله من عدوان أهليها وعاث غاصبها فى أرض راعيها
واحرّ قلباه من يأس يصارعها يكاد لولا بقايا الصبر يرديها
فزعت من غدها علما بحاضرها ورضت نفسى على نسيان ماضيها
وَقفت قلبى عليها فى شبيبته فشاب منها ومن عدوَان ساليها

لما أفقت من الماضى بلا أمل ... نذرت نفسى قربانا لفاديها

* * *

ذكرت مصر فهاجتنى مواجعها ... وَعزنى الدمع حتى كدت أبكيها
يا لائمى وَأنا الجانى على كبدى ... دع عنك لومى فإن اللوم يغريها
كلٌ يغنى ليشجى سامرا وَهوى ... وَقد يغنى لأوطار يرجيها
وَليس لى سامر فيها وَلا وَطرٌ ... وَلا زعمت جوادى من مذاكيها
وَإنما هى آلامى أكتمها ... حتى يضيق بها صدرى فأحكيها

* * *

نزحت عنها فلم أعدل بها وطنا ... وبات قلبى أسيرًا فى مغانيها
وصنت شعرى إلاَّ عن مفاتنها ... وهمت فى الأرض مسحورًا بواديها
ورق شعرى كما رقَّت جداولها ... وراق وصفى كما راقت مجاليها
وما رأيت كناسًا فيه جؤذره ... إلا ذكرت غزالا فى مراعيها

* * *

لما رُدِدْت إليها رد لى أملى ... عند اللقاء وأحيانى تدانيها
وقد طويت إليها اليم واقتربت ... بى السفينة من أولى موانيها
فكاد يظفر قلبى من توثبه ... وقد تنسم ريحًا من نواحيها
وحال قلبى دموعا عند ما اتأدت ... فرحت أنثر دمعى فى ضواحيها
سجدت لله عرفانًا لنعمته ... لما حللت رفيقًا من روابيها
فكيف حالت حياتى عندها سقرًا ... وكيف أصليت نارًا من سواقيها!

* * *

جارت عليها صروف الدهر واختلفت ... أيدى الرماة فآها من أعاديها!
راشوا لها السهم مسمومًا فشتتها ... وكاد لولا يد الرحمن يصميها
واثخنوها جراحا فى مقاتلها ... يا للجريمة من عدوان آسيها

إلى أن قال:

فزعت من شرك يلقيه غاصبها ... قبل الجلاء لعل (الوعد) يغريها

وما الجلاء إذا شدت[١] بسلسلة   من القيود و (شرط الحلف) يمليها
تشعب الرأىُ والأحزاب سادرة   ومصر صابرة والصبر يضنيها
وكيف تنهض من أسر يكبلها   والقيد آمرها والقيد ناهيها

بنى وطنى أهبت بكم زمانًا

وقال فى نوفمبر سنة ١٩٤٦ يندد بالإنجليز على أثر الاعتداءات الدامية التى وقعت منهم فى القاهرة والإسكندرية، ويدعو المواطنين إلى البذل والتضحية:

سلوا من سامها[٢] هذا العذابا   ومن شرع الأسِّنَّة والحرابا
سلوا جلادها تبَّتْ يداه   بأى شريعة فرض العقابا
أما ينهاه عقل أو ضمير   يرد له المحجة والصوابا
ضلال أن يعاتَبَ مستبدٌّ   وَ أولى بالمسوَّد أن يعابا
وجهل أن يخاطب غير أهل   فلا تحزن عليه إذا تغابى
يصعِّر خده صلفًا وحمقًا   ويوردها على ظمأ سرابا
وكم أسدت إليه وكم تجنى   ولم يحسب لعاقبة حسابا
بأى جريرة وبأى عدل   تجرع مصر كأس النصر صابا؟
ولولا مصر ماغنموا فلاة   ولو مصر ما غلبوا ذبابا

* * *

سلوا (دنكرك) هل نهضوا بعبء   وقد غنموا السلامة والإيابا
سلوا (الصحراء) عنهم كيف طاروا   وهل تخذوا النعام لهم ركابا
سلوا (العلمين) هل نبتوا بأرض   وقد سبقوا مع العَدْو السحابا
فكيف تعاظموا بعد انكسار   وكيف تبدلوا أسْدًا غضابا
سلوا (الميثاق)[٣] هل وأدوه صبحًا   وهل نسجوا من الكفن الإهابا
وكيف جرى على فمهم كذابا   وسال على سواعدهم خضابا

(١) الإشارة هنا إلى مصر.
(٢) يقصد الإنجليز
(٣) ميثاق الأمم المتحدة.

وكيف استبدلوا شرعًا بشرع ... فأضحى الحق عندهم اغتصابا
كذلك تلذع الأفعى كريمًا ... جزاء صنيعه وتمد نابا
وبين الناس رقط وابن آوى ... وذؤبانٌ ومن غلب الذئابا

إلى أن قال:

ويا وطنى فديتك من جراح ... إذا نكأت حملناها عذابا
وهل يأسو الجريح سوى جريح ... يشاطره الفجيعة والمصابا
وكم من قسور ورد المنايا ... يروع ببطشه السبع السغابا
إذا كرت عليه الخيل فرّت ... وإن سام الجياد حمى العرابا
روى دمه ثراك ففاح مسكا ... وأينع روضة وزكا ترابا
وآخر فى (الجنوب) ثوى شهيدًا ... فضج النيل واجتاح الرحابا
لحا الله الخوارج والمطايا ... ومن أضحت نفوسهم خرابا
ولا كان الجلاء إذا أحلوا ... مع الحلف المرافق والرقابا
وطوبى للأولى ذهبوا فداء ... إلى الرضوان واستبقوا الثوابا

* * *

بنى وطنى أهبت بكم زمانا ... فلما بح صوتى قيل هابا
ولو نطق الجماد كما نطقنا ... لأسمعه الصدى عنكم جوابا

* * *

على الغاياتى



من شعراء الوطنية ومن المجاهدين القدامى، اعتنق مبادئ مصطفى كامل منذ أن استمع إلى خطبته الكبرى التى ألقاها بالإسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧، وصار من تلاميذه وأنصاره الأوفياء الحافظين لعهده طوال السنين.

انضم إلى أسرة الصحافة منذ صباه. وعمل فى صحف الحزب الوطنى المتعاقبة. واتجهت نفسه إلى الشعر، فنظم قصائد تفيض وطنية وإخلاصا. وقد جمعها فى ديوان أصدره سنة ١٩١٠ بعنوان «وطنيتى» وله مقدمتان، إحداهما بقلم محمد فريد، والثانية بقلم عبد العزيز جاويش. وكان لهذا الديوان قضية أثرت فى مجرى حياة الشاعر. فقد أقيمت عليه الدعوى العمومية وحوكم على قصائد من هذا الديوان عدتها الحكومة وقتئذ عيبا فى ذات ولى الأمر (الخديو عباس الثانى) وتحريضا على كراهية الحكومة والإزدراء بها، وتحبيذًا للجرائم (السياسية)، وحكم عليه من محكمة جنايات القاهرة فى أغسطس سنة ١٩١٠ بالحبس سنة. وقد صدر الحكم عليه فى غيبته، إذ كان قبل محاكمته قد ارتحل إلى الاستانة، ثم إلى سويسرا حيث أقام فى (جنيف)، وأصدر بها سنه ١٩٢٢ جريدة (منبر الشرق) بالفرنسية، وجعلها وقفا على الدفاع عن قضية مصر وقضايا الشرق عامة. وظل فى منفاه حتى عاد إلى مصر سنة ١٩٣٧ واستأنف فيها إصدار صحيفته (منبر الشرق) بالعربية حتى اليوم[١] – مد الله فى حياته – وهى صحيفة وطنية شرقية إسلامية أخلاقية، تدافع عن القضية الوطنية وقضايا العروبة، وتناضل عن الحرية والاستقلال للشعوب الشرقية جمعاء.

إلى مصطفى فى حياته

من أول شعره الوطنى قصيدة نظمها سنة ١٩٠٧ وقدمها إلى مصطفى كامل عقب خطبته بالإسكندرية، قال مخاطبا الفقيد:

(١) أى حتى وقت ظهور الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٥٤.

اصدع بقولك إن أردت مقالا | فالقوم جندك إن دعوت رجالا
لم تدر مصر سوى حماك تؤمه | فترى به آلامها آمالا
أقبل على الوطن العزيز بصارم | لا تدرك الأعداء منه كلالا

وختمها بقوله

فادأب على إنهاض أمتك التى | ترجو وراء خطاك الاستقلالا

وطن يناجى ربه

قال من قصيدة له بهذا العنوان:

رب أن البلاد أرهقها الظلم وحاقت بأهلها البأساء
رب إلى الصدور أحرجها الوجد وأودت بحلمها الأرزاء
فتدارك بلطفك النيل حتى لا تجارى حياة مصر دماء

قصائد حوكم من أجلها سنة ١٩١٠

من قصيدة بعنوان (طيف الوطنية):

وعداة ملكوا الأمر ولم | يحفظوا للشعب فى حقٍّ ذماما
وولاة أقسموا أن يسجدوا | كلما رام العدا منهم مراما
رب ماذا يصنع المصرى إن | جاوز الصبر مدى الصدر فقاما
طال يوم الظلم فى مصر ولم | نذْر بعد اليوم للعدل مقاما
هل يرى المحتل أنا أمة | مذ عرفنا السلم لاندرى الخصاما
أو يرى الظالم فينا أننا | نحمل الخسف ولانبغى انتقاما
زعموا زورا، فما من أمة | سامها العسفَ ظلومٌ ثم داما
كتب النصر لشعب ناهض | فى سبيل المجد لا يخشى الحماما

ومن قصيدة له يندد بالخديو عباس الثانى:

أعباس هذا آخر العهد بيننا | فلاتخش منا بعد ذاك عتابا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة | ننال إذا رمنا الحياة عقابا
ونيأس من آمالنا فيك كلما | قضيت علينا أن نكون غضابا
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها | وأصليتنا بعد (الوفاق) عذابا
رويدك يا عباس لا تبلغ المدى | ولا تستمع للظالمين خطابا

فما يبتغى (جورست) إلا مكيدة   تحول أقلام السلام حرابا
وها قد رمى حرية القول رمية   بسهمك تجنى للبلاد خرابا

يهاجم الوزارة

وقال فى هذه القصيدة يهاجم وزارة بطرس غالى التي كانت تتولى الحكم وقتئذ:

ألا أمطر الله الوزارة نقمة   ولا بلغت مما تروم مراما
تحاول أن تقضى علينا بإثمها   ولكن ستلقى دون ذلك أناما
وزارة خدّاع أقامته بيننا   يد الحاكمين الآثمين فقاما

ومن قصيدة أخرى له يندد بهذه الوزارة على أثر امتناعها عن حضور جلسات مجلس شورى القوانين فرارا من مناقشات الأعضاء:

يا أيها الوزراء ماذا نابكم   حتى هجرتم صورة النواب

إلى أن قال:

فتزلزلت أقدامكم من هولها   وهرعتمو فزعا إلى الأبواب
ورضيتمو الهرب المعيب لأنه   خير من الإفلاس عند حساب
عارٌ عليكم أن يقال وزارة   لم تدر إن سئلت بيان جواب

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩١٠:

طال ليل البلاد والشعب سار   لايرى غير هذه الظلمات
ظلمات من المظالم أودت   بضياء الحياة بعد الحياة
يشتكى الشعب والقضاة خصوم   فلمن يشتكى خصام القضاة

ومن قصيدة له يخاطب الشيخ عبد العزيز جاويش عندما حكم عليه لأول مرة سنة ١٩٠٩ ونشرها فى ديوانه (وطنيتى):

يا ساكن السجن الكريم وأنت نعم الأكرم
ما السجن للشرفاء إلا   رفعة وتنعم
أنت البرىء ومن يخا   لك مجرما هو مجرم

* * *

هذا ما وعته الذاكرة وما وسعنى الجهد فى استقصاء الشعر الوطنى، ولعلى بإخراج هذا الكتاب أحقق أمنية كانت تجول فى خاطرى منذ عدة سنوات. ولا زلت أكرر اعتذارى عما عسى أن يكون قد فاتنى تدوينه من الشعر الوطنى. وإنى لمتدارك هذا النقص فى المستقبل القريب إن شاء الله[١].

* * *

راجع هذا الكتاب

الأستاذ حلمى السباعى شاهين

المستشار بإدارة قضايا الحكومة

---

(١) لم أستطع تدارك هذا النقص كما وعدت القارئ فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب بسبب ما ألم بى من مرض مازلت أعانيه، أدعو الله الشفاء.

وفاة المؤلف

وعقب الانتهاء من مراجعتي هذا الكتاب بأيام معدودة كان يوم مصر الحزين، يوم ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦. حيث فقدت مؤرخها الوطني المحقق. فروع الشرق لوفاته. وخرجت جموع الشعب ظهر ٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦ تودعه إلى مقره الأخير. إلى ضريح زميليه في الكفاح المرحومين مصطفى كامل ومحمد فريد بميدان القلعة بعد أن أدى الفقيد الكريم رسالاته في جميع الميادين التي خاضها – محاميا صادقًا ونقيبًا للمحامين وأبًا روحيًّا لهم، وبرلمانيًا جريئًا، ووطنيًا مخلصًا ثابتًا على مبادئه. ومؤرخًا حرًّا محققًا – جمع لمصر تاريخها القومي في مؤلفاته العديدة، في مختلف عصورها، فإليك أيها الفقيد العظيم بكائي، بل دعائي، وما أنت في حاجة إليه، بل نحن أحوج ما نكون إلى تسجيل تاريخك وكفاحك، ليكون هاديًا ونبراسًا للجميع، وهو دين في عنقي لعلني أوفيه لهذه الأمة العظيمة، أما أنت فمثواك الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والأبرار... !

١٩٦٦/١٢/٢٥

ابنك الروحي

حلمي السباعي شاهين

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة

للمؤلف

حقوق الشعب :

يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان . طبع سنة ١٩١٢ .

نقابات التعاون الزراعية :

يتضمن تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته فى أوروبا ، ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع سنة ١٩١٤ .

الجمعيات الوطنية :

صحيفة من تاريخ النهضات القومية يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها . طبع سنة ١٩٢٢ .

تاريخ الحركة القومية (فى جزأين) :

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر . وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩)

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى عهد ولاية محمد على(الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩) .

عصر محمد على :

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٠)

عصر إسماعيل (فى جزأين) :

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢)

الجزء الثانى : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢) .

الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧) .

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢) .

مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩) .

محمد فريد : رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١) .

ثورة سنة ١٩١٩ فى جزأين :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (فى جزأين) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ .

الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة . وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شبوب الثورة فى مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة فى القاهرة والأقاليم .

الجزء الثانى : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ومحاكمات الثورة ولجنة ملنر . والحوادث التى لابستها ومفاوضات ملنر واستشارة الأمة فى مشروع ملنر . والتبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية . ونتائج الثورة فى حياة مصر القومية .

فى أعقاب الثورة المصرية (ثورة سنة ١٩١٩) : فى ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : تاريخ مصر القومى من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧)

الجزء الثانى : تاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ – سنة ١٩٤٩) .

الجزء الثالث : تاريخ مصر القومى من ولاية فاروق عرش مصر فى ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١ (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١) .

مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ :

(الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢)

الكفاح فى القنال سنة ١٩٥١ – حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ .

وزارات الموظفين – أسباب الثورة – فاروق يمهد للثورة .

ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ :

تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ – ١٩٥٩ (طبع سنة ١٩٥٩)

تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة :

من فجر التاريخ إلى الفتح العربى (طبع سنة ١٩٦٣)

تاريخ مصر القومى .

من الفتح العربى حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية طبع بعد وفاة المؤلف

مذكراتى (١٨٨٩ – ١٩٥١) :

خواطرى ومشاهداتى فى الحياة .

شعراء الوطنية فى مصر :
تراجمهم . وشعرهم الوطنى . والمناسبات التى نظموا فيها قصائدهم الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤

أربعة عشر عامًا فى البرلمان :

مجموعة أقوالى وأعمالى فى البرلمان :
فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ – ١٩٢٥
وفى مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١ (طبع سنة ١٩٥٥) .

كتب مختصرة

مصطفى كامل :
باعث النهضة الوطنية (طبع سنة ١٩٥٢)
بطل الكفاح . الشهيد محمد فريد : (طبع سنة ١٩٥١)

الزعيم الثائر أحمد عرابى :
(الطبعة الأولى – يناير سنة ١٩٥٢)

جمال الدين الأفغانى : (طبع سنة ١٩٦٦)

بحث وتحليل معاهدة سنة ١٩٣٦ :
استقلال أم حماية (طبع سنة ١٩٣٦)

كتب لطلبة المدارس الثانوية :
(طبعت سنة ١٩٥٨ – ١٩٥٩)

مصر المجاهدة فى العصر الحديث :
فى ست حلقات تشتمل على كفاح الشعب فى عهد الحملة الفرنسية ثم كفاحه فى العهود التالية إلى بداية ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ .

(تحت الطبع)
مختاراتى من دواوين الشعراء فى الجاهلية والإسلام .

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٩٠٤٢
الترقيم الدولى	ISBN 977 – 02 – 3873 – 4

١ / ٩٠ / ٧٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه الأعمال الكاملة

يظل عبد الرحمن الرافعي هو أبا جبرتي مصر الحديث فقد عكف طوال عمره على كتابة التاريخ المصري فدوّن تاريخ الحركة القومية في عصر المماليك والحملة الفرنسية حتى ثورة ٢٣ يوليو في سبع سنوات. وإلى جانب هذه الحقبة التاريخية هذه يكتب أيضا مؤلفات أخرى هامة

وكتابات الرافعي تتسم بالصدق والدقة والحيدة فهو يبدأ بذكر أسباب الحادث ثم سرده ثم رأيه فيه ومن ثم فإن فكر الرافعي يسود هذه المؤلفات ويعبر عن كفاح الشعب المصري في مواجهة القوى المختلفة والملابسات التي أحاطته

ودار المعارف تقدم هذه الأعمال الكاملة للقارئ العربي حتى يقف على تاريخ وطنه العظيم وكفاحه المشرف ومطالبته الدائمة بالحرية والحق والديمقراطية

